وَسَارِعُوا إلى مَغفرةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّموات وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقِين
قرآن كريم

طِبُّ القُلوب

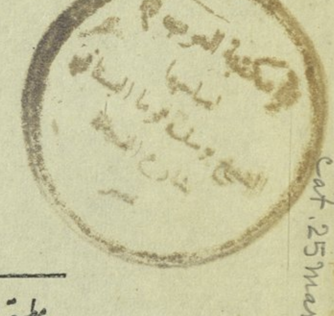
أو

صفوة إحياء علوم الدين للإمام الغزالى

تأليف
محمود معوض
المراجع بالبلديات

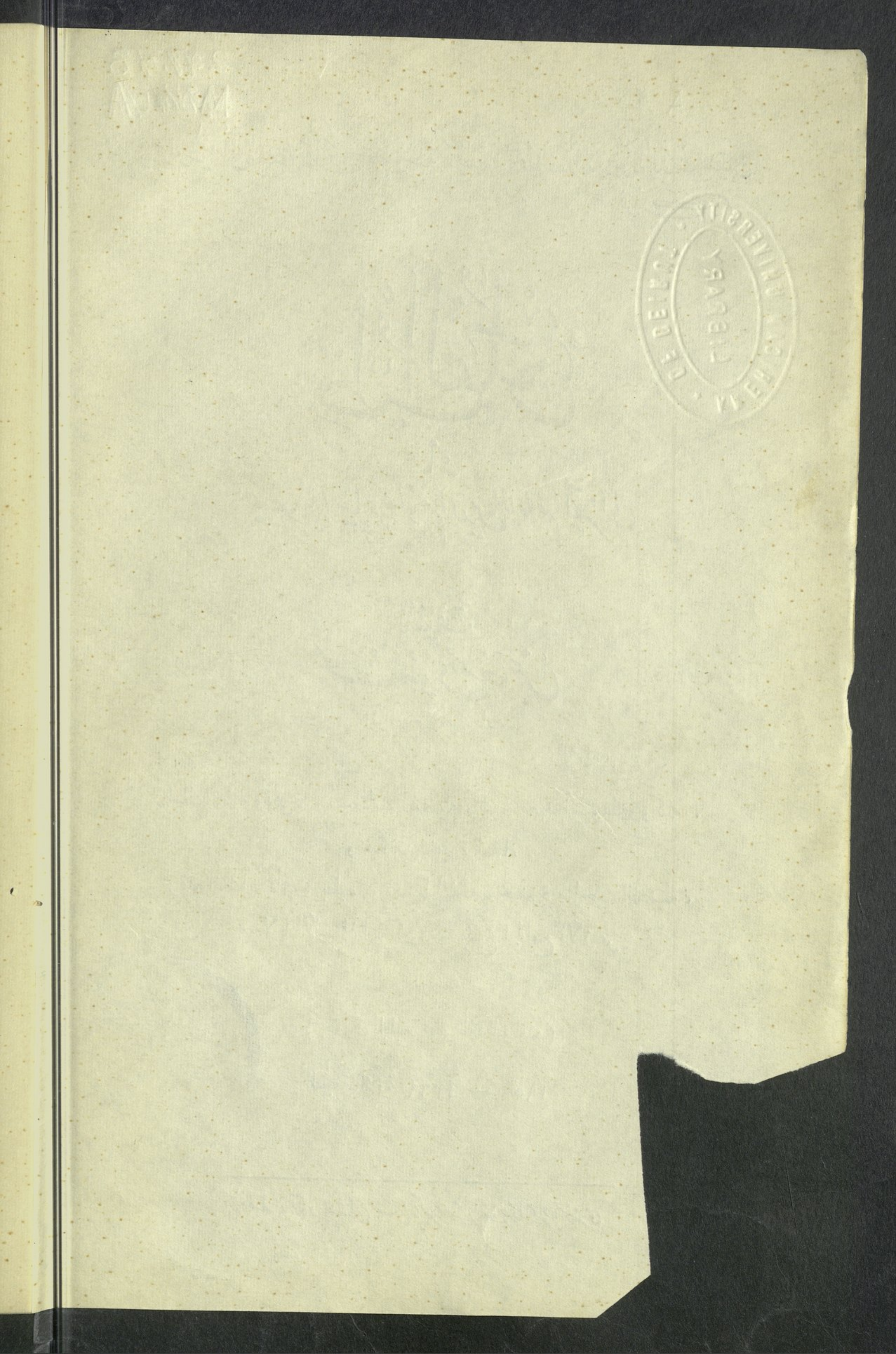
اطلع عليه وأقره ، أصحاب الفضيلة ، شيخ معهد أسيوط ووكيله ،
ونخبة من خيرة العلماء

وقد تفضل فأذن بطبعه ، تعميما لنفعه ، حضرة صاحب الفضيلة ،
مولانا الأستاذ الأكبر — شيخ الجامع الأزهر



الطبعة الثانية ١٣٦٩ — ١٩٥٠

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر لصاحبها محمود الخضرى



الإهـــداء

إلى ناشر العلم، ومحيي الفضيلة، خير من عمل على تنفيذ الأحكام الشرعية، وأقام شعائر السنة المحمدية، حامي حمى الدين، وشيخ مشايخ المسلمين، حضرة صاحب الفضيلة، مولانا الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد مأمون الشناوى

شيخ الجامع الأزهر

أحيا الله مآثره العلمية، ونفع به الأمة الإسلامية

مولاى: لقد قرأت كتاب (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام الإمام الغزالى وتصفحت أبوابه. وأجهدت نفسى فى فهم عباراته. عدة سنين. فوجدته بحاراً أجراها الإمام لإرواء صدور الناس. وأدوية لشفاء القلوب من حظوظ الشهوات، بيد أن هذا لا يفهمه الكثير من أهل زماننا. حيث خفى عليهم مايرمى اليه ذلك الإمام، وجهلوا تراكيب هذه الأدوية. فأزلت بحول الله مبهمات طريقه. ومهدت بعونه تعالى سبيل الوصول اليه. وركبت أجزاءه ملاحظاً قوة عقولهم. ونسبة أفهامهم، وجئت بزيادات من مصادر شتى تلائم أحوالهم، وأكثرت من التوضيح والتمثيل. كى يهتدى كل قارىء إلى سواء السبيل. وسميت هذا المنهل الجديد (طب القلوب) لسهولة الوصول إلى المعنى المطلوب.

ثم عرضته قبل طبعه على نخبة من حضرات علمـــاء معهد أسيوط، فقرؤوه وتصفحوه، ثم عرضته من بعدهم على حضرة صاحب الفضيلة شيخ المعهد، فاقتنع فضيلته بحسن مبانيه، وسهولة معانيه، ثم تفضل بالتعريف المرافق.

ولما كنتم ياصاحب الفضيلة، سباقين إلى الخيرات، داعين للمبرات، وبخاصة ما كان منها، دائما بمرور العصور، مستمراً باستمرار الأزمان والدهور.

تقدمت لمقامكم الجليل بهذا الكتاب، راجيا من الله ذى العطف والجود، أن يشرح صدر فضيلتكم لقبوله، وأن تتفضلوا فتأذنوا بطبعه، توطئة لنشره، ليعم نفعه،

وتستفيد به هذه الأمة — إذ تعلمون فضيلتكم قدم ذلك الإمام ، الذى أوردت كتابى هذا من بحار علومه . فجاء قريب المورد . سهل الاغتراف . عذب الافادة والاستفادة ، وهذا ما تعنونه فضيلتكم لسائر الأقطار الاسلامية .

وإنى أختتم إهدائى هذا بالتضرع إلى الله تعالى ، أن يديم حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم (فاروقا الأول) وأن يعز به الإسلام والمسلمين .

كما أسأله تعالى أن يديم توفيق مولانا الأستاذ الأكبر . شيخ الجامع الأزهر . لإعلاء كلمة الدين . وإنارة سبيل السالكين . إنه سميع مجيب ؟

ربيع الثانى ١٣٦٩
فبراير ١٩٥٠

المؤلف

محمود معوض

جزالة المنطق – وبلاغة التعبير

فى تعريف (طب القلوب)

بقـــلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد أحمد حميده

من هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدُك يا رب ، ونسألك أن توفقنا للثناء عليك بما أنت أهله – ونصلى ونسلم على رسولك الكريم سيدنا محمد بن عبد الله النبى العربى ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد فقد اطلعت على بعض من كتاب « طب القلوب » ملخص كتاب إحياء علوم الدين للامام الغزالى الذى عنى بجمعه وتنسيقه وترتيب أبوابه ، الشاب المهذب « محمود افندى معوض بسكرتارية المجلس المحلى بمدينة أسيوط » فوجدته بديعاً فى بابه – سلك فيه مؤلفه الفاضل طريقة سهلة المأخذ جميلة الأسلوب غزيرة الفائدة .

يسهب فى موضع الاسهاب ويوجز فى موضع الايجاز ، ويقدم الأهم على المهم ، ويلتزم فى كثير من المواضيع ذكر السند فيما يسوقه من أحاديث الرسول الكريم ، لينجلى الأمر وينكشف الغامض . ويتعرض لبيان كثير من أحكام الأفعال التى تقع من الناس وهم غافلون عن أحكامها ، جاهلون بما ورد فيها عن النبى الكريم والسيد العظيم ، صلى الله عليه وسلم .

ومما يشرح الصدور فى هذا الكتاب النافع ، ما التزمه مؤلفه الحكم من المبالغة فى إرشاد القارىء إلى ما تقصده الشريعة الإسلامية من شرع لأحـ[illegible] وهو القيام بأداء ماترشد اليه ، والتيقظ لتطبيق أحكامها على الأعمال التى تصدر من عامة المسلمين وخاصتهم ، فإن هذا وحده هو الذى يكفل سلامة المجتمع ، ويحفظ النظام العام ، ويوجب الطمأنينة على الأنفس والأموال ، ويستريح به الحاكم والمحكوم .

فجزى الله المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأحسن له المثوبة ، ووفقه لخير الأعمال ، وجميل الخصال ، إنه سميع مجيب الدعاء ؟

شوال سنة ١٣٥٨
نوفمبر سنة ١٩٣٩

أحمد محمد حميده

سحر البيان ــ وإيجاز التبيان

فى وصف (طب القلوب)

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عبد الرحيم العدوى

شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

أخذت بالأمس أقلب الطرف فى كتاب (طب القلوب) أستوحى بعض معانيه ، وأستشف بعض مراميه . فملكنى العجب . واستولت على الدهشة . إذ خلتنى فى روضة أنف كثيرة الأدواح . وارفة الظلال . دانية الثمار . شذية الأزهار . تجرى من تحتها الأنهار . وتملأ النفس بهجة وسروراً . ولا عجب فهو صفوة كتاب الإحياء ، ألفه مؤلفه ليكون ذخيرة للأحياء .

وله طريقة جميلة محببة إلى النفوس ، فى عرض أدواء القلوب وطبها . تحبب اليها التخلص من أدوائها . والنزوع إلى دوائها . وتدل على خبرة تامة بنوازع النفس البشرية ، وما يعتورها من فساد . وحكمة سامية فى تحريرها من ربقتها ، والنزوع بها إلى آفاق كريمة من جمال الإسلام وسموه .

فهو لم يلتزم طريقة الإحياء فحسب . بل لوّن الإحياء بلون جميل . أزال عنه بعض ما علق به مما أخذه عليه بعض العلماء . وزاد عليه ما كمله وجمله . فله بذلك فضل التنقيح والتوضيح . وسمو العبارة . ولطف الإشارة ، فكان بذلك نسيج وحده . جازاه الله عن الاسلام والمسلمين أكرم الجزاء ؟

ربيع أول ١٣٦٩ هـ
ديسمبر ١٩٤٩ م

عبد الرحيم العدوى

آية العلم — ومعجزة البلاغة

فى تقدمة (طب القلوب)

بقلم : حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة : الشيخ محمود أمين النواوى
وكيل معهد فؤاد الأول بأسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن جعلت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مثلَ المطر، لايُدرى أوله خير أم آخره . وجعلت فى أمة محمد طائفة قائمة على الحق لايضرهم من خالفهم حتى يأتى وعد الله .

وأصلى وأسلم على محمد نبيك وصفيك وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم وسلك سبيلهم ، وسلم كثيراً إلى يوم الدين . سبحانك شغلت قوماً بأهوائهم ، لما زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فهم فى ظلماتهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون . على حين أخلصت لك طائفة من خلقك ، فشغلهم فى مرضاتك ، وتقلبهم فى نعائك وتجلياتك .

وما أرى ذلك الفاضل المهذب ، والربانى المؤدب ، محمود أفندى معوض ، مراجع بلدية أسيوط . إلا أحد أولئك الذين عرفوا الحق فقرّ فى قرارتهم ، وأدركوا الهدى فكان كل بغيتهم . يتجلى ذلك فيما فرغ نفسه له ، من دراسة كتب الإسلام ، والعكوف عليها ، والتخلى لها ، يصل الليل بالنهار ، ويسير من الفلك الدوار ، لايمل السرى ، ولا يبقى على نفسه أدنى بقيا ، حتى استهدف لسهام السقم ، والله وليه ونعم النصير .

وإن تعجب فعجب وإعجاب ، إنه فى عمل لايشابه الدين ، ولا يتصل بمعارف المتقين . على أنه قد خرج من حكم عمله ، خروج الجنات ، من قطع الأرض المتجاورات ، فكانت ثمرات يالها من ثمرات ، يفضل الله بعضها على بعض فى الأكُل ، وهكذا سنة الله .

كتابك ياسيدى (طب القلوب) كتاب عظيم ، لأنه جمع من أبواب الفقه والسنن ، وعلم الحلال والحرام ، والتصوف والسلوك ، ما لايسع مؤمناً يدين بالإسلام أن يجهله ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقدقدمت نتيجة مجهودك الجبار ، وتقليبك الأسفار تلو الأسفار ، والمواءمة بين مختلفاتها ، والمواءمة بينها و بين ما يناسب

حال إخواننا فى هذه الأزمنة العصيبة ، مما هو كفيل أن يجذب إلى الخير والرشاد كل أبى ، وأن يوجه إلى الدين والتقوى كل عصى ، وأن يثبت على الجادة كل تقى ، فلو أن مسافراً سافر إلى الشام لأجله ، أو قطع المفاوز المعتسفة للحصول عليه ، لم يكن ذلك كثيراً له . لأنه سيستريح إلى مجموعة حية من معارف الإسلام ، توفر عليه كثيراً من عناء الطلب ، وهذه قيمة خطيرة ، ومنزلة ليست بميسورة . إن العلم كثير ، ولكن العمر قصير ، والشواغل جمة ، فمن أراد أن يتعجل الخير والسعادة ، فهاهو كتابك الحجة ، لم تدخر فيه وسعاً ، ولم تأله نصحاً ، لا فى ترتيب ، ولا تبويب .

وبعد فحسبنا أنك قد لخصت (كتاب الإحياء) الذى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يرفع المؤمن ويحثه على كل معنى عظيم — لقد لخصت هذه الأسفار فى هذه الأوراق ، وضممت إليها كثيراً مما يحتاج إليه أهل العصر ، فى كل مصر . فجاء كتابك كاسمه (طب القلوب) نفع الله به ، فأحسن إلى مؤلفه وإلى قارئه . فإذا كان الأوائل قد قالوا — العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء طرفا . فلقد كنتَ أنت الذى هدى إلى ذلك المعنى ، بتوفيق ربانى سعيد . فقربت المثال ، وقصرت المجال ، فى أسلوبك العذب المحبب ، وتبويبك المشرق المرتب . لا يجد قارىء فيه مللا . وحسبك أنك كنت موضع التوفيق فى إصابة الحق ، وعدم وجود المجال لحاسد أن يعترض ، أو لمنقب أن يخالف . ومما يزيدنى غبطة أنك قد استكملت التوفيق حقه ، فقدمت (طب القلوب) إلى (طبيب القلوب) رجل الإخلاص والدين ، الساهر على صالح العلم والمسلمين ، بما سار مسير الشمس ، الأستاذ الأكبر (الشيخ محمد مأمون الشناوى) شيخ الجامع الأزهر . لقد سخا جداً بالعمل على الإكثار من معاهد العلم لتشجيعه . كما سخا جداً بإرسال البعوث لمن قعد بهم المقام عن التغرب فى طلب العلم ، فأقرهم على وكناتهم ، وأرسل إليهم صفوة من العلماء المبرّزين المخلصين . كما سهل سبل البعوث إلى الأزهر ، وأكرم وفادة المبعوثين إليه ، يتعهدهم بنفسه ، ويرعاهم بعينه ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . تحدوه عناية الفاروق العظيم .

أطال الله بقاء الشيخ وحرس عهده ، فى ظل جلالة مولانا حامى الإسلام ، الملك (فاروق الأول) أيد الله ملكه ، ونضّر الله أيامه ؟

محمود أمين النواوى

ربيع الثانى سنة ١٣٦٩ هـ — فبراير سنة ١٩٥٠ م

لمعة الحق ـ وزهرة الأدب

فى وضع (طب القلوب)

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأديب : الشيخ عبد الحكيم محمد حنفى
مراقب معهد فؤاد الأول بأسيوط

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، والصلاة والسلام على أشرف رسول جاء بهداية الله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولى المجد والفخر والجاه .

أما بعد : فقد حضر لدينا بمعهد فؤاد الأول بأسيوط ، حضرة الفاضل والأستاذ الكامل ، محمود افندى معوض الموظف بسكرتارية بلدية أسيوط ، وكنت وقتئذ مع نخبة من حضرات أفاضل المدرسين ، فأوضح لنا حضرته أطوار مؤلَّف قد انتخب أكثره من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى وشرح مبلغ زياداته التى اختص بها ، وموقف مناسباتها ، فأوجد فى نفوسنا جميعاً شوقا إلى الاطلاع على هذا المؤلَّف ، فاقترح بعضنا أن يوزع على الجميع ليكون قبل طبعه محفوفاً بالعناية منوجاً بالحكمة ، وكان حظى منه ، هو القسم الذى اشتمل على ذكر أحوال البرزخ وما بعده ، فتصفحتُه جملة جملة فوجدته سلس العبارة ، سهل المعنى ، قريب الفهم ، حسن الترتيب ، جميل المناسبات لأبوابه ، شديد الملائمات فى تراكيبه .

وعلى الجملة فلم أجد فيه مجالا للملاحظات فأعدتُه لحضرته ولسانى لهج بهذه الأبيات

إن شئتَ تطبيبَ القلوبِ وصونها	فاقرأ كتاباً موجَزَ التقرير
وَضَعَتْه أيدٍ من طبيب ماهر	ذى خِبْرة بالداء خير بصير
فحص العليلَ فصاغ تركيبَ الدّوا	خُذْه كتاباً جاء بالتنوير
سمّاه « طبّاً للقلوب » لأنه	حقاً يُداوى علةَ التقصير
فاعمل بعزم ما استطعتَ بما حوى	تَضحى سليماً حائزَ التوقير
واضرع إلى ربّ مجيب عبدَه	أن يمنحَ القارى خُطى التبصير
واطلبْ جزاء لائقاً بمؤلِّف	فاللهُ خيرُ مُكافىء وقدير

شوال ١٣٥٨ — نوفمبر ١٩٣٩

عبد الحكيم محمد حنفى

عين اليقين ـ وإشهاد المتقين

فى إقرار (طب القلوب)

بقلم

حضرات أصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء، الموقعين على هذا

الحمد لله جليل النِّعم، والصلاةُ والسلام على خير خلقه محمد المبعوث إلى خير الأمم، وعلى آله وصحبه مصابيح الظلم ومفاتيح الحكم.

وبعد: فقد اطلعنا على فصول من كتاب «طبّ القلوب» لحضرة الفاضل (محمود افندى معوض) الموظف بسكرتارية بلدية أسيوط فألفيناه قد استقى من معين كان ولا يزال خيرَ شفاء لغُلة الصّادين وأعذبَ منهل للظامئين. فقد جعل جُلّ عتماده على كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى.

ولعل المطلع على هذا الكتاب، واجد فيه من المجهود ما يستأهل الشكر. فقد حاول المؤلف أن يجعل أسلوبه سهلا وعباراته بعيدة عن المصطلحات التى استعجمت على كثير من المتعلمين، فصاغ الحكمة صَوْغاً يستهوى القلوب، ومزج العظة مَزْجا يُسَهِّلها على النفوس.

ونحن نتمنى أن يكون هذا الكتاب كأصله، جلاء للقلوب، وموقظاً للنفوس، وباعثاً للهمم. فجزى الله المؤلف خير الجزاء.

محمود شهده	احمد عبد الرازق شاخ	محمد حسن فرج
من علماء الأزهر الشريف	الأستاذ بمعهد أسيوط	من علماء معهد أسيوط
محمد اسماعيل محرم	أبو زيد شلبى	عبد الكريم جاويش
الأستاذ بمعهد أسيوط	الأستاذ بكلية أصول الدين	الأستاذ بمعهد طنطا

شوال ١٣٥٨ — نوفمبر ١٩٣٩

فى تقريظ (طب القلوب)

بقلم رجل التقوى والصلاح الأستاذ المثقف الشيخ عبد الوهاب خلف الله
من علماء دير مواس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا عقول أوليائه بعلومه اللدنية ، وأعلى نفوس أحبائه بالتطلع إلى ذاته القدسية ، وأنار بصائرهم بمكاشفات أسراره الكونية — والصلاة والسلام على مصطفاه ، زهرة الدائرة الوجودية ، ومجتباه منذ العوالم الذرية — حبيبه المنتقى وخليله المرتضى — محمد المختار من أقدس أرومة لبنى هاشم . وأطيب جراثيم بنى آدم وعلى آله وصحبه أجمعين .

أي صديقى محمود أفندى معوض :

لا غرابة فى أن تضىء الشمس . ويهتك القمر حجاب الليل . وتبعث أنت بنور الغزالى ، فأنت والشمس والقمر كل يجرى بالنور فوقيّكم وتحتيّكم فى هذا سواء — بيد أن الشمس للنهار . والقمر لليل . وأنت لذلك كله ، وهناك فروق فى الأشكال وفى الآثار ، أما أنت فكوكب مستطيل ذو أطراف ورأس مفكر ، وعقل مدبر ، تتحرك حركات إرادية نحو العقول فتذكيها ، ونحو القلوب فتهديها ، ونحو البصائر فتجلوها . فعملك الجليل يسود الادراكات والمعانى ، وأما هما فكوكبان مستديران ، يتحركان حركات قسرية قهرية ، لا يقصدان الإضاءة والانارة ، ولكن يرسلان الأنوار فتصل إلى الجمادات فتبيض وإلى العيون فترى ذلك الذى قد ابيض .

فالفرق بينك وبينهما كالفرق الذى بين عملك وعملهما . وقديماً كنتُ آنستُ من طور عقلك ناراً تتوهج وتتوقد وتلتمع ، وإذا بها الآن تصفو وتعود نوراً يكاد سنابرقه ، يرجع الفاسق تقياً والفاجر ولياً ، لأنه مدد من أمداد الله ، وجهته صوب بسيط علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى — وإنه لخضم غرير — فأضاءت به الدرر لفكرك الباحث — وتخيرت منها عبراً هى (طب القلوب) ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها .

ولكم كنت أتفرس فيك القيام بأزهى عمل ، يقيم الناس ويقعدهم بذكرك وشكرك

ــ لجهود ذكائك وباهر فطنتك ــ ومازلت أتوقع منك ذلك حتى حققت فراستى فيك وكنتَ فوق ظنى بك .

هاأنت أيها السيد الجليل ، جدّدتَ ماخلَق من علوم الدين ، وأبليتَ ماابتدعه المضلون والملحدون ، ألا تكون فى صفى إذ أقول لك ، إنك صغت المفاتيح المغاليق ــ مفاتيح الخير مغاليق الشر ؟ كيف لا ؛ وكل باب من أبواب كتابك مفتاح لباب من أبواب الجنة مغلاق لباب من أبواب النار ، كنتُ إلى زمن قريب أعرف قوة سريان الكهرباء والمغناطيس ، ولكننى ما عرفتُ مطلقاًقوة سريان الأرواح ، حتى شاهدتُ فيك روح الغزالى ، فعرفتُ إذاً أن للأرواح سرياناً كسريان الكهرباء والمغناطيس ، ولستُ أدرى بَعدُ ، أهذا الجاذبية فيك أودعتها ، أم لقوة خارقة فى روح الغزالى متعدية إلى أرواح قارئيه ومحبيه ومنصفيه ؟ هذا مشكل عندى . وسواء أكنتَ أم كان فان لى فيك غِبطةً على هذا الشأن .

أى أخى : لله درك . كم سهرت عيناك . وسهدت روحك . وتحرك فكرك . وكم لعبت بنانك مع يراعتك ، حتى أخرجت بقلم المصور الماهر ، صورة من أبرع وأبدع صور الغزالى ، فى العلم والفقه والفلسفة والتعليم وسائر فروع الدين . لو كنتَ ممن نشأوا على هذه الصناعة من العلم لا نقضى عجبى عند أول خطوة خطوتها فى إحياء هذا الكتاب الدارس . وإظهار هذا السفر المختبىء فى أنصع حلة وأبهى رداء ولكن العَجب الذى لا ينتهى ، والغرابة التى لا تنقضى ، أن تخوض هذه المعمعة أعزل من السلاح ؛ فتخرج منها ظافراً مؤيداً منصوراً ، وفى يديك كتاب من النصر يملأ السمع والقلب والبصر . وتلك هى التى نسميها كرامة علمية ، أو معجزة فنية ، يعجز عن نيلها كثير من فحول العلماء . وهى هبة لا تتوقف على طويل اجتهاد ، ولا عظيم إجهاد . هى حكمة يُعطيها الله لمن يشاء من عباده (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولو الألباب) .

لا غرابة ؛ فلك برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وقد أوتى الكتاب والحكمة على أميته وعدم دراسته (وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) ولكنه الله صاحب الفيض والفضل والمواهب ، يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟

عبد الوهاب خلف الله

ابريل ١٩٤٠

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى طهرَ قلوبَ أحبابه من الرجْس والضلال . وأنارها بنور الإيمان فأخلصوا فى الأقوال والأفعال . وأقبلوا بظاهرهم وباطنهم يرجون رحمة الكبير المتعال ، سبحانه كرّم بنى آدم وفضّلهم على كثير من المخلوقات . وشرّفهم بالعقل ليتفكروا فى عجائب الأرض والسموات . فطوبى لعبد لم تَشْغَله دنياه عن الذكر والعبادات . أحمدهُ تعالى على نعمه . وأتوب إليه من معصيته . وأستغفره من جميع الذنوب والزلات . وأشهد ألا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له ، شهادة أدّخرها ليوم النشور . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، طبّ القلوب وشفاء الصدور . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، الذين برئت قلوبهم من الزّيغ والفجور .

« أما بعد » فيقول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين (وما خلقت الجنّ والإنسَ إلا ليعبدون) . ورى فى الخبر عن الله عز وجل « كنتُ كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف فخلقتُ الخلقَ فبى عرَفونى » ، ومعنى ذلك أن الله تعالى لم يخلق الخلق إلا لمعرفته تعالى وعبادته ، ولكن لاوسيلة لهذه المعرفة ، ولا معين على العبادة ، إلا شفاء القلوب من أمراض حبّ الدنيا ، وسلامتها من آفات الشهوات ، لأن المدار فى الطاعات على أعمال القلوب لا على أعمال الجوارح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن فى الجسد مُضغةً إذا صَلَحت صَلح لها سائر الجسد ألا وهى القلب) (م) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(ق) ، وقد ورد فى القرآن مايوجب تطهير القلوب والعمل على سلامتها . قال تعالى مُثنياً على سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام (وإنّ مِن شِيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) أى سليم من آفات حب الدنيا ، ومن العلائق الشاغلة عن التبتُّل

إلى الله عز وجل . ومعنى المجيء بالقلب إخلاصه لربه الإخلاص الكامل ، وقال تعالى فى وصف يوم القيامة وهو يوم المرجع والمآب ، والعرض والحساب (يوم لا ينفع مال ولا بنونَ إلا من أتى الله بقلب سليم) وقال عز وجل فى حق المنافقين ، (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال عز وجل (يانساء النبيَّ لستُنَّ كأحدٍ من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمعَ الذى فى قلبه مرض) . فعُلم لنا بنص القرآن أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، غير أن الفرق بين المرضين هو أن مرض الأبدان يعتريها فيخرجها عن حد الاعتدال ويسبب العطل فى أعمال الجوارح، ويؤدى إلى الموت الحسى ، ومفارقة الدنيا الفانية . أما مرض القلوب فهو بالنسبة للمنافقين عبارة عما فى قلوبهم من الجحود والزيغ وسوء العقيدة وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدم اتباع ما أرسل به ، وغير ذلك من أنواع الكفر المؤدى إلى الهلاك الأبدى ، وفوات نعيم الآخرة الباقية ، وبالنسبة للمؤمنين ، فهو عن تعلقهم بالدنيا وانهماكهم فى شهواتها انهماكا أنساهم آخرتهم .

وإذا تصفحنا القرآن الكريم وجدنا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان فيه أضافه إلى القلب قال تعالى (أولئك كتبَ فى قلوبهم الإيمان) وقوله جل شأنه (وقلبهُ مطمئن بالإيمان) وقال عز وجل (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) وقال تعالى (قالت الأعرابُ آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يَدْخل الإيمان فى قلوبكم) مريداً بالإسلام أعمال الظاهر ، وبالإيمان التصديق بالقلب . وغير ذلك من الآيات التى تدلنا على أن الإيمان محله القلوب . وذلك أن العبد متى آمن وأخلص لربه ، انبعث فى قلبه نور الإيمان ، وفاض هذا النور على الجوارح فلانت وذُلت للطاعة . وعلى ذلك فكل عبد لم يقم بما هو مفروض عليه ، وكل إنسان عنده شيء أحب إليه من عبادة الله تعالى ، فقلبه مريض . وبقدر التفريط فى الطاعات والانهماك فى الموبقات ، تكون درجة المرض ، وبحسب درجة المرض ، يكون الحرمان من النعيم والبعد من حضرة رب العالمين .

ولكننا مع وضوح هذه الحقيقة نبادر إلى علاج أبداننا متى اعترتها علة من العلل ، ونبذل فى ذلك كل غال ، لنعيش زمناً مقضيّ بانتهائه مهما طالت أيامه ، كما لا يصفو

العيش فيه ولا تسلم من الكدورات لذ"اته — أما القلوب فمتروك أمرها حتى صارت موطناً لجراثيم الأمراض القتالة ومقراً للآفات المهلكة. وكان الأولى بنا معشر المسلمين أن نسارع إلى علاج قلوبنا ونحافظ على سلامتها، لنحيي حياة روحانية لا انتهاء لها، ولا كدورة فى نعيمها.

وقد وضع حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالى — طيب الله ثراه — كتاب (إحياء علوم الدين) بعد حياة طيبة مباركة وبيَّن فيه آفات القلوب وما يعتريها من أمراض وعلل، كما أوضح طرق علاجها وسبل وقايتها، ولم يترك رحمه الله أمراً من أمور الدين إلا تناولة شرحاً وتفصيلا. وقسم هذا السفر الجليل إلى أربعة أقسام — القسم الأول فى العبادات، وقد تضمن شرح ما يلزم المسلم لتصحيح عبادته، والقسم الثانى فى المعاملات وهو يتضمن بيان سنن النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه الدينية وكل ما يحتاج إليه العبد فى معاملاته، والقسم الثالث فى الصفات المهلكات، وهو يتضمن شرح أمراض القلوب وكيفيــة علاجها، وبيان آفات النفوس وطرق تهذيبها، وخطرات اللسان وسبل الوقاية منها، والقسم الرابع فى الصفات المنجيات، ويشتمل على بيان الصفات المحمودة التى أمرنا بها القرآن وحض عليها الشرع، وهى المبادرة بالتوبة والتكفير عن الذنوب وغير ذلك. هذا وصف وجيز جداً لموضوعات الإحياء. وعلى الجملة فالمؤمن يجد فى الإحياء لنفسه إحياء، ويلمس فيه لقلبه من كل داء شفاء. نعم، لأن أساسه الكتاب والسنة وآثار الصحابة وأفعال الصالحين، إلا أنه قد أصبح بين طبقات المسلمين غير متداول، والعمل به غير مستطاع، لتقادم عهده وتشعب أبوابه وغزارة مادته، فقد صنفه الغزالى فى القرن الخامس من الهجرة ووضعه وفق عقول أهل زمانه، وهذا هو السبب فى إحجام الكثير عن قراءته، فى هذا الزمن. وقلة صبرهم على تصفحه وفهم عبارته.

ولما حُبِّبت إلىّ العزلة عكفتُ على دراسة كتب السلف، ومن بينها كتاب الإحياء هذا، فتبينت مقدار ما فاتنا من التعاليم الدينية بسبب إعراضنا عما فى هذ الكتاب، فانبعثت فىّ رغبة لاخراج ما فيه من الكنوز الثمينة، والذخائر الغالية، أهديها لجماعة المسلمين فى وجيز يسهل عليهم تناوله والانتفاع به مع زيادات من بعض

الكتب رأيتها تفيد فى حالتنا الحاضرة . وقد قويت هذه الرغبة بتشجيع إخوانى — سامحهم الله .

ولما كان هذا المؤلَّف الجديد قد اشتمل على وصف كاشف لأمراض القلوب ، وبيان واف لعلل النفوس ، وعلاج دقيق لهاتيك الأمراض ، فقد سميته (طبّ القلوب) وقد توخيت فى وضعه العبارات السهلة والألفاظ الواضحة ، بحيث ينتفع به كل قارىء دون كدّ واجتهاد . وقد راعيت ذكر أسانيد الأخبار التى يحتاج فيها الأمر لذلك ، وأغفلت ذكر أسانيد البعض كما هو الحال فى الأصل وعلى من يريد الاطلاع على أسانيد جميعها أن يقرأ ذلك فى كتاب (المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار) للعراقى . وعلى الجملة فقد أخذت بعون الله تعالى فى معالجة الإحياء لأحييه وتشييد ما اندرس منه لأبقيه — فكان كتابى هذا للإحياء إحياء ، وللقلوب المرضى بلسما وشفاء .

ولما تم تأليفه وترتيب أبوابه ، عرضته على بعض حضرات علماء معهد فؤاد الأول بأسيوط فتكرموا بمراجعته ، ثم عرضته بعد المراجعة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير شيخ المعهد فاطلع فضيلته على بعض أبوابه ، وشجعنى أعزه الله على المضى فى إخراجه ، فجزاهم الله عن الدين خير الجزاء .

وإنى وقد تجاسرت على الخوض فى هذا البحر الخضمّ مع عجزى عن عبور لجته — لأنى لم أكن من أبناء الأزهر الشريف — أطلب من حضرات من يرون أنى قد تطفلت على موائدهم أن يكونوا كراماً ، فيتقون الله فى ضعفى ، ويغتفرون لى هذه الزَّلة . وليعلموا أنه بقدر ما وفقنى مولاى عز وجل كتبتُ ، فما كتبتُ إذ كتبتُ ، ولكن الله شاء وقدر ، فهو الذى ألهم القلبَ وأنطق اللسان ، وهو الذى سخر اليد وحرك القلم ، فنسبة الفعل إلى العبد مجاز ، ولا فاعل فى الحقيقة إلا الله تعالى .

كما أدعو فى رفق وخشوع كل من ينتقد وضع هذا الكتاب ، أو يستصغر مادته العلمية ، أن يتقدم للعمل على قدر علمه وغزارة مادته ، فالميدان واسع ، وجماعة المسلمين فى حاجة إلى من يمد يده لينشلهم من هاوية الغفلة ، ويطهرهم من جرائم

أمراض حبّ الدنيا التى تغلغلت فى القلوب فأماتتها ، وبذا يكون قد أدّى واجباً دينياً هو فى عنق كل مسلم ، وفى ذمة كل مطلع .

وأحب أن يكون مفهوماً عند قراء هذا الكتاب ، أن دواء الأبدان لا يكون ناجعاً وشافياً ، إلا إذا أخذ باعتناء وتحفُّظ وفق إشارة الطبيب الذى جسّ النبض وعرف موطن الداء — كذلك أرجو أن تقرأ أبواب هذا الكتاب بإمعان وفهم ، وأن يُعمل بما جاء بها وَفْق تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم وإرشاد السلف ، الذين عرفوا أمراض القلوب والآفات التى حجبتها عن الله تعالى ، حتى يزول ما بها من علل وأمراض ، وتُصبح صالحة للقرب من حضرته تعالى .

وإنى حين أقدم كتابى هذا لاخوانى ، لا أعلم لأحدهم من الذنوب والخطايا ما أعلمه من نفسى ، فأنا العبد الوحيد المذنب ، قد ضيعت عمرى فى اللهو واللعب ، فأستغفر الله العظيم لى ولهم من كل قول أو عمل يبعدنا عن حظيرة رحمته ، كما نبتهل اليه تعالى أن يتقبل عنا توبتنا ، ونسأله كما سأله السابقون من المؤمنين ، متوسلين إليه بقوله عز وجل (ربَّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هَدَيتَنا وهبْ لنا مِن لدُنْكَ رحمةً إنكَ أنتَ الوهَّابُ) .

المؤلف

محمود معوض

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبح بحمده الرمال . وتسجد لعظمته وكبريائه الظلال . وتتصدع من خشيته وهيبته الجبال . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، المبعوث بالهدى والكمال، وعلى آله وأصحابه ، المبرئين من الزيغ والضلال .

(أما بعد) فلما نفدت الطبعة الأولى ولم تسد حاجة الطلب . ومضت فترة لم أستطع إعادة الطبع لظروف خاصة . استعنت بمن بيده العون والتوفيق — وأقدمت على الطبع فى وقت تضاعفت فيه نفقات الطبع . نزولا على رغبة الإخوان الذين لم تصلهم الطبعة الأولى

وقبل الشروع عرضت الكتاب مرة ثانية على نخبة من فضلاء كبار العلماء — وفى مقدمتهم صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحيم العدوى شيخ معهد أسيوط فاطلع عليه فضيلته واقتنع بأسلوبه ووصفه بكلمة يراها القارىء فى مقدمة صفحات الكتاب . كما اطلع عليه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود أمين النواوى وكيل المعهد ، وفضيلته ممن يعملون على نشر تعاليم الاسلام ، ويشجعون القائمين بها ، فشمله — بارك الله فيه — بقبس من نور علمه ، وغمره بنبذة من آيات فضله ، وشجعنى على إخراج هذه الطبعة بشتى الوسائل — فجزاه الله عن عمله هذا أحسن الجزاء وأوفاه .

ولم يكتف فضيلته بهذه المساعدات القيمة ، بل أبى إلا أن يتوج الكتاب بشرف العلم ورمز الكمال — فمهد طريق تقديمه إلى مقام حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر ، الشيخ محمد مأمون الشناوى ، شيخ الجامع الأزهر . وزكاه أمامه . فتفضل — حفظه الله — وقبل إهداءه ، وأذن بطبعه توطئة لنشره ، وتعميما لنفعه ، ونفحنى بدعواته الصالحات ، فكانت هذه المكرمة أكبر مشجع لى على الطبع .

ولزيادة الاطمئنان إلى ما جاء فيه من الأحاديث النبوية الشريفة ، أخذت فى مراجعتها وتمحيصها مرة ثانية وثالثة على كتب الحديث — وبخاصة ما أوضحه الأستاذ

العراقى فى كتابه الخاص بتخريج ما فى الإحياء من الأخبار — كما استوعبت لهذا الغرض أيضاً الأحاديث الواردة فى كتاب (اللآلىء المصنوعة — فى الأحاديث الموضوعة) للأستاذ السيوطى . وقد رمزت لمخرجى الحديث برموز كما هو الحال فى كتاب (الجامع الصغير) وهى :

(خ) للبخارى . و (م) لمسلم . و (د) لأبى داود . و (ت) للترمذى . و (ه) لابن ماجة . و (ن) للنّسائى . و (ق) للبخارى ومسلم ولعبارة (متفق عليه) أو (تقدم) و (ك) للحاكم . و (هب) للبيهقى و (حل) لأبى نُعيم . و (طب) للطبرانى . و (حب) لابن حبان . وماعدا ذلك فقد ذكرت إسم مخرج الحديث — أما الأحاديث التى لم أرمز إليها فهى الأحاديث المعروفة .

كما وأنه لزيادة إطلاع القارىء الكريم أدخلت فى هذه الطبعة موضوعات كثيرة قيمة ، مع شروحات مفيدة — فلبست هذه الطبعة حلة جديدة من الكمال والتهذيب .

وعلى ذلك فإنى أقدم كتابى هذا (للطبعة الثانية) وافى التمحيص ، شاملا لكل ما يحتاج إليه المسلم .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى إهداء إخوانى المسلمين ما ينفعهم ويسعدهم فى الدارين إن شاء الله تعالى ، واسأل الله الكريم أن يتقبله منى ويهبنى حظاً من حديث الرسول حيث قال (ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى ، أو ترده عن ردى) (أبو نعيم) وقوله عليه الصلاة والسلام (من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله) (مسلم) وغيره ، والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

محمود معوض

مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ كتب الحديث .

٣ ـ تفسير القرآن ، لأبى السعود العادى .

٤ ـ الجزء الأول من تفسير القرآن ، للقرطبى .

٥ ـ تفسير القرآن ، للآلوسى .

٦ ـ إحياء علوم الدين ، لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى .

٧ ـ كتاب الفقه ، على المذاهب الأربعة (قسم العبادات) .

٨ ـ إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة (على حكم ابن عطاء الله السكندرى)

٩ ـ اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر ، للشعرانى .

١٠ ـ الطبقات الكبرى ، للشعرانى .

١١ ـ مصابيح السنة ، للبغوى .

١٢ ـ الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل ، للجيلانى .

١٣ ـ عوارف المعارف ، للسهروردى

١٤ ـ المغنى عن حمل الأسفار فى الاسفار ، فى تخريج مافى الإحياء من الأخبار ، للعراقى .

١٥ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، للسمهودى .

١٦ ـ الترغيب والترهيب ، للحافظ المنذرى .

١٧ ـ تنبيه المغترين ، للشعرانى .

باب فى بيان عقيدة المؤمن

إعلم رحمك الله أنه ينبغى لكل مؤمن أن يصرّح بعقيدته وينادى بها على رءوس الأشهاد فإن كانت صحيحة شهدوا له بها عند الله تعالى وإن كانت غير ذلك بيّنوا له فسادَها ليتوب منها . وقد أشهد هود عليه السلام قومه على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار له بالوحدانيّة (قال إنى أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أنى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ) كما فى الآية . وذلك لمّا علم عليه السلام أن العالم كلّه سيوقفه الله بين يديه ويسألهم فى الموقف العظيم الأهوال حتى يؤدّى كل شاهد شهادته وكل أمين أمانته .

فوجب علينا أيها المؤمنون أن نُشْهِدَ الله تعالى ونُشْهِدَ ملائكته وأنبياءه ويُشْهِد بعضُنا بعضاً أننا نقول قولا جازماً بقلوبنا أن الله تعالى إله واحد لاثانى له . منزّه عن الصاحبة والولد . مالك لاشريك له . صانع لا مدبّر معه . موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده . فالعالم كله موجود به وهو تعالى موجود بنفسه . لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه . بل وجوده مطلق ليس بجوهر فيحتاج إلى مكان ولا بعَرض فيجوز عليه التغيير والفناء ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء مقدّس عن الجهات والأقطار . لايحدّه زمان ولايحويه مكان . بل كان ولا مكان وهو الآن على ماعليه كان . فهو القيوم الذى لاينام والقهار الذى لايرام (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شىءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ) . خلق العرش وجعله حدّ الاستواء وأنشأ الكرسىّ وأوسعه الأرض والسماء . اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كما يشاء بعلمه فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء . أبدع العالم كله على غير مثال سبق . وخلق الخلق وسيفْنِى ماخلق ، أنزل الأرواح فى الأشباح أمناء وجعل هذه الأشباح فى الأرض خلفاء وسخر لها مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه فلاتتحرك ذرة إلا به وعنه . خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب أوجب ذلك عليه لكن علمه سبق فلا بدّ أن يخلق ماخلق . علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حدّ ماعلمها فلم يزل عالماً بالأشياء لم يتجدّد له علم عند تجدد الإنشاء . لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شىء حتى أراده كما أنه لم يرده حتى علمه إذ يستحيل فى العقل أن يريد

مالايعلمه أو يفعل مالايريده كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حيّ وكذا يستحيل أن تقوم هذه الصفات من غير ذات موصوفة بها — فما فى الوجود طاعة ولاعصيان ولا ربح ولا خسران . ولا عبد ولا حُر ولا بَرْد ولا حر . ولا حياة ولا موت ولا حصول ولا فوت . ولا نهار ولاليل ولا اعتدال ولاميل . ولا بَر ولا بحر ولا شفع ولا وَتر . ولا جوهر ولا عَرَض ولا صحة ولا مرض . ولافرح ولا ترح . ولا رُوح ولاشبح . ولا ظلام ولا ضياء ولا أرض ولا سماء . ولا تركيب ولاتحليل ولا كثير ولا قليل . ولا بياض ولاسواد ولاسُهاد ولارُقاد . ولا ظاهر ولا باطن ولامتحرك ولا ساكن . ولا يابس ولارطب ولاقشرولالب. ولاشىء من المتضادات والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى . لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرده الله تعالى ما أرادوه أو أن يفعلوا شيئاً لم يرد الله فعله مافعلوه . فهو القائل سبحانه (وما تشاؤُنَ إلا أن يشاءَ اللهُ) وأنه تعالى كما علم فأحكم وأراد فخصص وقدَّر فأوجد كذلك سمع ورآى ماتحرك أوسكن أو نطق فى الورى من العالم الأسفل والأعلى . لايحجب سمعه البعد فهو القريب ولايحجب بصره القرب فهو البعيد يسمع كلام النفس فى النفس وصوت الماسة الخفية عند اللمس يرى سبحانه السواد فى الظلماء ويسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة البهماء . تكلم سبحانه وتعالى لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته . كلم به موسى عليه السلام وسماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل والفرقان من غير تشبيه ولا تكييف . فكلامه سبحانه وتعالى من غير لَهَاةٍ ولا لسان كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر فى برهان كما أن حياته من غير بخار حدث عن امتزاج الأركان كما أن ذاته لاتقبل الزيادة والنقصان فسبحانه سبحانه عظيم السلطان عميم الإحسان . إن أنعم نُعم فذلك فضله وإن أبلى فعذب فذلك عدله . كل ماسواه فهو تحت سلطان قهره ومتصرف عن إرادته وأمره فهو الملهم نفوسَ المكلفين التقوى والفجور . أخرج العالم وأنزلهم منزلتين وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى ولو أراد

الله سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان أو شقياً لما كان فى ذلك من شأن لكنه سبحانه لم يرد ذلك فكان كما أراد فمنهم الشقى والسعيد هنا وفى يوم المَعَاد . فتؤمن أن الألوهية أعطت هذا التقسيم وأنه من دقائق القديم فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود بذاته إلا أياه (والله خلقكم وماتعملون) (ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين) .

وكما أننا أشهدنا الله تعالى وملائكته وجميع خلقه وأشهد بعضنا بعضاً على أنفسنا بتوحيده فكذلك نشهد الله تعالى وملائكتَه وجميع خَلقه ويشهد بعضنا بعضاً على أنفسنا بالإيمان بمن اصطفاه الله واختاره واجتباه من خلقه وهو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلَّغ صلى الله عليه وسلم ماأنزل إليه من ربه وأدى أمانته ونصح أمته ووقف فى حجة الوداع على من حضره من الأتباع فخطب وذكَّر وخوف وحذر ثم قال (ألا هل بلغت) قالوا بلغت يارسول الله فقال عليه السلام (اللهم فاشهد) وأننا مؤمنون كذلك بما جاء به عليه السلام مما علمنا به وما لم نعلم كما آمنا بكل ماجاءت به الكتب والرسل من عند الله علمناه أو جهلناه وأننا مؤمنون به إجمالا وتفصيلا (لا نفرق بين أحد من رسله) .

فهذه شهادتنا على أنفسنا أمانة عند كل من وصلت إليه يؤديها إذا سئل عنها حيثما كان . نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان وثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحيوان وأحلَّنا دار الكرامة والرضوان وحال بيننا وبين دار سرابيل أهلها قطران وجعلنا من الذين أخذوا الكتب بالأيمان وثقل لهم الميزان وثبت منهم على الصراط القدمان إنه المنعم المحسان .

قصيدة أبى محمد بن السيد البطليوسى فى التوحيد

إلهىَ إنى شــاكرٌ لك حامد	وإنى لساع فى رضاك وجاهدُ
وأنك مهما زلَّت النعل بالفتى	على العـــائد التواب بالعفو عائد
تباعدتَ مجداً وادّنيت تعطفاً	وحلما فأنت المدَّنى المتباعد
وما لى على شىء سواك معوَّل	إذا دَهِمتنى المعضلات الشدائد

أغيرَك أدعو لى إلهاً وخالقاً
وقد أوضح البرهان أنك واحد

وقدْماً دعا قوم سواك فلم يقم
على ذاك برهان ولا لاح شاهد

ويالفلك الدَّوَّار قد ضل معشر
وللنيرات السبعِ داعٍ وساجد

وللعقل عُبَّاد وللنفس شيعة
وكلهمو عن منهج الحق حائد

وكيف يضل القصدذو العقل والنهى
ونهج الهدى من كان نحوك قاصد

وهل فى الذى طاعوا له وتعبَّدوا
لأمرك عاص أو لحقك جاحد

وهل يوجد المعلول من غير علة
إذا صح فكر أو رآى الرشد راشد

وهل غبتَ عن شىء فينكر منكر
وجودك أم لم تبد منك الشواهد

وفى كل معبود سواك دلائل
من الصُّنع تُبْدى أنه لك عابد

وكل وجود عن وجودك كائن
فواجد أصناف الورى لك واجد

سَرَت منك فيها وحدة لو منعتها
لأصبحت الأشياء وهى بوائد

وكم لك فى خلق الورى من دلائل
يراها الفتَى فى نفسه ويشاهد

كفى مكذباً للجاحدين نفوسُهم
تخاصمهم إن أنكروا وتُعاند

باب فى فضائل القرآن الكريم

القرآن هو كلام الله القديم المنزّل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فيه أصول العلوم الشرعية وهو مستند السنة الصحيحة وكفيل بسعادتى الدنيا والآخرة لمن اهتدى بهديه وسار على نهجه. ومن طلب كتاب الله تعالى وجد فيه شفاء ورحمة قال تعالى (وننزلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين) جعل الله سبحانه وتعالى أمثال القرآن عبراً لمن تدبرها وأوامره هدى لمن استبصرها وشرح فيه واجبات الأحكام وفرق فيه بين الحلال والحرام وقصّ فيه غيب الأخبار ولم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها قال تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شىء) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الربُّ تبارك وتعالى مَن شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيتُه أفضل ما أعطى السائلين) وقال (وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) (ت) وعن علىّ كرم الله وجهه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ستكون فِتنٌ كقطع الليل المظلم)

قلت يارسول الله وما المخرج منها قال (كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر مَن بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هوحبلُ الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لاتزيغُ به الأهواء ولاتلتبس به الألسنة ولاتتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولايخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا) من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هدى إلى صراط مستقيم) (ت) .

وقال عليه الصلاة والسلام (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة إقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه) (ه) وقال (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) إذاً فليتق الله من تعلم القرآن بأن يجعل قراءته لله وأن يخلص العمل به لله فلا يرائى به ولا يجادل به ولا يعصى الله به . ولتكن تلاوة القرآن بحسب ماورد فى ذلك . روى الترمذى عن أم سلمة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول (الحمد لله رب العالمين) ثم يقف (الرحمن الرحيم) ثم يقف وكان يقرأ (مالك يوم الدين) ويجب علينا تدبر معانى القرآن وفهمه حتى نعلم عن الله تعالى مراده .

وليحذر العبد أن يفسر كلام الله تعالى على غير معناه فان فى ذلك شططاً قد يؤدى إلى الهلاك وأمامه الكثير من تفاسير أئمة الدين فليقرؤها قال عليه السلام (مَن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) .

أما فضائل القرآن الكريم فيعجز العالمون عن إدراكها ولكى يحيط القارىء بفضل بعض سوره نذكر شيئاً مما جاء فى فضائل سورة الملك وتسمى سورة تبارك والمنجية والمانعة والمجادلة فقد أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال كنا نسميها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المانعة وأخرج الترمذى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لايحسب أنه قبر فاذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبى صلى الله

عليه وسلم فأخبره فقال عليه السلام (هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر) وقد جاء فى فضل سورة تبارك أخبار كثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شَفعتْ لرجل حتى غفر له تبارك الذى بيده الملك) وعلى كلٍّ فأكبر القربات إلى الله تعالى تلاوة كتابه العزيز جعلنا الله من أهله ونفعنا به .

لم يكن غرضى حين عزمت على وضع هذا الكتاب أن أكتب فى علم الفقه لتداول كتبه ومعرفة أحكامه لكننى رأيت لإتمام الفائدة التى أرجوها أن أقدم لإخوانى بياناً موجزاً عن الضرورى من أمور الطهارة وكيفيتها وشرحاً وافياً لضبط أركان الصلاة وتصوير هيأتها العملية وفق ماجاءت به الشريعة السمحة عسى أن ينفعهم هذا الشرح فى تصحيح عباداتهم والله الموفق .

حكم الطهارة وأقسامها

تنقسم الطهارة إلى قسمين — طهارة من الحدث وهى ثلاثة أصناف وضوء وغسل أو تيمم وطهارة من الخَبث وهى قسمان أصلية وهى القائمة بالأعيان الطاهرة بأصل خلقتها وعارضة وهى التى تحصل باستعمال المطهرات .

فالأعيان كلها طاهرة مالم يثبت نجاستها وهى كثيرة منها الجماد وهو قسمان جامد ومائع . فمن الجامد جميع أجزاء الأرض وأنواع النباتات . ومن المائع المياه والزيوت والعسل وماء الأزهار والطيب والخل .

حكم النجاسة وأقسامها

تنقسم النجاسة إلى قسمين حكمية وحقيقية . فالحكمية مالا جُرم لها ولا طعم ولا لون ولا ريح . والحقيقية هى التى لها جُرم أو طعم أو لون أو ريح وهى العينية عند السادة الشافعية .

فمن الأشياء النجسة ميتة الحيوان البرى (غير الآدمى) إذا كان له دم يسيل عند جرحه أما التى ليس لها دم يسيل فهى طاهرة مثل الجراد .

ومیتة الحيوانات البحرية كلها طاهرة

ومن الأشياء النجسة الدم إلا الكبد والطحال ودم القمل والبرغوث والبق فهى طاهرة .

ومنها القيح والصديد والكلب والخنزير وما تولد منهما (خلافا للمالكية) أما نجاسة الكلب فللأمر بإراقة الماء الذى ولغ فيه وغسل إنائه لقوله صلى الله عليه وسلم (إذا وَلغَ الكلبُ فى إناء أحَدكمُ فليرقْه ثم ليغسله سبع مرات) وأما نجاسة الخنزير فلأنه أسوأ حالا من الكلب وأن القرآن نص على تحريمه .

ومنها المسكر المائع لأن الله تعالى قد سمى الخمر رجساً والرجس فى العرف النجس وأما الشارع حكم بنجاسة المسكر المائع فوق تحريم شربه تنفيراً عن الاقتراب منه .

حكم إزالة النجاسة

يجب إزالة النجاسة عن بدن المصلى وثوبه ومكانه إلا ماعفى عنه لتعذر إزالته أو عسر الاحتراز منه دفعاً للحرج — أما عن ثوب المصلى فلقوله تعالى (وثيابك فطهر) وأما عن البدن فلأن البدن أولى بالطهارة من الثوب وأما عن المكان فيقصد بها تحسين حال المصلى وقت مناجاة ربه والمكان كالثوب فى ذلك — أما المعفوات ففيها خلاف فى المذاهب .

آداب قاضى الحاجة

يندب لقاضى الحاجة أن يدخل بيت الخلاء برجله اليسرى ويخرج باليمنى وأن يقول عند الدخول (بسم الله أعوذ بالله منَ الخبث والخبائث) فإذا كان فى الخلاء فيقول ذلك عند تشمير ثيابه وقبل كشف عورته ويقول عند الخروج (غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى) ولا يقضى حاجته قائماً وأن يختفى عن أعين الناس حتى لا يراه أحد ولا يسمع صوت مايخرج منه ويغطى رأسه حياء من الله والملائكة . ويحرم عليه قراءة القرآن من وقت الدخول إلى الخروج ويحرم الدخول بالمصحف أو آية واحدة إلا إذا حمله على سبيل التبرك بشرط أن يكون داخل غلاف كما يكره ذكر الله تعالى باللسان . ويحرم قضاء الحاجة فوق القبر .

ولا يجوز لمن يقضى حاجته فى الخلاء أن يستقبل القبلة أويستدبرها ولا يستقبل عين الشمس والقمر لأنهما من آيات الله الباهرة ونهى عن قضاء الحاجة فى الماء الراكد كما يحرم قضاؤها فى منابع الماء وطريق مرور الناس ومكان استظلالهم ويلحق بهذه الأماكن مواضع اجتماع الناس ويكره التكلم إلا للضرورة ويكره حمل ورقة أو خاتم مكتوب فيه إسم الله إلا إذا كان مستوراً ويكره البصق والتمخط بلا حاجة وإطالة المكث بلا عذر ويجب تنقية المحل من بول أو غائط حتى يغلب على ظنه أنه لم يبق فيه شىء وهذا يسمى الإستبراء .

حكم الاستنجاء وكيفيته

الاستنجاء هو غسل ما تلوث به القبل أو الدبر أو مسحهما بالأحجار ونحوها ويسمى المسح بالأحجار استجاراً ويكفى إحداهما والماء أفضل لأنه يزيل النجاسة ويمحو أثرها ويندب الجمع بينهما . والإستنجاء يكون ببنصر اليد اليسرى ويبل بالماء قبل ملاقاة الأذى لتسهل النظافة ثم تغسل اليد بالصابون أو بشىء منظف أما الاستجار فيكون بالأشياء الطاهرة ثلاث مرات على الأقل بثلاث أحجار أو بحجر له ثلاث أركان ومما يستعمل فى الاستجار الحجر وقطع الطين اليابس والخرق البالية ويحرم العظم وروث البهائم والورق الذى يصلح للكتابة أو المكتوب بالحروف العربية ولا يجوز بما هو أملس كالزجاج وورق الأشجار أوالرطب كالطين

مباحث الوضوء

الوضوء هو غسل بعض الأعضاء ومسح بعضها وهى أربعة : الوجه واليدان والرأس والرجلان وكلها تغسل إلا الرأس فإنها تمسح كلها أو بعضها وقد ثبت فرضيته للصلاة بقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاةِ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين) فمن جحد الوضوء فهو مرتد عن الإسلام — أما شروط وجوبه فالبلوغ ودخول الوقت ويصح قبل دخول الوقت إلا من المعذور فإنه لا يصح .

والقدرة على الوضوء بأن يجد الماء الكافى ويقدر على استعماله فلا يجب الوضوء

على فاقد الماء ولا على من لم يقدر على استعماله كمريض يضره الماء ووجود ناقض فلا يجب تجديده بعد دخول الوقت ما دام لم ينقض — أما شروط صحته فهى عدم الحائل المانع من وصول الماء إلى البشرة كشمع ودهن وعجين وقذى العين والأوساخ المتجمدة على العضو — والعقل فلا يصح وضوء المجنون ولا المصروع ولا المغمى عليه ولا المعتوه .

فرائض الوضوء

أولها : غسل جميع الوجه مرة واحدة لقول النبى صلى الله عليه وسلم (الوضوء مرة مرة) أما تكرار الغسل فليس بفرض .

ثانيها : غسل اليدين مع المرفقين مرة واحدة بشرط أن تعم ويجب غسل تكاميش الأنامل وما تحت الأظافر الطويلة .

ثالثها : مسح الرأس مرة وإن لم يكن عليه شعر . فالمالكية والحنابلة قالوا بمسح جميع الرأس والشافعية قالوا بمسح بعض الرأس وإن قل والحنفيـــة قالوا بمسح ربع الرأس .

رابعها : غسل الرجلين إلى الكعبين مرة وهما العظمان البارزان فوق القدم ويجب العناية بغسل عقبيهما لقوله صلى الله عليه وسلم (ويل للأعقاب من النار) ويجب العناية أيضاً بغسل الشقوق التى تكون فى باطن القدم عند الفلاحين .

خامسها : الترتيب بين الأعضاء الأربعة حسب ما جاء فى الكتاب العزيز غير أن المالكية والحنفية قالوا إنه سنة .

سابعها : النية وهى قصد الفعل ومحلها القلب وتكون فى ابتداء الوضوء والحنفية جعلوها سنة وقد زاد المالكية الدّلك وجعلوه فرضاً .

سنن الوضوء

وأما سننه فمنها غسل اليدين إلى الرسغين والرسغ مفصل الكف والتسمية والمضمضة والاستنشاق والاستنثار وهو طرح الماء ومسح الأذنين ظاهراً وباطناً والتثليث مع تعميم الماء فى كل مرة وتكره الزيادة ورد مسح الرأس والاستياك

فى أول الوضوء وتخليل أصابع اليدين والرجلين وكيفيته فى اليدين أن يجعل باطن إحداهما على ظاهر الأخرى مع إدخال الأصابع وكيفيتـه فى الرجلين أن يضع خنصره اليسرى بين كل أصبعين من أصابع رجليه مبتدئاً من خنصر اليمين ومنها تحريك الخاتم حتى يصل الماء تحته وتخليل شعر اللحية الغزيرة وكيفيته أن يأخذ الماء بيده اليمنى ثم يضع يده أسفل لحيته من جهة صدره ثم يفرق بين الشعر إلى أعلا . وتقديم اليمنى على اليسرى وغسل الوجه من أعلا واليدين من الأصابع إلى المرفق ومسح الرأس من الأمام وغسل الرجلين من أطراف الأصابع إلى الكعبين . ومن السنة إطالة الغرّة والتحجيل بأن يغسل أكثر من القدر المفروض فى الوجه والرجلين لقوله صلى الله عليه وسلم (إن أمّتى يُدعَوْن يوم القيامة غُرّاً مُحجَّلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غُرّته فليفعل) واستقبال القبلة حال الوضوء .

مكروهات الوضوء

أما مكروهاته فهى الإسراف فى الماء والزيادة على الثلاثة لا سيما الصائم فى المضمضة والاستنشاق والوضوء فى مكان متنجس والكلام حال الوضوء وترك سنّة من السنن والاستعانة بالغير .

نواقض الوضوء

ينقض الوضوء أشياء منها الخارج من أحد السبيلين وهى الأشياء المعتادة كالبول والمذى والودى والمنى والهادى وهو ماء أبيض يخرج من قبل المرأة قبل الولادة والغائط والريح . وإما أن يكون غير معتاد كالدود والحصى والقيح والصديد والدم . وكذا ينقض الوضوء غيبة العقل بتعاطى خمراً أو حشيشة ونحوهما أو إغماء أو نوم ولمس من يشتهى لشهوة أو قصد . أما الشافعية فاللمس ينقض أياً كان ومس الذكر بلا حائل ومس حلقة الدبر أو قبل المرأة سواء كان اللامس رجلا أو امرأة وينقض الوضوء كل ماخرج من غير السبيلين كالدم والقيح والصديد

حكم وضوء المعذور

المعذور هو الذى به سلس بول لا يمكنه إمساكه أو استطلاق بطن أو انفلات

ريح أو استحاضة أو نحو ذلك مما ليس فى الإمكان منعه . وفيما ينقض وضوء المعذور تفصيل فى المذاهب .

مايحرم على المحدث حدثا أصغر

يحرمُ عليه الدخول فى أى صلاة وكذا سجدة التلاوة وسجدة الشكر والطواف ومس المصحف كله أو بعضه لقوله تعالى (لا يَمَسُّه إلا المطهرون) وهنا تفصيل مطول فى المذاهب فليراجعه من يريد .

مبحث الغسل وأسبابه وكيفيته

للغسل أسباب وفرائض وسنن ومندوبات وأنواع :

فأسبابه خمسة . الحيض والنفاس (أو الولادة بلا دم) وموت المسلم إلا الشهيد وإسلام الكافر والجنابة . أما الجنابة فتحصل بأمرين — أحدهما نزول المنى من الرجل أو المرأة بأى سبب من الأسباب ومن رآى البلل بعد الانتباه من النوم على الثوب أو البدن أو ظاهر القبل فيجب عليه الغسل سواء تحقق أنه منى أو شك فى ذلك وسواء تذكر لذة أو لا وكذا من داعب امرأته أو نظر أو تفكر فخرج منيه إلى ظاهر القبل فى اليقظة فيجب عليه الغسل بشرط أن ينفصل المنى عن مقره وكذا إذا خرج المنى بعد ذهاب اللذة وجب الغسل أما إذا خرج بسبب مرض أو ضربة على صلبه أو حمل شىء ثقيل ونحو ذلك فانه لايوجب الغسل إلا عند السادسة الشافعية فإنه يوجب الغسل — الأمر الثانى — إيلاج رأس الأحليل فى قبل أو دبر ولو بهيمة فيجب الغسل سواء أنزل أو لم ينزل — أما فرائضه فالنية عند غسل أول جزء من البدن وتعميم الجسد والشعر بالماء ويجب إيصال الماء إلى كل مايمكن إيصاله إليه بلا مشقة فلو بقى جزء يسير من البدن لم يصل إليه الماء فلا يصح الغسل ويجب إزالة كل حائل يمنع وصول الماء كالعجين والشمع وقذى العين ويجب أن ينزع خاتمه الضيق ويجب على المرأة أن تحرك قرطها الضيق وعلى الجملة فيجب تعميم الجسم بالماء حتى الأماكن الغائرة مثل السرة ومكان الجرح — أما سنن الغسل ومندوباته فكثيرة وفيها خلاف فى المذاهب وملخصها التسمية مقرونة بنية الغسل

وغسل اليدين إلى الكوعين وغسل المذاكير أولا بمنظف ثم تغسل بنية رفع الحدث عنها والوضوء كاملا ودلك ما تصل إليه يده من بدنه وغسل الرأس أولا ثم شقه الأيمن فالأيسر وستر العورة ولو كان بخلوة وتثليث الغسل وتخليل الشعر والأصابع وعدم حلق الشعر وتقليم الأظافو قبل الغسل ولا يستعين بالغير إلا لعذر واستقبال القبلة واستحضار النية حتى النهاية .

أما أنواع الغسل فهى تنقسم إلى مفروض وغيره . فالاغتسالات المفروضة أربعة . الغسل من الجنابة والغسل من الحيض عقب انقطاعه والغسل من النفاس أو من الولادة بلا دم وغسل الميت . وما عدا ذلك فهو مسنون . فمن المسنون غسل يوم الجمعة ولمن غسّل الميت وللعيدين ومن الإغماء والجنون وللوقوف بعرفة وعند تغير البدن بالمعرق أو الاشتغال فى فحم أو جير أو دقيق أو تراب يثير منه الغبار أو نحو ذلك ولحضور مجالس الخير وللاعتكاف ولدخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وغسل الصبى إذا بلغ .

ما يحرم على المحدث حدثاً أكبر

الحدث الأكبر هو الجنابة والحيض والنفاس والولادة بلا دم ويمنع به ما يمنع بالحدث الأصغر من الأمور السابق ذكرها ويزيد عليها أن الحدث الأكبر يمنع قراءة القرآن ودخول المسجد كما يحرم على الحائض والنفساء الصوم والصلاة فإن صامت فلا ينعقد صومها ويجب عليها قضاء ما فاتها من الصوم بخلاف الصلاة فانها لا تقضى ويحرم قربان المرأة حتى تطهر فمن ابتلى بذلك فقد أثم ووجبت عليه التوبة فوراً ويحرم الاستمتاع ما بين السرة والركبة أثناء ذلك .

مبحث التيمم وكيفيته

التيمم طهارة ترابية تشمل مسح الوجه واليدين وثبت بالكتاب والسنة والإجماع وله شروط وأسباب وفرائض وسنن وكيفية ومبطلات .

فمن شروطه دخول الوقت فلا يصح التيمم قبله ومنها النية وطلب الماء عند فقده

وعدم وجود الحائل على عضو من أعضاء التيمم ومنها الخلو من الحيض والنفاس ووجود سبب من الأسباب التى سنذكرها بعد .

أما أسبابه فهى ترجع إلى أمرين . أحدهما فقد الماء بأن لم يجده أصلا أو وجد ماء لا يكفى للطهارة — ثانيهما عدم القدرة على استعمال الماء فى حال وجوده أو كان يقدر ولكنه يحتاج إلى الماء لشرب وعجين ونحوهما ومن أسباب العجز أن يغلب على ظنه حدوث مرض باستعمال الماء أو زيادة مرض أو تأخر شفاء إذا استند فى ذلك على تجربة سابقة أو إخبار طبيب مسلم أو غير مسلم عالم بالطب ومنها خوفه من عدو فى طريق الماء سواء كان هذا العدو آدمياً أو حيواناً مفترساً ومنها فقد آلة رفع الماء ومنها خوفه من شدة برودة الماء بشرط أن يعجز عن تسخينه .

أما فرائضه فمنها النية وهو أن ينوى استباحة الصلاة ويصلى بهذه النية فرضاً واحداً أو سنة من السنن وهناك خلاف فى المذاهب فى كيفية النية وما يستباح فعله بها وكذا وقت النية ومنها الصعيد الطهور الذى لم تمسه نجاسة وهو عند الشافعية التراب الذى له غبار والرمل إن كان له غبار وسواء كان التراب محترقاً أم لا وعند الحنابلة هو التراب الذى له غبار وغير محترقا . وعند الحنفية هو كل ما كان من جنس الأرض مثل التراب والرمل والحصى والحجر ولو أملس وعندهم لا يجوز التيمم على أجزاء الأشجار والزجاج والمعادن المنقولة .

أما المعادن التى فى مقرها فيجوز التيمم بالتراب الذى عليها وبالطوب المحترق . أما المالكية فعندهم التراب والرمل والحجر والثلج والطين المجفف والمعادن إلا الذهب والفضة والجواهر والطوب المحترق ويجوز عليه قبل حرقه إذا لم يختلط بنجس وكذا لا يجوز التيمم عن الخشب ونحوه . ومن فرائضه مسح جميع الوجه بما فيه اللحية ومسح اليدين مع المرفقين ويجب أن ينزع ماستر شيئاً منها كالخاتم والأساور وزاد بعض المذاهب فروضاً أخرى فراجعها أو سل عنها علماء مذهبك .

أما سننه فمنها التسمية والترتيب والتيامن واستقبال القبلة .

وكيفيته هو أن يمسح وجهه بضربة ثم يضرب ضربة ثانية يمسح بها يديه من أصابعه فيضع أصابع يده اليسرى سوى الابهام على ظهر أصابع اليمنى سوى الابهام

ويمر بها على اليمنى فإذا بلغ الكوع ضم أطراف أصابعه إلى حرف الذراع ويمرها إلى المرفق ثم يدير باطن كفه إلى باطن الذراع ويمرها عليها رافعاً إبهامه فإذا بلغ الكوع أمر إبهام اليسرى على ظهر إبهام اليمنى ثم يفعل باليسرى كذلك ثم يمسح إحدى كفيه بالأخرى وأن يفرج بين أصابعه فى أول كل ضربة ولا يرفع يده حتى يتم المسح .

أما مبطلاته فهى مبطلات الوضوء والذى تيمم عن حدث أكبر لا يعود محدثاً حدثاً أكبر إلا بما يوجب الغسل وتزيد مبطلاته أمراً آخر وهو زوال العذر المبيح يمم كأن يجد الماء بعد فقده أو يقدر على استعماله بعد عجزه .

مبحث فاقد الطهورين

من فقد الماء والصعيد بأن حبس فى مكان ليس به مطهراً أو عجز عن الوضوء والتيمم معاً لمرض ونحوه فيجب عليه أن يصلى فى الوقت لحرمته ثم يعيد الصلاة متى قدر على الوضوء أو التيمم على تفصيل المذاهب .

فالشافعية قالوا يصلى صلاة خفيفة والجنب يقرأ الفاتحة فقط ويعيد الصلاة عند وجود الماء . والحنفية قالوا يصلى صلاة غير خفيفة أى يتشبه فقط بالمصلين فلا يقرأ ولا ينوى ثم يعيد الصلاة . والمالكية قالوا المعتمد فى فاقد الطهورين أن الصلاة تسقط عنه أداء وقضاء فلا يصلى ولا يقضى . أما الحنابلة فقالوا يصلى صلاة خفيفة مقتصرة ولا يعيدها .

مبحث المسح على الجبيرة ونحوها

الجبيرة ما يضعه المجبر أو الطبيب على العضو المنكسر ومثل الجبيرة الدواء الذى يوضع على الألم وكذا العصابة والمسح عليها بدلا من غسل العضو المريض بشرط أن يكون الغسل مضراً فان ضر الغسل مسح وإن ضر الغسل والمسح معاً فرض المسح على الجبيرة مرة واحدة يعمم بها جميع المحل المريض . ومما يبطل المسح على الجبيرة سقوطها عن موضعها أو نزعها عن مكانها وصلاة الماسح على الجبيرة صحيحة ولا إعادة له .

مبحث الحيض ووقته

وقته من بلوغ الأنثى تسع سنين إلى سن اليأس فإن رأت الدم قبل بلوغ تسع سنين أو رأته بعد سن اليأس لا يكون دم حيض بل هو دم فاسد ولون دم الحيض الحمرة والصفرة والكدرة (وهى بين البياض والسواد) وأن يكون الرحم خالياً من الحمل

أما مدته ـ فالشافعية والحنابلة قالوا يوم وليلة ـ والحنفية قالوا أقل مدته ثلاثة أيام وثلاث ليال ـ والمالكية قالوا أقل مدته يوم أو بعض يوم ـ وأكثر مدته خمسة عشر يوماً وغالبه ستة أيام أو سبعة وأقل مدة الطهر خمسة عشر يوماً ولا حد لأكثره . والنقاء من الدم فى أيام الحيض يعتبر حيضاً فلو رأت يوماً دماً ويوماً نقاء تعتبر حائضاً فى الكل وما نقص عن مدة الحيض أو زاد على أكثرها فهو استحاضة .

مبحث النفاس

النفاس هو دم يخرج للولادة فقال المالكية يخرج مع الولادة أو بعدها وقال الحنابلة الدم النازل قبل الولادة بيومين أو ثلاثة مع علامة الطلق وما بعد الولادة يعتبر نفاساً . والشافعية قالوا الدم الذى يخرج بعد نزول المولود فقط . والحنفية قالوا الدم الذى يخرج عند خروج أكثر الولد .

وعلى ذلك فلو شق بطنها وخرج منه الولد لا تكون نفساء . أما السقط ولو كان علقة أو مضغة فالدم النازل بعده نفاس . ولا حد لأقل النفاس فيتحقق بلحظة فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة أو ولدت بلا دم انقضى نفاسها ووجب عليها ما يجب على الطاهرات . أما أكثر مدته فهى أربعون يوماً عند الحنفية والحنابلة أما عند الشافعية فأكثره ستون يوماً وغالبه أربعون يوماً وعند المالكية أكثر مدته ستون يوماً .

وأما النقاء من الدم أثناء النفاس فعند الحنفية يعتبر نفاساً وعند الشافعية إن كان خمسة عشرة يوماً فصاعداً فهو طهر وما بعده حيض وإذا نقص عن هذه المدة فالكل نفاس . وعند المالكية إن كان نصف شهر فهو طهر والدم النازل بعده حيض .

وعند الحنابلة النقــاء المتخلل بين دماء النفاس طهر فيجب عليها فى أيامه مايجب على الطاهرات .

مبحث الاستحاضة

هى سيلان الدم فى غير وقت الحيض والنفاس فكل مازاد عن أكثر مدة الحيض أو النفاس أو نقص عن أقله أوسال قبل سن الحيض فهو استحاضة إلا عند المالكية فالدم النازل قبل سن البلوغ فهو دم علة وفساد .
ولا تمنع الاستحاضة شيئاً مما يمنعه الحيض والنفاس مما سبق تفصيله والله أعلم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَن توضَّأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (ابن المبارك) وقال عليه السلام (ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغُ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرِّباط) ثلاث مرات وقال (من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع يديه إلى السماء فقال أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) من حديث عقبة بن عامر .

باب فى الصلاة

إعلم أن الصلاة هى أهم أركان العبادات بعد الشهادتين والمحافظة عليها تقود الإنسان إلى أداء باقى العبادات وكذا تنهاه عن جميع المعاصى قال الله تعالى (إنَّ الصَّلاةَ تنهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ) وهى خمس صلوات مفروضة على كل مسلم ومسلمة . الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح . وقد فرضت بمكة ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة وهى الركن الثانى من أركان الإسلام المبينة فى قول النبى صلى الله عليه وسلم (بنى الإسلام على خمس شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا) (ق)

وقد ثبت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقال عز وجل (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) أى فرضاً مؤقتاً . وقال تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) إلى غير ذلك من الآيات . وأما السنة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خمس صلوات افترضهن الله عز وجل من أحسن وضوءهن وصلاتهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له ومن لم يفعل فليس له عند الله عهد إن شاء غفر له وإن شاء عذبه) (د) وقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (إخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة)(ق) ولم يختلف فى فرضيتها أحد من المسلمين ، فالصلاة معلومة من الدين بالضرورة وجاحدها مرتد عن دين الإسلام تجرى عليه أحكام المرتدين .

أوقات الصلاة

أما أوقاتها فمعروفة فلا تصح إذا قدمت عنها كما يحرم تأخيرها بغير عذر شرعى وعلى ذلك يجب أداء الصلاة بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها والأفضل أن تؤدى فى أول وقتها لقول النبى صلى الله عليه وسلم (أفضل الأعمال الصلاة فى أوقاتها) (ق) وسئل جابر رضى الله عنه عن مواقيت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فقال كان عليه الصلاة والسلام يصلى الظهر بالهاجرة والعصر والشمس حية والمغرب إذا وجبت والعشاء إذا كثر الناس عجل وإذا قلوا أخر والصبح بغلس — أى عند الاسفار .

استقبال القبلة

أما استقبال القبلة فشرط فى صحة الصلاة لقوله تعالى (فول وجهك شطر المسجد الحرام) وقول النبى صلى الله عليه وسلم (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة وكبر) (م) .

باب فى شروط أدائها

تؤدى الصلاة قياماً لقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) وقوله صلى الله عليه وسلم

من حديث عمران بن حصين (صلّ قائماً فان لم تستطع فقاعداً) ويجب أن يكون منتصباً معتدلا ولا يضر أن ينحنى قليلافان ذلك أقرب للخشوع ومن لم يقرأ الفاتحة فلا صلاة له لقوله صلى الله عليه وسلم (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب). (ق)

أما هيآتها فإليك ما رواه أبو هريرة فى الرجل الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها فقال عليه السلام (إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها) (م). وعلى من سمع الاقامة أن لا يسرع فى المشى ولا يهرول لقوله عليه الصلاة والسلام (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتموا) (م). والغرض من ذلك أن الإنسان إذا أسرع فى المشى ووقف فى الصلاة فلا يمكنه أن يستحضر قلبه لأن سرعة المشى تُحدث اضطراباً فى القلب. وعملا بهذا الحديث أتوجه إلى إخوانى الذين يسرعون بالذهاب إلى المسجد فيجدون الإمام راكعاً فيطلبون منه التأنى بقولهم (إن الله مع الصابرين) ثم يأتون بالنية وهم فى حالة إسراع شديد لا يتأتى فيه حصول الاستحضار المطلوب ثم يركعون وربما أتوا بتكبيرة الإحرام حال الركوع وهذا مبطل للصلاة لأن محلها القيام. فنصيحتى للذين تصادفهم هذه الحالة أن لا يطلبوا من الإمام التأنى ولا يدخلون الصلاة إلا فى حالة اطمئنان وخشوع ولو أدّى ذلك إلى عدم إدراك الركعة التى وجدوا الإمام فيها وبذلك نتبع تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم. ويشترط أن يكون السجود على يابس تستقر الجبهة عليه وأن يكون السجود على أعضائه السبعة الواردة فى قول النبى صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين). (ق)

باب فى الأعمال الظاهرة فى هيئة الصلاة

يُسنّ للمصلى إذا فرغ من الوضوء أن يقف مستقبلا القبلة وأن يساوى قدميه ولا يضمها بل يفرّج بينهما من الأمام بقدر شبر ومن الخلف بقدر نصف شبر وينظر لموضع سجوده ثم ينوى الدخول فى الصلاة بقوله — أؤدّى فرض الظهر

لله – فيميز الأداء عن القضاء والفريضة عن النفل والظهر عن غيره ولتكن معانى هذه الألفاظ حاضرة بقلبه لأن هذا هو أصل النية ويجتهد أن يستحضرها إلى آخر التكبير فإذا لم يعيّن الأوقات لم تنعقد صلاته ثم يكبر تكبيرة الإحرام بقوله (الله أكبر) باللغة العربية وتجوز باللغة التى يعرفها المصلى إذا لم يقدر على نطقها باللغة العربية وينطق بالتكبير بصـــوت يسمعه هو ، أما الأخرس فيكفى أن ينوى ذلك بقلبه . ويشترط أن يمد لام الجلالة مدًّا طبيعياً وأن لا يأتى بواو بين الكلمتين بأن يقول (الله وأكبر) . ولا يبدأ بالتكبيرة إلا بعد فراغ الإمام منها ويقرأ دعاء الاستفتاح (م) ثم يقرأ الفاتحة آية آية قراءة واضحة بتمام حروفها ولا يَصِلُ لفظ (آمين) بقوله (ولا الضالين) . ويجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء إلا إذا كان مأموماً ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن ثم يركع قائلا (اللهُ أكبر) ويمدّها إلى أن ينتهى من الركوع فيضع كفيه على ركبتيه وأصابعه ممدودة على الساقين ، وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما ويمد ذراعيه وبذلك يستوى الظهر مع الرقبة والرأس ، ثم يقول سبحان ربى العظيم ثلاثاً والزيادة إلى سبعة أو عشرة أكمل . ثم يعتدل قائلا (سمع الله لمن حمده) ويطمئن معتدلا إلى أن يعود كما كان قبل الركوع ويقول (اللهم ربنا لك الحمد حمدا كثيراً طيباً مباركا فيه) – أما إذا سجد قبل تمام الاعتدال بطلت صلاته ، ثم يهوى للسجود مكبراً ويضع جبهته مكشوفة على الأرض ويضمّ أصابع اليدين ويضعها حذاء منكبيه ويجافى الرجل مرفقيه عن جنبيه ويجافى بطنه عن فخذيه ويفرّج بين رجليه (أما المرأة فتضم) وتكون بطن أصابع الرجلين على الأرض وأطرافها لجهة القبلة ولا يفترش ذراعيه كما يفترش السبع ، ويقول سبحان ربى الأعلى ثلاثا والزيادة حسنة ، ثم يرفع من السجود مكبرا فيجلس على رجله اليسرى وتبقى اليمنى منصوبة على بطن الأصابع ويضع كفيه على فخذيه والأصابع ممدودة لجهة القبلة مضمومة ضماً طبيعيا ويطمئن جالسا ، ويقول الدعاء الوارد فى ذلك ، ثم يعيد السجود فيعيد رجله اليسرى كما كانت بحيث تكون منصوبة وبطن الأصابع على الأرض كما تقدم ولا يصح تركها مثنيّة ، ثم يشرع فى القيام بعد تمام السجدة الثانية قائلا (الله أكبر) ثم يمدها بحيث تستغرق حركة القيام وأن يقوم مستندا على يديه إذا شاء ولا يحسن أن يكون عجزه

أعلى من رأسه حال القيام . وهكذا يفعل فى الركعة الثانية ثم يجلس للتشهد فإن كانت الصلاة ثلاثية أو رباعية جلس على رجله اليسرى كما تقدم ، أما إذا كان التشهد الأخير فإنه يجلس على وركه الأيسر ويجعل قدم رجله اليسرى خارجا من تحت ساق رجله اليمنى مع نصب القدم اليمنى ثم يسلِّم بعد الفراغ من التشهد ولا يمد التسليم . وينوى به التسليم على الملائكة ورجال الله الصالحين .

باب فى المكروهات

يكره فى الصلاة الوسوسة واللعب القليل باليد فى الملابس أو البدن بدون حاجة وفرقعة الأصابع وتشبيكها ووضع اليد على الخاصرة والالتفات يمينا أو يسارا والإقعاء وهو وضع الإليتين على الأرض ونصب الركبتين لقول أبى هريرة رضى الله عنه نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقر كنقر الديك وإقعاء كإقعاء الكلب والتفات كالتفات الثعلب ، ويكره تشمير الكمّين عن الذراعين والإشارة بالعين أو الحاجب أو اليد — إلا إذا كانت الإشارة لرد السلام — ويكره إتمام قراءة السورة حال الركوع — أما إتمام قراءة الفاتحة حال الركوع فمبطل للصلاة — وإتيان لفظ (الله أكبر) بعد تمام الانتقال أو يقول (سمع الله لمن حمده) بعد تمام الاعتدال ويكره تغميض العينين إلا اتقاءً للمشغولية ورفع البصر إلى السماء وقراءة سورة أو آية فى الركعة الثانية أطول مما قرأ فى الأولى وتكرار السورة أو الآية فى ركعة واحدة أو فى ركعتين إذا كان يحفظ غيرهما وأن يكون بين يدى المصلى (فرن) أو كانون فيه جمر وأن يصلى فى صف وأمامه صف فيه فرجة والصلاة فى المزابل والمجزرة وقارعة الطريق والحمام ومبارك الابل ومأوى الحيوانات ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصَّفد وهو قرن القدمين والصفن وهو الارتكاز على إحدى الرجلين أثناء القيام دون الأخرى (ت) ونهى عن صلاة الحاقن للبول والحاقب للغائط (هـ) والحازق صاحب الخف الضيق (ت) فان كل ذلك يمنع من الخشوع وفى معناه الجائع والمهتم لقوله صلى الله عليه وسلم (إذا وُضع عَشاءُ أحدكم وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعَشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه) (ق) ونهى عن صلاة المقطِّب والغضبان وعن ستر الوجه

والنفخ فى الأرض عند السجود وتسوية الحصى والإستناد حال القيام على حائط .
وأما مندوبات الصلاة فمبينة بكتب الفقه يجب اطلاع المصلي عليها لمعرفة مايهمه منها .

باب فى الصلاة فى البيت

وأفضل مكان تصلى فيه النافلة البيت لقوله صلى الله عليه وسلم (صلّوا أيها الناس فى بيوتكم فإن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة) (أى الفرض) (ق) ويستثنى من ذلك صلاة التراويح فإن صلاتها فى المسجد أفضل .

باب فى فرضية صلاة الجمعة

صلاة الجمعة ركعتان ، روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال - صلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم - وهى فرض عين مستقل وليست بدلا عن الظهر غير أنها لو فاتت فرضت صلاة الظهر أربعاً ، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) وأما السنة فمنها حديث عمر المتقدم ، وأما الإجماع فقد اتفقت الأئمة على فرضيتها . أما شروط وجوبها وشروط صحتها فمبينة بكتب الفقه على تفصيل فى المذاهب .

باب فى مندوبات صلاة الجمعة

نظراً لأهمية صلاة الجمعة وفضل يومها نذكر فيما يلى ما يجب على المسلم أن يعمله فى ذلك اليوم . إعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخص به المسلمين قال تعالى : (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله) فحرّم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل مايلهى عن السعى إلى الجمعة ، فما يجب على المسلم عمله فى هذا اليوم أن يحسّن هيئته بأن يقلم أظفاره ويقص شاربه ويزيل شعر الإبط وشعر الأذن وشعر الأنف ويغتسل ويتطيب وللغسل أهمية كبري ووردت فيه أخبار كثيرة قال عليه السلام : (من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر ثم ادّهن أو مسّ من

طيب ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كُتب له ثم إذا خرج الإمام أنصت غُفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى) (ق) ومعنى خرج الإمام أى جلس على المنبر للخطبة ، ومن المندوب فى هذا اليوم قراءة سورة الكهف والإكثار من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم لقوله عليه السلام : (أكثروا من الصلاة علىَّ يوم الجمعة) (ق) والإكثار من الدعاء لقوله عليه السلام : (إن فى الجمعة ساعة لايوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه) (ت) وأشار بيده يقللها ، ومنها المبادرة بالذهاب إلى المسجد ، ومنها التطيب ليغلب به الروائح الكريهة والتزين بأحسن الثياب وأحبها إلى الله تعالى البيض ، ومنها المبادرة والصلاة فى الصف الأول . واعلم أيها المسلم رحمك الله أن إخوانك من المسلمين فى القرن الأول من الإسلام كانت تزدحم بهم الطرقات قبل الفجر وبعده عند الذهاب والانصراف من المساجد كأيام الأعياد ، ولكن قد اندرس هذا ، وقيل أول بدعة حدثت فى الإسلام ترك التبكير إلى المساجد — كيف لاتستحى أيها المسلم إذا رأيت اليهودىّ والنصرانىّ يبكّر إلى الكنيسة يوم السبت أو الأحد ، وطالب الدنيا يبكّر إلى الذهاب للأسواق ليربح قليلا أو كثيراً من المال فلمَ لايسابقهم طالب الآخرة لينال الأجر العظيم والربح الجسيم — ومنها عدم تخطّى رقاب الناس وعدم المرور بين أيديهم فقد ورد وعد شديد فى تخطى الرقاب ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتخطَّى رقاب المصلين فقال له بعد الفراغ من الصلاة (مامنعك أن تصلّى معنا) قال ألم ترنى يارسول الله ؟ فقال عليه السلام (رأيتك تأنّيت وآذيت) (د) أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور ، وفى ذلك إشارة إلى أنه أحبط عمله بتخطى الرقاب . وأما المرور بين يدى المصلى فقد قال عليه الصلاة والسلام (لأن يقف أربعين عاماً خير له من أن يمر بين يدى المصلى) (البزار) والقرب من الإمام أفضل ، ومنها الإنصات إلى الخطبة وعدم التكلم أثناءها . قال عليه السلام (من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا فلاجمعة له) (ت) وهذا يدل على أن إسكات الغير عن الكلام يكون بالإشارة لابالنطق . وكذا يكره اللعب بالمسبحة أثناء الخطبة .

لهذا وغيره من السنن أتوجه بهذه الكلمة إلى الذين يأتون يوم الجمعة بثياب قذرة متّسخة يتأذى منها المصلون ، وإلى الذين يتهاونون فى نظافة أرجلهم فتتصاعد من بين

أصابعهم رائحة كريهة خصوصاً فى زمن الصيف ، وإلى إخواننا الذين يلبسون الجوربات فتبقى أياماً بدون غسل ويحضرون بها يوم الجمعة وهى منتنة فيؤذون مَن يصلّى بجوارهم ومَن خلفهم وهم بهذا قد خالفوا سنن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعملوا بقول الله تعالى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وليعلموا أن هذه الأمور تفسد على المصلين صلاتهم لأن المصلى إذا تأذّى بها لايمكنه استحضار قلبه ولا يطمئن فى الصلاة — فياليتنا نطيع الله ورسوله ونتزيّن عند الذهاب للمسجد لنقف بين يدى الخالق العظيم كما نتزين عند الذهاب إلى محلات اللهو أو لمقابلة المخلوق الأثيم . وكذا أتقدم بالرجاء إلى المسئولين بنظافة المساجد أن يهتموا بنظافتها لا سيما فى يوم الجمعة ، وليعلموا أن عدم النظافة شىء يسأم منه المصلون — وعلى طالبى ثواب الآخرة من المؤمنين أن يتنافسوا فى تجديد فرش المساجد ويبادروا إلى ترميمها وتعميرها فنى ذلك الخير والفلاح ومضاعفة الأجر يوم لاينفع الإنسان إلا ما قدمت يداه . قال تعالى (إنما يَعمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة) جعلنا الله منهم .

باب فى صلاة الجماعة

صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد لقوله عليه الصلاة والسلام (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة) (ق) أى المنفرد ، وقال عليه السلام (من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلى العشاء والفجر فى جماعة كان كقيام ليلة) (ق) إلى غير ذلك من الفضائل — وتسقط الجماعة بعذر من الأعذار الآتية — المطر الشديد والبرد الشديد والوحل الذى يتأذى منه والمرض والخوف من ظالم والعمى إن لم يجد الأعمى قائداً أو لم يهتد بنفسه وغير ذلك مما هو مفصل بكتب الفقه .

باب فى الخشوع

قال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) فالخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل فى القلب بجلال الله عز وجل ، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعا فى الصلاة وفى غير الصلاة بل فى كل حركاته وسكناته لأن باعث

الخشوع هو علمك بأن الله تعالى مطلع عليك فى السر والعلن ، قال عليه الصلاة والسلام (أعبدِ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (ق) وإنما جعل الخشوع فى الصلاة لأن العبد فى الصلاة يناجى ربه فوجب حصول الخشوع فى هذه المناجاة . واعلم أن الخشوع فى الصلاة بمثابة الروح من الجسد ، وكما أنه لا فائدة فى جسم بلا روح فكذلك لا فائدة فى صلاة بغير خشوع ، وقد ورد فى الحث على الخشوع أخبار كثيرة . منها ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل كان يوصيه (وإذا صليت فصلِّ صلاة مودِّع) (ه) أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه ، وقال عليه السلام (لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه) (ق) ورأى صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال (لو خشَع قلب هذا لخشعت جوارحه) (ق) ومن ذلك يتبين أن الحركة فى الصلاة تدل على عدم خشوع المصلى، وقال ابن عباس رضى الله عنهما ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ . وقال عليه السلام (إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وأن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض) وأشار إلى الخشوع ، (ابن أبى أسامة) وقال (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) (ق) وغير ذلك مما يدل على فضائل الخشوع .

باب فى بيان الدواء النافع لحضور القلب فى الصلاة

إعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظِّماً لله عز وجل وخائفاً منه وراجياً له ومستحيياً من تقصيره فى أداء حقوقه فانفكاكه عن هذه الأحوال فى الصلاة لا سبب له إلا تفريق الفكر وتشعب الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشىء إلا بدفع سببه ، وسبب موارد الخواطر على القلب إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً باطناً . أما الخارج فهو ما يقرع السمع أو يظهر للبصر وهما أقوى أسباب الخواطر الظاهرة التى تشغل القلب وقت الصلاة ، وعلاج ذلك قطع هذه الأسباب بأن يغُضَّ بصره أو يصلى فى بيت مظلم ولا يصلى على الشوارع ولا على الفرش المصبوغة بالألوان .

أما الأسباب الباطنة فهى أشد فإن من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لاينحصر فكره فى أمر واحد ، بل لايزال يطير من جانب إلى جانب ، وعلاج ذلك أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرأه فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل الدخول فى الصلاة بأن يجدد ذكر الآخرة وهول الموقف بين يدى الجبار وخطر مناجاة المولى سبحانه وتعالى ، ويفرغ قلبه قبل التكبير عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال عليه الصلاة والسلام لعثمان بن شيبة (إنى نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذى فى البيت فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل الناس عن صلاتهم) (د) فهذا طريق تسكين الأفكار ، واعلم أن الشهوة القوية لا تزال تجاذبك وتجاذبها ثم تغلبك وتنقضى جميع صلاتك فى شغل المجاذبة ، وشهوات الدنيا كثيرة فلا يخلو عبد منها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ، ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شىء منها فلا يطمعنّ أن تصفو له لذة المناجاة فى الصلاة فإن من يفرح بالدنيا لايفرح بالله عز وجل ، وهمة الرجل مع قرة عينه أى مع مايسره ، فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لا محالة إليها همه . ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة . فهذا هو الدواء المرّ ، ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة ، ولكن الرجل العاقل هو الذى يصبر على مرارة الدواء كى يحصل لقلبه الشفاء .

باب فى فضائل الصلاة

مما ورد فى فضيلة الصلاة من الأخبار قول النبى صلى الله عليه وسلم (خمسُ صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة) (ابن عبد البر) وقال (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه) قالوا لا شىء قال (فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماءُ الدرن) (م) وقال

(إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتُنِبَتِ الكبائر) (م) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ فقال (الصلاة لمواقيتها) (ق) وقال (من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حُشر مع فرعون وهامان) احمد وقال (مفتاح الجنة الصلاة) (ت) وقال (ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شىء أحب إليه منها لتعبّد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد) (ك) وقال (لن يلج النارَ أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) يعنى الصبح والعصر ، وقال صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال تعالى حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى مجّدنى عبدى فإذا قال مالك يوم الدين قال الله تعالى فوّض إلىّ عبدى ، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله تعالى هذه بينى وبين عبدى ، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله هذه لعبدى ولعبدى ما سأل) (م) فلا يزال المصلى يناجى ربه ويطلب قربه حتى تتمكن المحبة من قلبه ، فهذا كله جذب منه لك لحضرته ، واستخراج منك لشكر منته — عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل .

باب فى وظائف الإمامة

أما الوظائف التى على الإمام ، فمنها أن لا يتقدم للامامة على قوم يكرهونه ، وإذا خُير المرء بين الأذان والإمامة فينبغى أن يختار الإمامة فان لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه ، وأن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصلى فى أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه ، ولا ينبغى أن يؤخر الصلاة انتظاراً لكثرة الجماعة ، وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر للطهارة فتقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم ففاتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ركعةٌ فقام يقضيها ثم قال (قد أحسنتم هكذا فافعلوا) (ق) وأن يؤم مخلصا لله تعالى بأن لا يأخذ عليها أجراً فان أخذ فلا حرمة فى ذلك ولكنه مكروه ، ويجب أن يكون الإمام طاهر الباطن عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر فانه كالشفيع للقوم فينبغى أن يكون خيراً منهم ،

فاذا أحدث وهو فى الصلاة فلايستحى بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه ، وأن لايكبر حتى تستوى الصفوف فليلتفت يميناً وشمالا فان رآى خللا أمر بالتسوية ، وأن يرفع صوته بتكبيرة الاحرام وسائر التكبيرات والله أعلم .

باب فى آداب المسجد

يدخل الإنسان المسجد برجله اليمنى ويؤدى تحيته قبل الجلوس لقول النبى صلى الله عليه وسلم (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس) (ق) ثم يجلس مستقبلا القبلة بغاية الخشوع والأدب ، وما دام فى المسجد منتظراً الصلاة فكأنه فى صلاة فلا يشبك بين أصابعه ولا يفرقعها ولا يعبث بمسبحته ولا يشغل قلبه إلا بذكر الله تعالى والتفكر فى أهوال الموت وذكر الآخرة ويكثر من الاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه شواغل الدنيا الفانية ، وإذا رآى أحداً يخل فى صلاته يرشده إلى اصلاحها ، وإذا سمع أحداً يتكلم بكلام الدنيا ينهاه عن ذلك ، وليجعل لنفسه ورداً يقرأه وهو فى المسجد كأن يقول لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . مائة مرة ، وسبحان الله وبحمده مائة مرة ، أو يقرأ القرآن كى يستفيد بالجلوس فى المسجد ، أما إذا ترك الذكر استولى الشيطان على قلبه أو يغلبه النوم ، فاذا قضيت الصلاة فلتكن آخر من يخرج ، واختم صلاتك قبل الخروج واسأل الله تعالى من فضله عسى أن يقبل صلاتك لأنك لا تدرى أقبلت الصلاة أم ردّت فى وجهك ، ثم اخرج برجلك اليسرى ولاتزجّ بنفسك عقب الصلاة فى مجالس اللهو والضحك فان هذا ينسيك ما كنت فيه من الخشوع ويعود قلبك للجفاء كما كان .

باب فى فضيلة الأذان

مما ورد فى فضيلة الأذان قول النبى صلى الله عليه وسلم (ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يَفْرُغَ مما بين الناس رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم بقوم وهم به راضون ، ورجل أذَّن فى مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ، ورجل ابتُلى بالرزق فى الدنيا فلم يشغله

ذلك عن عمل الآخرة) (ت) وقال (لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولاشيء إلا شهد له يوم القيامة) (خ) وغير ذلك من الفضائل .

باب فى الزكاة

الزكاة فرض عين على كل من توفرت فيه شروطها وقد فرضت فى السنة الثانية من الهجرة ، ودليل فرضيتها الكتاب والسنة والاجماع قال تعالى (وآتوا الزكاة) وقال عز وجل (فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وشروطها وأنواعها مبينة تفصيلا فى كتب الفقه فعلى من يجهل التفاصيل الخاصة بالزكاة أن يسأل العلماء حتى يخرج من مسئولية التقصير لأن الجهل فى الأمور الدينية مؤاخذ عليه ، والزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس ، فمن أداها فقد أتم دعائم الإسلام وحسب تاركها زاجراً قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) معنى الانفاق هنا أداء الزكاة ، وقال أبو ذر انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال (هم الأخسرون ورب الكعبة) فقلت ومن هم قال (الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس) من الصحيحين .

باب فى فضيلة الاحسان

مما ورد فى فضيلة الصدقة قول النبى صلى الله عليه وسلم (تصدقوا ولو بتمرة فانها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء النار الماء) (ابن المباركة) وقال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة) (عدى) وقد ذكرت فى باب ذم البخل وفضل السخاء من هذا الكتاب كثيراً مما ورد فى فضيلة الزكاة والصدقة فراجعه .

باب فى الصيام

الصوم معروف وأقسامه وشروطه ومبطلاته مبينة فى كتب الفقه والذى يهمنا

منه هو أن يعرف كل مسلم مكلف أن صوم رمضان فرض عليه بدليل الكتاب والسنة والإجماع ، وقد فرض فى شعبان فى السنة الثانية من الهجرة قال تعالى (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) وقال عز وجل (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وأنه ركن من أركان الإسلام الخمس ، ومنكر الصوم كافر كمنكر الصلاة والزكاة والحج .

باب فيما يجب على الصائم

ليس الصيام فقط كف البطن والفرج عن الشهوة وإنما هناك أمور يجب على العبد الذى يريد سلامة صيامه ونيل أجره أن يحافظ عليها ، منها غض البصر عن كل مايكره النظر إليه شرعاً وعن كل مايلهى القلب ، وأن يحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والشتم والجدال ويلزمه السكوت والاشتغال بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، قال عليه السلام (إنما الصوم جُنة إذا كان أحدكم صائماً فلا يَرْفُث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم) (ق) ، وأن يكف السمع عن الأصغاء إلى كل مكروه لأن كل ماحَرُمَ قوله حَرُمَ سماعه . وأن يحفظ بقية الجوارح عن الآثام ويكف البطن عن الشبهات وقت الأفطار أى لايفطر إلا على طعام حلال لاتكون فيه شبهة أصلا ، وأن لايستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء جوفه لأن المقصود من الصوم كسر الشهوة وتضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان وأن يكون قلبه بعد الأفطار مضطرباً بين الرجاء والخوف إذ ليس يدرى أيُقبل صومه فهو من المقربين أو يُرَد عليه فهو من الممقوتين .

باب فى فضائل الصيام

مما ورد فى فضائل الصيام أنه ربع الإيمان ، فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الصوم نصف الصبر (ت) وأن الصبر نصف الإيمان (حل) وقال عليه السلام فيما يرويه عن ربه عز وجل (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف) (ق) وقال عليه السلام (والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم

أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلى فالصوم لى وأنا أجزى به) (ت) وغير ذلك من الفضائل .

باب فى الحج

الحج واجب على كل مسلم ومسلمة مرة فى العمر بالشروط المبينة بكتب الفقه ، وقد ثبتت فريضته بالكتاب والسنة والإجماع قال تعالى (ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وهو خامس أركان الإسلام المبينة بالحديث ، فمنكر الحج كافر ، والحج واجب على الفور للمستطيع ، فمن استطاع فى عام ثم أخره لعام آخر فهو آثم .

باب فى فضيلة الحج

الحج هو عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين ، فيه أنزل الله عز وجل قوله (اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام دينا) وقال عليه السلام (من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (ق) وغير ذلك من الفضائل العظيمة نسأل الله تعالى أن يكتبها لنا ولجميع المسلمين .

باب فى آداب زيارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال عليه الصلاة والسلام (من زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى) (طب) وقال (من وجد سعة ولم يفد إلىّ فقد جفانى) (ابن عدى) فمن قصد زيارة المدينة فليصلّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه كثيراً وليغتسل قبل الدخول من بئر الحره ولْيتطيب ولْيلبس أنظف ثيابه فإذا دخلها فلْيدخلها متواضعاً معظماً ولْيقل باسم الله وعلى ملّة رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ، ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلى بجانب المنبر ركعتين ثم يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وليس من السنّة أن يمس الجدار ولا أن يقبّله ويقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يانبى الله السلام عليك يا أمين الله وغير ذلك من التسليمات ، ثم يقول أشهد أن لا إله

إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه ، وأشهد أنك قد بلّغت الرسالة وأدّيت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوّك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، وإذا كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول السلام عليك من فلان السلام عليك من فلان ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضى الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضى الله عنه لأن رأسه عند منكب أبي بكر رضى الله عنه ثم يقول اللهم إنك قد قلتَ وقولك الحق (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا الله تواباً رحيما) اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك فى ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفّع نبيك هذا فينا — ثم يأتى الروضة فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع ، ويستحب أن يخرج إلى البقيع ويزور قبر عثمان وقبر الحسن بن على وقبر على بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم أجمعين ، ويصلى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ويزور قبر ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة الرسول فذلك كله فى البقيع ، وكذا يقصد الآبار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويغتسل ويشرب منها وهى سبع آبار للتبرك والشفاء ، وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة حرمتها فليفعل فله فضل عظيم . فإذا عزم الرجوع فيستحب أن يأتى القبر الشريف ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة ويسأله السلامة فى سفره ويصلى ركعتين فى الروضة الصغيرة ويخرج برجله اليسرى وليقل اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحطّ أوزارى بزيارته واصحبنى فى سفرى السلامة ويسّر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالماً يا أرحم الراحمين ، وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر ما يستطيع .

باب فى الرجوع من الحج

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من غزو أو حج أو عمرة

يكبر على رأس كل شَرَفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) (ق) فينبغي للحاج أن يسير على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ينبغي له أن يرسل إلى أهله يخبرهم بقدومه ولا يدخل عليهم بغتة ولا يطرقهم ليلا، فإذا دخل بلده فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فإذا استقر فلا ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفُر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض فى المعاصى فما ذلك علامة الحج المبرور، بل علامة الحج المبرور أن يعود زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

باب فى سنن النبى صلى الله عليه وسلم

يشمل هذا الباب كثيراً من سنن النبى صلى الله عليه وسلم وتعاليمه التى وضعها لأمّته جمعتها بقصد العلم بها والعمل بمقتضاها — قال عليه الصلاة والسلام (من رغب عن سنتى فليس منى) (ق) وروى عن على كرم الله وجهه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فى الحضارة فقال (المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضى غنيمتى والفقر فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خُلُقى وقرة عينى فى الصلاة) (لابن عجيبة) وقال على كرّم الله وجهه قلت يا رسول الله أى الطرق أقرب إلى الله وأسهلها على عباد الله وأفضلها عند الله تعالى فقال عليه السلام (يا على عليك بمداومة ذكر الله) فقلت كل الناس يذكرون الله فقال (يا على لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله) فقلت كيف أذكر يا رسول الله فقال (غمّض عينيك واسمع منى ثلاث مرات ثم قل مثلها وأنا أسمع) فقال عليه السلام (لا إله إلا الله) ثلاث مرات مغمضاً عينيه ثم قال علىّ كذلك ثم لقّنها علىّ للحسن البصرى وهكذا (لابن عجيبة)

فهذه طريقة الذكر، والواجب على العبد أن لا يغفل عن ذلك.

وأما السنة فى شئون الأكل، فكان عليه السلام متواضعاً فى أكله فكان يضع الطعام على الأرض، ولا يأكل وحده، وكان لا يُعيب مأكولا إذا أعجبه أكله وإلا تركه، ونهى عن النفخ فى الطعام الحار، وكان يأكل من التمر وتراً، ونهى عن الشرب متكئاً، وكان لا يشرب قائماً، وكان يمسك الكوز باليمنى، ونهى عن التنفّس فى الإناء، بل كان يُنحيه عن فمه بالحمد ويردّه بالتسمية ثلاثاً، وكان يقول بعد الشرب (الحمد لله الذى جعله عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله مِلحاً أجاجاً بذنوبنا) وكان يتحرى ما يأكله فلا يأكل ما فيه شبهة وقال (كل لحم نبتَ من حِرام فالنارُ أولى به) (ق)

وكان عليه السلام كريماً وأوصى بإكرام الضيوف وإطعام الطعام، وقال (مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفهَ) ونهى عن التكلف للضيف إلا عند المقدرة، وأوصى عليه السلام بإجابة الدعوة فقال (لو دُعيتُ إلى كراع لأجبت ولو أهْدى إلى ذراع لقبلت) (ق)

ومن السنة المبادرة بالتزويج قال عليه السلام (النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فقد رغب عنى) (ق) وقال (من ترك التزويج مخافة العيْلة فليس منا) (ق) وقال (من استطاع منكم الباءةَ فليتزوجْ فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لا يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء) (ق) وقد أوصى بالتزوّج من صاحبات الدّين، وقال (تُنكح المرأةُ لمالها وجمالها وحسبِها ودينها فعليك بذات الدّين ترَبت يداك) (ق) ونهى عن التزوج بالجميلة التى تنبت نباتاً سيئاً، فقال عليه السلام (إياكم وخضراء الدّمن) فقيل ما خضراء الدّمن، قال (المرأة الحسناء فى المنبت السوء) وقال (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) (ق) وقال (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً وألطفهم بأهله) ولكن لا ينبسط فى الدعابة إلى حدٍّ يُفسد أخلاقها ويُسقط هيبته عندها، ولا يساعد على المنكرات التى تأتيها الزوجة، وليكن الزوج غيوراً على أهل بيته، وهو أن لا يتغافل عن الأمور التى تخْشى غوائلها ولا يبالغ فى إساءة الظن بهنّ، وقد نهى عليه السلام عن تتبع عورات النساء وتطلّب عثراتهن، والطريق المغنى عن ذلك أن لا يدخل عليها الرجال، وهى لا تخرج إلى الأسواق، قال عليه السلام لإبنته فاطمة

رضى الله عنها (أىّ شىء خيرٌ للمرأة) قالت أن لاترى رجلا ولا يراها رجل ،فضمّها إليه وقال (ذرّيةً بعضها من بعض) وكان عليه السلام قد أذن للنساء فى الخروج للمساجد للعبادة، وإنما الآن انعكس الحال ، فتركت النساءُ العبادةَ وخرجن للأسواق والنزهة متبرجات متزينات ، وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، لو علم النبى صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج. ومن السنة الإعتدال فى النفقة فلا ينبغى التقتير عليهن ولا ينبغى الإسراف .

ويجب على المتزوج أن يعلم من أمر الحيض وأحكامه ما يحترز منه الاحتراز الواجب ، كما يجب عليه أن يعلم زوجته الصلاة وأمور الدين ، لأنه مكلف بذلك شرعاً ومسئول عنها قال تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وعدم الإعتدال بين الزوجات حرام بنص القرآن ، والعدل هو فى الانفاق والمبيت أما الحب والوقاع فهذا عمل قلبى لايدخل تحت الاختيار وكان عليه السلام يعدل بين زوجاته فى الانفاق والبيوتة فى الليالى ويقول (اللهم هذا جهدى فيما أملك ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك) (ق) يعنى الحب — ومن السنة أن الرجل إذا أتى أهله يقول (اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا) (ق) فإذا واقع فليغتسل عقب الوقاع حتى لا ينام جنباً ، وإذا لم يتيسر له الغسل وأراد النوم فليتوضأ ، قال ابن عمر رضى الله عنهما قلت للنبى صلى الله عليه وسلم أينام أحدنا وهو جنب ، قال (نعم إذا توضأ) ولكن قد وردت فيه رخصة عند الاضطرار بحديث عائشة رضى الله عنها حيث قالت ، كان النبى صلى الله عليه وسلم ينام جنباً لم يمس ماء .

أما مايهم الرجل من أمر الوقاع فمعلوم . ولكنى أشير إلى مسألة واحدة ، وهى العزل ، فقد وردت فيها أخبار كثيرة ، منها ماقاله النبى صلى الله عليه وسلم لرجل جاءه ، فقال إن لى جارية هى خادمتنا وساقيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال عليه السلام (إعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ماقدر لها) ومن السنة حسن تربية البنات وتأديبهن ، وقد نص على ثواب ذلك وفضله — ومن السنة أن يؤذّن فى أذن المولود ويختنه فى اليوم السابع ويسميه إسماً حسناً ، وأفضل الأسماء ، عبد الله وعبد الرحمن .

ومن السنة أن تطيع المرأة زوجها فى كل مايطلبه منها فى نفسها مما لامعصية فيه، قال عليه السلام (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) (ق) وقال (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح) (ق). وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لاتنزل من العلو إلى السفل، وكان أبوها فى الأسفل، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله علية وسلم تستأذن فى النزول إلى أبيها، فقال عليه السلام (أطيعى زوجك) فمات أبوها فاستأذنت فى النزول فقال عليه السلام (أطيعى زوجك) فدُفن أبوها، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها، وقال (إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها) فأضاف طاعة الزوج إلى مبانى الإسلام — وجاءت فتاة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالت إنى فتاة أخطب فأكره التزويج فما حق الزوج على المرأة، قال (لو كان من مفرقه إلى قدمه صديد فلحسته ماأدت شكره) قالت أفلا أتزوج، قال (بل تزوجى فانه خير). وقال (لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها). والقول الجامع فى آداب المرأة أن تكون قاعدة فى بيتها قليلة الكلام مع جيرانها تحفظ كرامة زوجها فى غيبته، وتعمل على مسرته عند حضوره، ولاتخرج من بيتها إلا بإذنه، فان أذن لها فتكون مختفية، وتمشى فى المواضع الخالية من الناس، وتحذر أن يسمع صوتها غريب، كماتتنكر أمام صديق زوجها، وتحافظ على صلاتها وصيامها، وإذا طرق الباب أحد فى غيبة زوجها فلا تردّد معه الكلام وتقنع من زوجها بما رزق الله، ولا يقع نظر زوجها عليها إلا فى حالة نظافة، بل تكون مستعدة فى أى وقت ليتمتع بها، مشفقة على أولادها ولا تكثر شتمهم وضربهم، ولاتطيل الكلام مع زوجها جدلا، فاذا مات زوجها وعندها أولاد فالأفضل عدم التزوج وتعكف على تربيتهم. ففى ذلك خير كثير.

ومن آدابها أن لاتتفاخر على الزوج بما لها إن كانت أغنى منه، ولاتجاهلها إن كان هو غير حسن الوجه، أو به عاهة أو مرض، بل تنظر إليه دائماً بعين الإحترام والتعظيم ففى ذلك الخير الجسيم.

وعلى العبد أن يسعى دائماً فى طلب المعيشة من أسباب مشروعة ؛ قال عليه السلام (من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة) (ق) وليس معنى هذا أن طلب المعيشة يقوم مقام العبادات المفروضة — كما يفهم العوام الذين لا يُؤَدّون واجب الطاعة معتقدين أن انشغالهم فى طلب المعيشة يبيح تأخير ما هو مفروض عليهم، وهذا خطأ ، وإلا إذا كان ذلك صحيحا لما تعبّد أحد لأن جميع الخلق حتى الأغنياء منشغلون فى طلب المعيشة فلنفهم ذلك — وقال عليه السلام (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح) (ق) وقال (التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين). ويجب أن لا يحتكر التاجر أصناف الطعام انتظاراً لغلائها فإن هذا ظلم عام قال عليه السلام (من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لإحتكاره) (ن) وقد خالفت التجار هذا التشريع وجعلوا يخزنون الغلال انتظاراً لإرتفاع الأسعار فعاقبهم الله تعالى بالخسارة والدمار ، وإلى التجار أسوق هذه الحكاية التى أوردها الغزالى فى الإحياء ؛ وهى أن رجلا من السلف كان يتّجر فى الغلال ببلدة واسط فجهز سفينة حنطة وأرسلها إلى البصرة وكتب إلى وكيله بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة فى السعر ؛ فقال له التجار لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحب الحنطة بذلك ؛ فرد عليه بقوله ياهذا إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ومانحب أن نربح أضعافه بذهاب شىء من الدين ؛ فقد جنيت علينا جناية ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ؛ وليتنى أنجو من إثم الإحتكار كفافاً لا لى ولا على .

كما أن الغش فى البيع حرام ؛ روى أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرآى بللا فقال (ما هذا) قال أصابته السماء ، قال عليه السلام (فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا) (ق) ونهى صلى الله عليه وسلم عن النجش وهو أن يأتى الرجل أمام المشترى ويريد الشراء لنفسه بسعر مرتفع ، ليغرى المشترى وهو لا يريد الشراء فعلا . وليكن التاجر سهل المعاملة وصاحبُ الدَّين رحيما بالمدين المعسر ؛ قال عليه السلام (رحم الله امرأ سهل البيع

سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء) وقال (من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً) وفى لفظ آخر (أظله الله تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله). ومعنى من أنظر معسراً ، أى انتظر على المدين المعسر حتى يرزقه الله تعالى وإن تصدق به كان خيراً وأبق . وقد ورد القرآن بذلك . وكذامن السنّة رد الدّين وتوفية الدائن حقه ، قال عليه الصلاة والسلام (خيركم أحسنكم قضاء) وقال (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله) (ق) .

وعلى العبد أن لا ينظر إلى الحرام بل لايحيد عن طلب الحلال من الرزق ، قال عليه السلام (من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء) وقال (من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره عليه) وقال (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لايعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه) (ق) .

ونهى عليه السلام عن إعانة الظالم .

أما السنة فى الصحبة فقال عليه السلام (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وقال (مازار رجل أخاً فى الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً) فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار .

ومن السنة أن تسلم على أخيك المسلم إذا لقيته وتجيبه إذا دعاك وتشمّته إذا عطس، وتعوده إذامرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرّ قسمه إذاأقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك ، فجميع ذلك وردت به الأحاديث، وقال (لا يحل لمسلم ان يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه) ومنها أن لا يتكبر على مسلم ويتواضع له ، فإن الله لايحب كل مختال فخور . قال عليه السلام (إن الله تعالى أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد) وقال (لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان

فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام) (ق).

ومن السنة أن يحسن إلى الناس ويتودّد إليهم قال عليه السلام (رأس العقل بعد الدين التوددُ إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بَر وفاجر) (ق).

ومنها أن لا يدخل على أحد إلا بإذنه ، ويستأذن ثلاث مرات ؛ فإن لم يؤذن له انصرف ؛ وقد جاءنا القرآن بذلك ؛ وقال عليه السلام (الاستئذان ثلاث ، فالأولى يستنصتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردُّون) ومنها أن يحترم العلماء ، ويرحم الضعفاء والصبيان — ومنها أن ينصف الناس من نفسه ، ومنها أن يكرم كل من يستحق الإكرام ؛ قال عليه السلام (إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه) (ق) .

ومن السنة أن يصلح ذات البين من المسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصوم والصدقة) قالوا بلى قال (إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هى الحالقة) أعنى حالقة الدين .

ومنها أن يستر عورات المسلمين جميعهم ؛ قال عليه السلام (من ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة) وقال (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته) ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر عليه . ومنها أن يبدأ كل مسلم بالسلام ويصافحه قبل أن يكلمه وقال (إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ؛ ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة) .

ولا بأس بتقبيل يد الرجل الصالح للتبرك ، أما الإنحناء عند السلام فمنهى عنه ؛ قال أنس رضى الله عنه قلنا يارسول الله أينحنى بعضنا لبعض ؛ قال (لا) قلنا فيقبِّل بعضنا بعضاً قال (لا) قلنا فيصافح بعضنا بعضا قال (نعم) ورد السلام أثناء الوضوء منهى عنه ؛ ويكره السلام على من يقضى حاجته أيضاً ؛ والقيام للقادم منهى عنه قال عليه الصلاة والسلام (إذا رأيتمونى فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم) وقال (من سره أن تميل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) وهذا دليل منتهى التواضع والمساواة

بين الناس . أما تشميت العاطس فقد ورد أن العاطس يقول ، الحمدلله على كل حال ، ويقول الذى يشمته يرحمكم الله ، ويرد عليه العاطس فيقول يهديكم الله ويُصلح بالكم . وإذ عطس الرجل وهو يقضى حاجته فليحمد الله فى سره ، ومنها مداراة من يخاف شره أى إذا ابتلى الإنسان بشر الناس فليتحمله اتقاء شره . قالت عائشة رضى الله عنها استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو) فلما دخل ألان له القول حتى ظننت أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له لما دخل قلت الذى قلت ثم ألنت له القول فقال (يا عائشة إن شر الناس عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه) .

ومن السنة أن يختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام ، أما العطف على اليتيم فمن أهم القربات إلى الله تعالى قال عليه السلام خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يُساء اليه) .

ومن السنة قضاء حوائج المسلمين والسعى فيها بقدر المستطاع . ومنها إعانة المظلوم قال عليه السلام (من فرَّج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة) وقال (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فقيل كيف ينصره ظالماً قال (يمنعه من الظلم) ومنها أن يعود المريض ويخفف الجلسة وبدعو له بالعافية أما المريض فينبغى أن لا يشكو مرضه لزواره .

ومنها تشييع الجنازة لقضاء حق المسلمين وللاعتبار بجلال الموت وابتغاء الأجر ، قال علية السلام (من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيرطان) (ق) وفى الخبر القيراط مثل جبل أحُدُ . وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث والمشى بسكينة وملاحظة الميت والتفكر فى أهوال الموت والاستعداد له .

ومن السنة حسن الجوار قال عليه السلام (الجيران ثلاثة جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك) (ق) فانظر كيف

أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار قال عليه السلام (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) (ق) ويكفى دليل على غضب الله تعالى على من يؤذى جاره قوله عليه السلام فى حق المرأة التى كانت تصلى وتصوم وتؤذى جيرانها (هى فى النار) وجملة حقوق الجار هو أن يعوده فى مرضه ويشاركه فى حالتى الفرح والحزن ويصفح عن زلاته ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، وإذا سمع أحداً يتكلم فى حقه يدافع عنه ، ويرشده إلى مافيه صلاح دينه ودنياه ، وأن يكون معه على أعدائه وإذا طلب منه متاعاً يعطيه له ، ولا يضع شيئاً يضايقه فى طريق بيته ، وإذا كان الجار فقيراً فلا تنسى أن تجود عليه بشىء مما يحتاجه ، وإذا طبخت فاعطه منه ، قال عليه السلام (إذا طبخت قدراً فأكثر ماءها ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك فاغرف لهم منها)(م) ومن السنة صلة الرحم والتودد للأقارب ، قال عليه السلام (من سره أن يُمدّ له فى عمره ويوسع له فى رزقه فليتق الله وليصل رحمه) :

ومنها بر الوالدين والإحسان بهما وقد جاء بذلك القرآن ، أما السنة فقد ورد فيها كثير ، منها قوله عليه السلام لرجل جاءه فقال انى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه فقال عليه السلام (هل بقى من والديك أحد) قال أمى قال (قاتل الله فى برها فإذا قبلت ذلك فأنت حاج ومعتمر) وليس البر فى حياتهما فقط فالبر فى حياتهما وبعد موتهما ، وقال مالك ابن ربيعة بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمه فقال يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما قال (نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام ضيفهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما) كذلك بر الوالد لولده . سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم من أبرّ قال (برّ والديك) فقال ليس لى والدان فقال عليه السلام (بر ولدك كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق) وقال عليه السلام (حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده) ومن السنن أن يودّع الانسان أهله وأصدقاءه عند السفر ، قال عليه السلام (إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوته فإن الله تعالى جاعل لهم فى دعائهم البركة) فإذا ركب الانسان الدابة أو غيرها من المركبات فليقل — بسم الله الله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى

العظيم ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، فإذا وصل المكان المقصود فليصل فيه ركعتين فذلك سنة .

ومن السنة أيضاً أن يتناوب الرفقاء الذين يبيتون خارج منازلهم الحراسة ، مخافة أن يصيبهم عدو أو يضرهم وحش إذا ناموا جميعا .

ومن السنة الرفق بالدابة فلا يحمّلها ما لا تطيق ولا يضربها فى وجهها ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة .

ومن السنة أن يحمل الرجل لأهل بيته شيئا من الطعام أو الفاكهة عند قدومه لأن الأعين تطلع إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به ولا يتم هذا إلا برؤية ما يحمله اليهم .

ومن السنة عدم سفر المرأة وحدها قال عليه السلام (لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا معها ذى محرم منها أو زوجها) وقال عليه السلام (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم منها) وفى رواية مسيرة يوم وفى أخرى مسيرة ليلة .

ومن السنة عدم استصحاب الكلاب والأجراس فى السفر وعدم وضع الجرس فى رقبة الإبل أو البغال أو الحمير وغيرها قال عليه السلام (لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس) (ق) وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر . ومن السنة عدم وضع الجلاجل فى أرجل الأطفال . ومن السنة عدم تعليق التمائم والخرز المعروف (بالحجاب) ونحوه لكى تدفع عنهم الآفات وهذا الاعتقاد جهل وضلالة إذ لا دافع إلا الله وحده .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجليس السوء قال عليه السلام (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة) (ق) (يحذيك) أى يعطيك : ومن السنة عدم الجلوس فى مكان رجل آخر ، قال عليه السلام (لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم

يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم) وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا قام له رجل من مجلسه لا يجلس فيه، وقال عليه السلام (إذا قام أحدكم من مجلس ثم رجع اليه فهو أحق به) ونهى صلى الله عليه وسلم عن الجلوس على الطرقات، فقال (إياكم والجلوس على الطرقات) قالوا مالنا بدّ إنما هى مجالسنا نتحدث فيها قال (فاذا أبيتم إلا المجالس فاعطوا الطريق حقها) قالوا وما حق الطريق قال (غض البصر وكف الأذى ورد السلام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر) (ق) ونهى عليه السلام عن النوم على سطح ليس له جدار ، وعن ركوب البحر حال اهتياجه، ومن السنة استقبال القبلة فى الجلوس .

ونهى عليه السلام عن الجلوس على المقابر ، ونهى عليه السلام عن كسر عظام الميت، ومن السنة الشفقة بسائر الحيوانات، قال عليه السلام (بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ خفه ثم أمسك بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له) قالوا يا رسول الله وإنا لنا فى البهائم أجراً قال (فى كل كبد رطبة أجر) (ق) .

ومن السنة قتل الحيات والعقارب حيث روى فى الخبر (خمس فواسق يُقتلنَ فى الحُرُم، وفى غير الحرم، الفارة والعقرب والحدأة والغراب والكلب العقور).

ومن السنة بل من أهم التعاليم الدينية التى أوصى بها النبى صلى الله عليه وسلم ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنهما أنه قال، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا بنىّ إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل) ثم قال (يا بنىّ وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ومن أحيانى كان معى فى الجنة) (قال الترمذى هذا حسن غريب) . هذا الحديث الذى أختم به هذا الباب واضح ولا شك أن دخول الجنة مع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم هو تمام نعمة الله على العبد وهو مطلب كل مؤمن ولا ينال هذا الفضل الكبير والشرف العظيم إلا من أحيا سنته صلى الله عليه وسلم واتبع تعاليمه ، قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

باب فى أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته

سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هو سيد ولد آدم عليه السلام بلاشك، وهو إمام النبيين وخطيبهم وشفيعهم يوم القيامة، بعثه الله تعالى كافة للناس بشيراً ونذيراً وهاديا إلى الدين ورحمة للعالمين . كان عليه الصلاة والسلام وسيم الطلعة رَبْعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس ذا شعر ليس جعد ولا سبط شديد سواده مبسوطُ الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسعُ العينين أدعجهما، تشوب بياضَهما فى الجوانب حمرةٌ خفيفة وتزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك ، مستوى الأنف دقيقة ، مفلج الأسنان، يرسل ذقنا كثة، عالى العنق جميلة، عريضُ الصدر، رحبُ الساحتين، أزهرُ اللون، شثنُ الكفين، والقدمين ، (أى غليظهما) يسير ملقياً جسمه إلى الأمام، مسرعُ الخطو ثابته ، على ملامحه سيمُ التفكير والتأمل، وفى نظرته سلطان الأمر الذى يخضع الناس لأمره وكان عليه الصلاة والسلام كثيرُ الضراعة ، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول فى دعائه (اللهم حسن خَلقى وخُلقى) وكان يقول (اللهم جنبنى منكرات الأخلاق) فاستجاب الله له وأدبه بالقرآن، فكان خلقه القرآن، فهو عليه السلام المقصود الأول بآداب القرآن وتهذيبه، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، قال عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ولما أكمل الله خلقه أثنى عليه بقوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقد أوصى أمته بالتخلق بها ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ، أما مكارم أخلاقه ومحاسنها إجمالا حسبما وردت به الأخبار، فكان عليه السلام أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرمٍ ، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يُعطيه وجاء الليل لم يرجع إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج اليه، لا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت عامه من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع جميع ذلك فى سبيل الله لا يسأل شيئاً إلا أعطاه وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله .

وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد، ويجيب دعوة العبد والحر،

ويقبل الهدية ولو جرعة لبن ويكافىء عليها، ويأكل منها ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ينفذ الحق وإن عاد عليه ذلك بالضرر أو على أصحابه. وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع وإن وجد عسلاً أكله وإن وجد لبناً بغير خبز اكتفى به؛ وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله، لم يشبع من خبز قمح ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً؛ وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز؛ ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس، أشد الناس تواضعاً وأسكنهم فى غير كبر، وأبلغهم فى غير تطويل؛ وأحسنهم بشراً لا يهوله شىء من أمور الدنيا؛ ويلبس ماوجد من المباح، وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر؛ يردف خلفه عبده أو غيره؛ يركب ماوجد، ركب الفرس والبغل والبعير والحمار وكان يمشى راجلا حافياً بلا رداء ولا عمامة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين؛ ويكرم أهل الفضل ويتودّد أهل الشرف بالبرّ لهم يصل ذوى رحمه لا يجفو على أحد يقبل معذرة المعتذر إليه، يضحك فى غير قهقهة، يرى اللعب المباح فلم ينكره يسابق أهله وترفع الأصوات عليه فيصبر وكان له نخل وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها، وكان له عبيد لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس، ولا يمضى له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته ولا يهاب ملكاً لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً ماشتم أحداً من المؤمنين إلا جعل لها كفارة ولا لعن امرأة ولا خادماً وما ضرب بيده إلا فى سبيل الله وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته وما عاب مضجعاً إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه ويمسك بيديه عليهما، وما رؤى مادا رجليه بين أصحابه، وكان أكثر جلوسه مستقبلا القبلة، وكان يكرم من يدخل عليه ويقدم له الوسادة التى تحته، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس. وكان لا يأكل الطعام الحار ويقول (إنه غير ذى بركة وإن الله لا يطعمنا ناراً فأبردوه، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالملح، وكان

أحب الفواكه إليه العنب، والبطيخ وكان يأكل البطيخ بالخبز ، وكان أكثر طعامه الماء والتمر ، وكان أحب الطعام إليه اللحم، وكان يأكل الثريد، وكان يحب القرع، ويأكل لحم الطير، ولا يصيده، وكان يحب من الشاة الذراع، والكتف، ومن التمر العجوة، ومن البقول القرع والرجلة، وكان يكره من اللحوم الكليتين والذكر والأنثيين والمثانة والغدد والحياء ، وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ، وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمها، وكان يلعق الصحفة بأصابعه وكان يلعق أصابعه بعد الأكل واحدة واحدة وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيداً ، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه ، وكان لا يسأل أهل بيته طعاماً، وكان ربما قام فأخذ ما يأكله أو يشربه بنفسه ، وكان أكثر لباسه البيض وكانت ثيابه مشمرة فوق الكعبين، ونهى عن سبل الأزار (الملابس) وقال عليه السلام (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامه) وكان له ثوبان للجمعة خاصة وربما صلى فى بيته فى ازار واحد ملتحفاً به ، وكان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها ، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه، وإذا نزعه أخرجه من مياسره وكان إذا لبس جديداً أعطى القديم للمسكين ، وكان له فراش محشو ليفاً ، وكانت له عباءة تفرش تحته طبقتين وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء، وبالجملة فكانت أفعاله كلها تواضعاً وأدباً صلى الله عليه وسلم .

أما معجزاته فمنها انشقاق القمر لما سألته قريش آية ، وأطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وولد المعز، وأطعم أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس فى يده ، وأطعم الجيش من تمر يسير ، ومنها نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب العسكر كلهم وكانوا عطاشا ، وتوضأوا من قدح صغير، وأهرق عليه السلام وضوءه فى عين تبوك ولا ماء فيها ومرة فى بئر الحديبية فجاءتا بالماء فشرب من تبوك أهل الجش وهم ألوف وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ، وأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان مقداره موضع بروك البعير فزودهم كلهم وبقى منه ، ورمى الجيش بقبضة تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن، وأبطل الله الكهانة ببعثه عليه السلام ، فعدمت، وحنّ له الجذع

الذى كان يخطب عليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ، وأخبر أن الحسن يصلح الله به بين طائفتين من المسلمين فكان ذلك . واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه فى الأرض واتبعه دخان فاستغاث فدعا له عليه السلام فانطلقت الفرس وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم فلم يروه ، وشكا إليه البعير وتذلل له بحضرة أصحابه ، ودعا شجرتين فأتتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا ، وكلمه الذراع المسموم الذى قدمته له اليهودية ، وأخبر ابنته فاطمة رضى الله عنها أنها أول أهل بيته لحاقاً به فكان كذلك ، ومسح ضرع شاة لا لبن فيها فدرّت وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه ، وتفل فى عين على رضى الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته ، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وقل زاد الجيش فدعا بجميع ما بقى فكان شىء يسير جداً فدعا فيه بالبركة ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء فى المعسكر إلا ملىء ، إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته عليه السلام — أما معجزة القرآن وهى المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق إلى ماشاء الله تعالى وليس لنبى معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب إذ ذاك مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها يتباهون وفيها يتنافسون ، وكان عليه السلام ينادى بينهم أن يأتوا بمثله أو بعَشْر سور مثله أو بسورة من مثله إن شكوا فيه وقال لهم (قل لأن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا وانصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذريتهم للسبى ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا فى جزالته وحسنه وبلاغته ، ثم انتشر ذلك بعده فى أقطار العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر وقد مضى اليوم تسعة وستين وثلاثمائة وألف سنة فلم يقدر أحد على معارضته ، فما أعظم غباوة من ينظر فى أحواله عليه السلام ، ثم فى أقواله ثم فى أفعاله ، ثم فى أخلاقه ثم فى معجزاته ثم فى استمرار شرعه إلى الآن ثم فى انتشاره فى أقطار العالم ثم فى إذعان ملوك الأرض له فى عصره وبعد عصره ، ثم يتمادى فى عدم تصديقه والإيمان بما جاء به عليه السلام ، وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه — نسأل

الله تعالى لنا ولكل من طالع هذا أو سمعه التوفيق للاقتداء به فى الأخلاق والأقوال والأفعال وجميع الأحوال بمنّه وسعة جوده إنه نعم السميع ونعم المجيب .

باب فى فضيلة العلم والتفقه فى الدين

قال عليه الصلاة والسلام (من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين ويلهمه رشده) (طب) وقال (العلماء ورثة الأنبياء (د) وقال (فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى) (ت) فانظر كيف جعل عليه السلام العلم فى درجة النبوة ، وقيل يارسول الله أى الأعمال أفضل فقال (العلم بالله عز وجل) فقيل أى العلم تريد قال (العلم بالله سبحانه) فقيل له نسأل عن العمل وتجيب على العلم، فقال (إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله) (ابن عبد البر) ومن هذا يتبين أنه لابد للمسلم من تعلم العلم الذى يصحح به عبادته ، لأن العبادة الصحيحة هى الصادرة عن علم بالمعبود عز وجل — واعلم أن غذاء القلب العلم والحكمة، وبهما حياته، كما أن غذاء الجسم الطعام، والإنسان الذى يفقد العلم فقلبه مريض وموته محقق ولكنه لايشعر به لأن حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه بمرض قلبه ، فاذا نزل به الموت وفرغ من أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما ، ثم لا ينفعه ذلك، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء، فهو يوم تفيق فيه الناس فإنهم اليوم نيام . وقال عليه السلام فى طلب العلم (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة) (م) وقال (العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة السائل والعالم والمستمع والمحب له) (د) وقال عليه السلام (من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحي به الاسلام فبينه وبين الأنبياء درجة واحدة) (د) .

باب فى فضيلة التعليم

وذم كتمان العلم

قال عليه الصلاة والسلام (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير) (ق) وقال

عليه السلام لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم) (ق) وقال فى حق من يكتم العلم (من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) (ق) وقال (ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا تكتموه) (حل).

باب فى بيان العلم الذى هو فرض عين وما هو فرض كفاية

قال عليه السلام (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (ق) واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم، ووردت فيه أقاويل كثيرة ، نذكر منها ما قاله أبو طالب المكى رحمه الله . قال هو العلم بما تضمنه الحديث الذى فيه مبانى الاسلام وهو قوله عليه السلام (بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله) الحديث لأن الواجب على العبد هى الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها ، والذى ينبغى أن يقطع به العبد هو أن العلم ينقسم إلى قسمين علم معاملة ، وعلم مكاشفة، والذى يهمنا الآن هو علم المعاملة فهو الذى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها وهى ثلاثة — اعتقاد وفعل وترك . فأول مايجب على الصبى عقب البلوغ مباشرة تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما ، وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويصدق بذلك ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس — أما الفعل فهو القيام بفرائض العبادات ، وهى الصلاة بعد تعلم الطهارة ومعرفة شروط إقامتها وما تصح به وما يفسدها ، والصوم وهو أن يعلم أن شهر رمضان واجب الصوم ومدته من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ومعرفة ما يصححه وما يفسده، والزكاة فإن كان له مال أو تجدد له مال وجب عليه أن يعلم ما يلزمه من الزكاة فى كل من الأنواع ، والحج وهو أن يعلم أنه فرض على كل من ملك الزاد والراحلة ويتعلم كيفية الحج وأركانه — وأما الترك فتعليمه بحسب حال الشخص ، إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم مايحرم من النظر والذى يجب تعلمه هو ما نهى الشرع عنه فيتركه أما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة ، وجب عليه تعلم ما يتوصل به لإزالة الشك فوراً فالعلم الذى هو فرض عين هو علم العمل المشهور الوجوب على المسلمين من حيث

معرفة العبادات وآدائها وما أمر به الشرع وما نهى عنه ؛ والإيمان بكل ما جاء به الكتاب والسنة والله أعلم .

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى نظام أمور الدنيا ؛ فالطب ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ؛ والحساب ضرورى فى المعاملات وحساب الوصايا والمواريث وغيرهما، فإذا قام به واحد فى البلدة كفى وسقط الفرض عن الباقين ؛ وكذا أحوال الصناعات فهى من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة والخياطة وغيرها — أما التعمق فى العلوم فيعد فضيلة لا فريضة .

باب فى بيان العلوم الشرعية

أما العلوم الشرعية فمحمودة كلها ؛ وهى تنقسم إلى أصول وفروع ومقدمات ومتممات — فالأصول أربعة كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة : أما الفروع فهى ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبّه لها العقول ، كما فُهم من قوله عليه السلام (لا يقضى القاضى وهو غضبان) (ق) إنه لا يقضى أيضاً إذا كان حاقباً أو حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض — أما المقدمات وهى التى تجرى مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ، فإنهما آلة لفهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ولكن يلزم تعلمهما بسبب الشرع إذ جاءت الشريعة بلغة العرب ؛ ومن الآلات علم الخط أيضاً وهو ليس ضرورياً ؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً — أما المتممات فهى فى علم القرآن ؛ وتنقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ، وإلى ما يتعلق بأحكامه لمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر ؛ وأما المتممات فى الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأنسابهم وأسمائهم وأسماء الصحابة وصفاتهم؛ فهذه هى العلوم الشرعية وكلها محمودة وكلها من فروض الكفاية والله أعلم .

باب فى بيان المحمود من العلوم والمذموم منها

العلوم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام — قسم مذموم قليله وكثيره ، وقسم محمود قليله وكثيره، وقسم يحمدفيه مقدار الكفاية فقط ولا يحمدالزيادة عليه — فالقسم المذموم قليله وكثيره ، هو مالافائدة فيه فى دين ولا دنيا كعلم السحر والطلسمات وعلم النجوم والشعر المطلق ، وعلى الجملة فإنشادالشعر ونظمه ليس بحرام إذالم يكن فيه كلام مستكره أوكذب . وأما القسم المحمود قليله وكثيره ؛ فهذا هو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا العلم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه الى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذى لايدرك غوره ، وإنما يحوم الناس على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر الله تعالى لهم وما خاضه الا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم بحسب اختلاف درجاتهم — وأما العلوم التى لايحمد منها إلا مقدار معلوم ، فهى العلوم التى ذكرناها فى فروض الكفاية فى الباب الأسبق .

باب فى بيان علامات علماء السوء وعلماء الآخرة وآفات العلم

علماء السوء هم علماء الدنيا الذين لم يعملوا بعلمهم وقصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها، وقد ورد فيهم تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة ، قال عليه الصلاة والسلام (لايكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا) (ق) .

وقال (من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً) (الديلمى) فهذا وغيره يدل على عظم خطر العلم ،فالعالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وقال فى حق العالم الفاجر قال أسامة بن زيد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه) (ق) وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) لأنهم جحدوا بعد العلم

وقال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع .

أما الفائزون المقربون فهم علماء الآخرة ولهم علامات منها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يُدرك حقارةَ الدنيا وخستها وكدورتها وعظمَ الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها . قال عمر رضى الله عنه إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب .

وقال الرسول عليه السلام (من طلب علما مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) (د) وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل فى علماء الدنيا (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا) وقال تعالى فى علماء الآخرة (وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم) . ومنها أن لا يخالف قوله فعله ، بل لا يأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به، قال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقال عز وجل (كبُرَ مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقال عليه السلام (هلاك أمتى عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء) (الدارمى) ومنها أن يكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة المرغب فى الطاعات مجتنباً للعلوم التى يقل نفعها، ويكثر فيها الجدال والقيل والقال .

باب فى تعريف علم التصوف وأحوال أهله

اعلم رحمك الله تعالى أن علم التصوف ويعبر عنه بعلم الحقيقة ، هو لباب الشريعة ومنهاج الطريقة ، ومنه تشرق أنوار الحقيقة فى التوجه إلى الله تعالى — فلا تصوف إلا بفقه اذ لاتعرف أحكام الله تعالى الا منه . ولا فقه الا بتصوف إذ لاعمل إلا بصدق توجه ، ولا فقه ولا تصوف الا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما بدونه . فعلم الشريعة يقال له علم الظاهر ، وعلم الحقيقة يقال له علم الباطن ، وقد يتشرع الإنسان ولم يتحقق، ولكن لا يكون متحققا إلا إذا كان متشرعا — وأساس علم التصوف هو

النفوس والقلوب والأرواح لأنه يعمل على تهذيبها وشفائها وتصفيتها ، وواضعه هو النبي صلى الله عليه وسلم ، علمه الله له بالوحى ، فنزل جبريل عليه السلام أولا بالشريعة فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة ، نخص بها بعضاً دون بعض ، فأول من تكلم به سيدنا على كرم الله وجهه ، وأخذه عنه الحسن البصرى وهكذا ، فهوباق ما شاء الله . وهو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين ، وأما حكم الشارع فيه فقد قال الغزالى رحمه الله أنه فرض عين ، إذ لايخلو أحد من عيب ، أو قلب من مرض ، إلا الأنبياء عليهم السلام ، وقال الشاذلى رحمه الله ، من لم يغلغل فى علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لايشعر — لأن دقائق هذا العلم هى التى تصحح عبادة العابد وتحفظ عقيدته من الزيغ وتطهر قلبه من الأمراض حتى يلقى الله وهو سليم ، وأما موضوعاته فهى الإخلاص لله فى القول والعمل ، والصدق فى النية والعزم والتوكل فى كل حركة وسكون ، والزهد فى متاع الدنيا الفانية ، والورع عن الشبهات والرضى بالقضاء والقدر ، والتسليم فى كل الأمور ، والمحبة والشوق والفناء عن الأغيار ، والبقاء بالواحد القهار ، وغير ذلك من الصفات المحمودة - وعلى الجملة فهذا العلم هو أفضل العلوم ، لأن حقيقته البحث عن معرفة الذات العلية وهى أفضل على الإطلاق ، فالعلم الذى يتعلق بها يكون أفضل على الإطلاق أيضاً ، فهو دال بأوله على تمام خشية الله ، وبوسطه على صدق معاملته ، وبآخره على حقيقة معرفته والإنقطاع اليه تعالى . وأما نسبته من العلوم الشرعية فهو كلى لها وشرط فيها ، إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى ، وقد اختلف فى اشتقاق اسمه على أقوال كثيرة نورد منها قولين ، فقيل أنه مشتق من الصفاء لأن الصوفى قد صفا قلبه وتهذيت نفسه ، قال أبو الفتح البوستى — صافى فصوفى حتى سمى الصوفى - القول الثانى ، إنه منقول من صفة المسجد النبوى التى كانت منزلا لأهل الصفة ، وهم القوم الذين تركوا الدنيا لأهلها وانقطعوا للعبادة ، فخصص لهم مكان فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم يتعبدون ويذكرون الله فيه ، فالصوفى تابع لهم فيما أثبت الله لهم من الوصف ، حيث قال (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وهذا هو الأصل الذى يرجع اليه كل قول فى الصوفى - أمافائدته ، فتطهير

القلوب وتهذيب النفوس والسير إلى علام الغيوب ؛ وهو ماحرره الغزالى رحمه الله فى الإحياء بياناً وشرحا بتوسع وإسهاب وهو ما عنيت بتلخيصه واستخراج زبده فى كتابى هذا — واعلم أن التصوف مبنى على ثلاث خصال — التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التدبير والاختيار — والمقصود بلفظ الفقر هو فقر الحال مع الله تعالى والافتقار اليه دائما فى الحول والقوة ؛ لافقر المال وضيق ذات اليد كما يتوهم الناس كلا ؛ فليس من التصوف أن تلبس الصوف وتأكل الشعير وتنام على المزابل وتترك الدنيا وتهيم على وجهك ؛ فيمكن لصاحب المال أن يكون متصوفا متى كانت الدنيا فى يده لا فى قلبه ؛ فالتصوف حينئذ هو الفقر الباطنى لا الفقر الظاهرى والله أعلم ،

أما حال الصوفية فإنهم يميلون إلى العلوم الالهامية دون العلوم التعليمية ؛ ولذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة كعلماء الشريعة ؛ بل قالوا الطريق هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات البشرية المرذولة وقطع العلائق الدنيوية ، والاقبال بكل الهمة على الله تعالى ؛ ومتى حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل بتنويره بأنوار العلم ؛ قال تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقال عز وجل (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) من الاشكالات والشبه (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أى يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ؛ وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) قيل نوراً يفرقون به بين الحق والباطل ويخرجون به من الشبهات ؛ فإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فيه وانشرح الصدر وانكشف عن القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد حينئذ إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الارادة الصادقة ، فالأنبياء عليهم السلام والأولياء رضوان الله عليهم قد انكشفت لهم حقائق الأمور وفاض على صدورهم النور ؛ لا بالتعلم والدراسة بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والاقبال بالكلية على الله تعالى ، كما هو واضح من أقوالهم وآثارهم التى أوردناها فى أبواب هذا الكتاب ، وحقاً من كان لله كان الله له .

هذه كلمة وجيزة فى تعريف علم التصوف وحال الصوفية أسوقها للمتلهف اليها وهناك من عجائب هذا العلم وأحوال أهله الموجبة للدهشة مالم يتسع لشرحها مثل هذا الوجيز .

باب فى معنى القلب والنفس والروح والعقل معاً

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة يقل من يحيط بها وباختلاف معانيها وحدودها وأوصافها ونحن هنا نشرح معناها بما يتفق مع غرضنا مع ذكر مايتعلق بها وما يصيبها من الأمراض والآفات ، وكيفية علاجها متوخين فى ذلك أقصر الطرق وأقرب المعانى ليسهل الفهم والله المستعان .

باب فى معنى القلب

يطلق هذا الاسم على معنيين — الاول — هو قطعة لحم مودعة فى الجانب الأيسر من الصدر على شكل الصنوبر ، وهو لحم مخصوص فى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود قيل هو منبع الروح ومعدنه . وهذا القلب موجود فى الإنسان وفى البهائم أيضاً — المعنى الثانى — هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ؛ وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان فهى موضع الإدراك والعلم والمعرفة ؛ وبها يخاطب ويطالب وينعم ويعاقب ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى معرفة وجه علاقة هذه اللطيفة بهذا القلب الجسمانى ؛ فإنها تشبه تعلق الأعراض بالأجسام ؛ أو الأوصاف بالموصوفات ؛ أو المستعمل بالآلة . والذى نقصده فى كتابنا هذا من لفظ القلب هو هذه اللطيفة الربانية ؛ وهى التى سنذكر أوصافها وأحوالها ؛ بل هى أصل هذا الكتاب وأساسه . أما قطعة اللحم فلا اعتداد بها ولا هى من أغراضنا .

إعلم هدانا وهداك الله أن هذا القلب هو الشرف الذى شرف به الإنسان وفضل به على أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه وتعالى ، التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره ، وفى الآخرة عدّته وذخره : فاستعداد الإنسان لمعرفة هذا إنما هو بقلبه لا بجارحة من جوارحه . فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو

العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ، والجوارح عبارة عن أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة . فالقلب هو المقبول عند الله إذا صار مع الله وهو المحجوب عن الله إذا صار بعيداً عن الله فهو الذى يسعد بالقرب من الله ويفلح إذا زكيناه وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسناه وهو المطيع لله تعالى فينشر على الجوارح من العبادات أنواره وهو العاصى المتمرد على الله تعالى فتسرى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره فإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى إذا جهله الانسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه فمن جهل قلبه فهو لغيره أجهل فحينئذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم لأنه قد حيل بينهم وبين معرفة حقيقة قلوبهم فإن الله يحول بين المرء وقلبه — فمن لم يعرف قلبه ليراقبه ويترصد أحواله فهو ممن قال الله تعالى فى حقهم (بل طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) — فمعرفة القلب والعلم بحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق الموحدين — وسيأتى بيان حالاته وأمراضه وعلاجه إن شاء الله تعالى .

باب فى معنى النفس

النفس أيضاً لها معان كثيرة ويخصنا فى غرضنا هذا معنيان — الأول — أنه يراد بالنفس المعنى الجامع لقوتى الغضب والشهوة فى الانسان وعلى ذلك فلا بد من مجاهدة النفس وكسرها وتذليلها لأنها عدو الانسان المبين كما فى الخبر — والمعنى الثانى — هى اللطيفة الربانية الروحانية التى ذكرناها فى معانى القلب ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت أوامر الطاعات ولازمها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة وقد قال الله تعالى فى شأنها (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) أما إذا لم تطمئن بالطاعات بل فقط صارت مدافعة للشهوات ومعترضة عليها فإنها تسمى النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه فإذا أذعنت لهواها وأطاعت دواعى

الشيطان وسلكت سبيل شهواتها فهى الأمارة بالسوء وهى بعيدة عن رحمة الله تعالى لأنها من حزب الشيطان — والنفس فى حالاتها الثلاث يجب علاجها ولا ينبغى تركها مهملة يلعب بها الشيطان وهى تلعب بصاحبها وتودى به إلى طريق الهلاك — وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان طرق مجاهدتها ومحاسبتها وما يصلح من شأنها .

باب فى معنى الروح

قال الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) — وقد ذكر الامام الغزالى رحمة الله عليه أنها هى اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الانسان ولكننا نمسك عن الكلام فى حقيقتها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر شيئاً عنها إكتفاء بجواب الله تعالى له فى الآية السابقة وهى أمر الله العجيب الذى حير العقول درك معناه فسبحان علام الغيوب .

باب فى معنى العقل

للعقل معان مختلفة ويخصنا منها معنيان — الأول — أنه قد يراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب — المعنى الثانى — أنه قد يراد به الشىء المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة الربانية التى سبق شرحها

فإذاً قد علم لنا أن لهذه الأسماء الأربعة — القلب والنفس والروح والعقل — معان منها القلب الجسمانى والنفس الشهوانية أو الغضبية والروح وهو الأمر الربانى والعقل وهو العلوم ويطلق عليها جميعها معنى خامس وهو اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الانسان فالألفاظ أربعة والمعانى خمسة ومتى ذكرت هذه الأسماء فى القرآن والسنة فيراد بها اللطيفة الربانية كما تقدم .

باب فى جنود القلب

لله سبحانه وتعالى فى القلوب والأرواح وغيرهما من العوالم جنود مجنَّدة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا الله تعالى . قال عز وجل (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ولشرح بعضها وهو الذى يتعلق بغرضنا نقول — القلب له نوعان

من الجنود نوع يُرى بالأبصار ونوع يرى بالبصائر — فأما جنوده التى ترى بالأبصار فهى اليد والرِّجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرية فان جميعها خدام للقلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافاً ولاعليه تمرداً — فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . ولما كان القلب لم يخلق إلا للسفر إلى الخالق سبحانه وتعالى وقطع المنازل لِلقائه وكان محتاجاً فى سفره هذا إلى المركب والزّاد الذى يوصِّله خلق الله له البدن بمثابة المركب وجعل زاده العلم والتقوى قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقال عز وجل (وتزوَّدوا فان خير الزاد التقوى) . ولما كانت الدنيا هى المنزل الأدنى كان لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأعلى فان الدنيا مزرعة الآخرة فيها العمل وهناك الأجر . أما حكمة خلق الأعضاء وما أودعه الله فى الحواس من المزايا فمما يعجز عن فهمه عقول البشر . ولكننا نقول إن جنود القلب الظاهرة تحصرها ثلاثة أصناف — صنف باعث إلى جلب النافع اللذيذ كالشهوات أو إلى دفع الضار ويعبر عنه بالإرادة — وصنف يحرك الأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عنه بالقدرة — والصنف الثالث هو المدرك المتعرف لهذه الأشياء وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وغيرها ويعبر عنه بالإدراك — وقد يضعف القلب أمام جند الشهوات وينقاد له انقياداً تاماً فيهلك وينقطع عن السفر الذى يوصله إلى سعادة الأبد — وأما جنوده التى ترى بالبصائر فهى العلم والحكمة والتفكير وكان الواجب على القلب أن يتخذ من هذه الجنود قوة تقمع جنود الشهوة وتصدها عن القلب لأنه لو ترك الاستعانة بها وتسلط عليه جند الشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً ويا للأسف هذه حالة أكثر الخلق فى زماننا فإن قلوبهم أصبحت خاضعة لسلطان الشهوات وأسيرة لها .

باب فى سرعة تقلب القلب

إعلم أن القلب هدف يصاب على الدوام من كل جانب . فان نزل به الشيطان

ودعاة إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه فلا يكون قط مهملا وإليه الإشارة بقوله تعالى (ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم) ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على صنع الله تعالى فى القلب وعجائب تقليبه كان يحلف به فيقول (لا ومقلّب القلوب) وكان كثيراً مايدعو بقوله (اللهم مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك) قالوا أوتخاف يارسول الله قال (ومايؤمننى والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء) والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد فيهما ثلاثة أصناف — القلب الأول هو القلب السليم الذى عُمر بالتقوى وتطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير — فعند ماينصرف العقل إلى التفكر فيما خطرله يعرف بنور البصيرة أنه خير فيحكم بفعله ويدعو القلب إلى العمل به فيصبح هذا القلب مستقراً لملك الهداية ويتيسر الأمر عليه لفعل الخيرات وإليه الإشارة بقوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) وفى مثل هذا القلب يشرق نور الإيمان حتى لايخفى فيه الشرك الخفىّ ولا يدخل عليه شىء من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غروراً فلا يلتفت القلب إليه لأنه قد تطهر من المعاصى وأصبح معموراً بالعبادات مطمئناً لذكر الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) — القلب الثانى — هو القلب المريض المشحون بالهوى المدنس بالأخلاق المذمومة قد فتحت فيه أبواب الشياطين وسُدّت عنه أبواب الملائكة . فعند مايخطر خاطر الهوى فى القلب ينشرح الصدر به ولا يقدر على التعقل والاستبصار فلو وعظه واعظ وأسمعه مافيه نجاته عمى عن الفهم وصمّ عن السمع وهاجت الشهوة وتحركت الجوارح بفعل المعصية وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا) — القلب الثالث — قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحق خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر ويقف العقل فى جانب خاطر الخير ويقبّح فعل النفس فلايزال القلب يتردّد بين جند الشر وجند الخير إلى أن يغلب عليه ماهو أولى به . فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع

الرحمن أى بين تجاذب هذين الجندين — واعلم أن للطاعات والمعاصى علامات يتعرف بها أرباب القلوب على سابق القضاء فمن خُلق للجنة يسَّرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى وسلط عليه أقران السوء وقال له الشيطان (إن الله غفور رحيم) وأن العمر طويل (يَعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) . فليحذر العبد فى كل لحظة غرور الشيطان ويجهد نفسه فى مخالفته حتى تكون الخيرات دَيْدَنه .

باب فى بيان أمراض القلب وعلاجه

إعلم أن سلامة القلب لا تتم إلا بعلاج أمراضه وعلاجها استعماله فيما خلق له . وما خلق إلا للعلم وعبادة الله تعالى ومحبته والتلذّذ بذكره وتفضيل ذلك على كل شهوة ، هذه هى خاصية القلب وحكمة العقل الذى وهبه الله للآدمى ليتميز به عن البهائم لأنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والنظر وغيره فان البهائم فى ذلك أقوى منه . إنما تميز الانسان بمعرفة الأشياء ومعرفة موجدها ومخترعها وهو الله عزّ وجلّ . فلو عرف الإنسان كل شىء ولم يعرف الله سبحانه وتعالى فهو جاهل لم يعرف شيئاً . وعلامة المعرفة المحبة وعلامة المحبة أن لايفضل عليه الدنيا ولا شيئاً من محبوباتها . وعلى ذلك فكل إنسان عنده شىء فى الدنيا أحب إليه من عبادة الله تعالى فقلبه مريض . ومرض القلب قد لايعرفه صاحبه وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه مخالفة الشهوات وهو يضاهى نزع الروح من الجسد . فإن وجد الانسان من نفسه قوة الصبر على ذلك لم يجد طبيباً ماهراً يعالجه لأن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض إلا القليل . فالطبيب فى زماننا مريض قلما يلتفت إلى علاج نفسه ولذلك صار الداء عضالا والمرض مزمناً وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها مراءات وهذه علامات الأمراض .

أما طريقة العلاج فهو أن يعالج كل مرض بضده ، فلو كان المرض البخل مثلا فعلاجه بذل المال وإنفاقه فى سبيل البرّ والخيرات ولكن بغير تبذير . فعلى الإنسان أن يعالج نفسه بنفسه بما وهبه الله إياه من العقل والتميز حتى لا يكون له علاقة

بالدنيا إلا ما كان ضرورياً وبذلك ترتحل النفس عن الشهوات وتصبح غير ملتفتة إلى شيء فى الدنيا ولا متشوقة إلى متاعها فترجع إلى ربها مطمئنة راضية داخلة فى زمرة عباد الله المقربين . فكل من أراد النجاة سعى إليه ما استطاع ، ولا نجاة إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا من القلب السليم ، فوجب على العبد أن يفتش قلبه ويشتغل بعلاج كل مرض فيه على التوالى . واعلم أن رحمة الله مبذولة للعباد بحكم الجود والكرم منه تعالى ولكن لا تظهر إلا فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمته والتعرض لا يكون إلا بعلاج أمراض القلب وتطهيره من الخبث الحاصل من الأخلاق المذمومة وتحليته بالأخلاق المحمودة لأن القلوب كالأوانى ما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله . قال عليه السلام (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتت فى قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر صُقلت وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه) فذلك هو الرّان الذى ذكره الله تعالى فى قوله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (ق) . ومن هذا يتبين أن خاصية القلب هو العلم وبصفاته وأفعاله ففيه كمال الإنسان وفيه سعادته .

باب فى بيان مداخل الشيطان للقلب

الشيطان له أبواب كثيرة يدخل منها إلى قلب العبد ولكننا نشير إلى بعض الأبواب العظيمة التى تجرى فيها جنود الشياطين . فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة لأن الغضب غول العقل فاذا غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة . ومن مداخله العظيمة الحسد والحرص فقد روى أن إبليس قال لنوح عليه السلام . بالحسدُ لعنتُ وطردتُ وجعلتُ شيطاناً رجيماً لأنى لم أسجد لآدم حسداً . وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتى منه بالحرص بأن أغويته ليأكل منها فأكل . ومن أبوابه العظيمة حب التزين من الأثاث والثياب والدواب والمركبات والمنازل فان الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب العبد باض فيه وفرخ فلا يدعوه إلى عمارة الدار حتى يدعوه إلى التزين بالثياب واقتناء الدواب والمركبات ويستخدمه فيها طول عمره إلى أن يُساق اليه أجله فيموت وهو متبع للشيطان فى

سبيل شهواته ويخشى عليه من سوء الخاتمة وهذا الحال هو الغالب فى زماننا – ومن أبوابه العظيمة العجلة وعدم التثبت فى الأمور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العجلة من الشيطان والتأنى من الله تعالى) . ومن أبوابه العظيمه حب الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال فإن كل ما زاد عن الحاجة فهو مستقر الشيطان لأن من ملك قوته بحسب حاجته يكون خالى القلب ولكن إذا وجد مائة دينار مثلا تولد فى قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فيطلب هذا ويطلب هذا لأنه عد لنفسه من الأغنياء فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم . ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فإنه يمنع من الانفاق والتصدّق ويدعو إلى الادّخار والكنز والتقتير وفى هذا عذاب أليم كما نطق به القرآن الكريم . ومن أبوابه العظيمة التزين لبعض من يدعون العلم بأنهم علماء فيحملون العوام على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته بأمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككوهم فى أصل الدين فيصير هذا المدعى بهذه العقائد كافرا أو مبتدعا وهو فرح مسرور بخروجه على الجماعة ظناً منه أنه قد اكتشف أمراً جديداً فى الدين ضارباً بأقوال العلماء والمحدثين عرض الحائط ونسى هذا المغرور أن قلبه مملوء بحب الدنيا جاداً فى تحصيل متاعها ساعياً وراء المال بكل الطرق وجهل أن القلب المملوء بحب الدنيا بعيد عن تقوى الله تعالى وعن نور العلم . فواجب على كل مسلم أن يتجنب أمثال هؤلاء ولا يقتدى بهم ولا يسمع لهم ومن أبوابه العظيمة سوء الظن بالخلق فيحكم الإنسان على أخيه بالشر وهو برىء فيتعرض لأخيه بالغيبة والظن وقد نهى رب العزة جلّ شأنه عن ذلك فقال تعالى (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وقد احترز رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك كما روى عن على بن حسين أن صفية بنت حيىّ زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنه عليه السلام كان معتكفاً بالمسجد قالت فأتيته فتحدثتُ عنده فلما أمسيتُ انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما عليه السلام وقال (إنها صفية بنت حيىّ) فقالا يا رسول الله ما نظن بك خيراً فقال (إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدّم من الجسد وإنى خشيت أن يدخلَ عليكما) (ق) فانظر كيف أشفق عليه السلام على دينهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة .

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولا يقدر أحد على استقصاء جميعها وفى هذا القدر ما ينبه العبد على غيره وعلى الجملة فليس فى الإنسان صفة مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

باب فى علاج القلب من مداخل الشيطان

علاج القلب من مداخل الشيطان هو سد هذه المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة . نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات فقط ولم يكن له استقرار . ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن الذكر لا يتمكن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة قال تعالى (إنَّ الذين اتَّقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مُبْصرون) خصص بذلك المتّقى . واعلم أن الشيطان مثله كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز فانه ينزجر بمجرد أن يسمع صوتك . أما إذا كان بين يديك خبز فإنه يهجم على الخبز ولا ينزجر بمجرد الكلام لشدة جوعه . فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر أما الشهوات إذا غلبت على القلب دُفعتْ الذكر إلى خارج القلب واستقر الشيطان فى سويدائه فقلوب المتقين خالية من الهوى والصفات المذمومة لذلك فإن الشيطان يطرقها لا للشهوات بل لخلوِّها من الذكر ساعة الغفلة فقط فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى (فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم) واليك ما روى عبد الرحمن بن أبى ليلى قال كان شيطان يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فأتاه جبريل عليه السلام فقال له قل (أعوذ بكلمات الله التّامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يَطْرق بخير يا رحمنُ) فقال ذلك فطفئت شعلته وخرَّ على وجهه فيجب علينا أن نتعوذ بهذا .

واعلم أن التطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام . قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان واضع

خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسى الله تعالى إلتقم قلبه) (ق) . ومعلوم أن منتهى ذكرك الصلاة فراقب قلبك حتى لا يجذبه الشيطان إلى الأسواق ويخطر ببالك جميع أمورك فى الوقت اليسير الذى قمت فيه بين يدى ربك فالصلاة محك القلوب فيه تظهر محاسنها ومساويها وهى لا تقبل من القلوب المشحونة بأمور الدنيا ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فداوم على الذكر يفر منك كما فر من عمر رضى الله عنه ـ وكما أن الله تعالى قال (أدعونى أستجب لكم) وأنت تدعوه ولا يستجاب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء ـ قيل لابراهيم بن أدهم ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء وهى : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه . وقرأتم القرآن ولم تعملوا به . وقلتم نحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته . وأكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها . وقلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها . وقلتم إن النار حق ولم تهربوا منها . وقلتم إن الشيطان عدوكم ووطأتموه على المعاصى . وقلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له . وإذا قمتم من النوم افترشتم عيوب الناس ونسيتم عيوبكم . ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . فشرط قبول الذكر والدعاء بهذه الخصال ـ واعلم أيها القارىء أن أعداءك من جنود الشيطان كثيرون . كما أن للشيطان جنوداً كذلك للانسان جنود هم الملائكة الموكلون به فاتخذ منهم أيها العبد دروعاً تتقى بها مكائد الشيطان . واعلم أن ذكر الله تعالى يذهب وساوس الشيطان لأن كل شىء يعالج بضده وجميع وساوس الشيطان ضدها ذكر الله وهو الاستعاذة والتبرّى عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

باب فى وساوس القلوب وما يؤاخذ به العبد وما يعفى عنه

إعلم أن هذا أمر غامض قد ورد فيه أخبار متعارضة وسنذكر ملخصها . قال رسول الله صلى الله عليه (عُفى عن أمّتى ما حدّثت به نفوسها مالم تتكلم به أو تعمل به أو تعمل به) وقال (إن الله تعالى يقول للحفظة إذا همّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها

فإن عَـملها فاكتبوها سيئة وإذا همّ بحسنة فلم يعمَـلْـها فاكتبوها حسنة فإن عمِـلها فاكتبوها عشرا) وفى لفظ آخر (من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له سبعمائه ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت) (ق) فكل هذا يدل على العفو عن وسوسة القلب حين يهم بالسيئة ولم يعملها . أما ما يدل على المؤاخذة قوله تعالى (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وقوله تعالى) (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) فدلّ على أن عمل القلب كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولـكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) هـذا ما دلت عليه الآيات . واعلم أن هناك أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجوارح . أولا : الخاطر وهو حديث النفس. ثانيا : الميل إلى العمل. ثالثاً : الاعتقاد . رابعاً : الهمّ . أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت اختيار العبد وهو عبارة عما يهجس فى النفس ولا يتْـبعه عزم على الفعل فالمؤاخذه به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى (إن تبـدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) جاء ناس من الصحابة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا ما لا نطيق إن أحدنا ليحدّث نفسه بما لا يُـحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك . فقال عليه السلام (لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا) فقالوا سمعنا وأطعنا فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فظهر بذلك أن كل ما لا يدخل تحت الواسع من أعمال القلب لا يؤاخذ به الإنسان . وكذلك الميل لأنه لا يدخل تحت الاختيار والواسع أيضاً وهما المرادان بقوله عليـــه السلام (عُـفى عن أمتى ما حدّثت به نفوسها) ــ والثالث وهو الاعتقاد أى حكم القلب بوجوب الفعل فهـذا إما أن يكون اضطراراً أو اختياراً . فالاختيارى منه وهو مايدخل تحت وسع العبد يؤاخذ عليه . اما الإضطرارى وهو ما لا يدخل تحت وسعه فلا يؤاخذ عليه فمثلا إذا نظر الإنسان إلى امرأة أجنبيـة اضطراراً لم يؤاخذ فإن أتبعها نظرة أخرى اختياراً أوخذ . الرابع الهم وهو العزم على الفعل ثم مؤاخذ به فإن ترك الفعل خوفاً من الله

تعالى وندم على عزمه كتبت له حسنة لأن مجرد العزم على الفعل يعد سيئة وامتناعه ومجاهدة نفسه فيه يعد حسنة . أما إذا ترك الفعل بعائق من العوائق أولأى عذر خلاف تقوى الله تعالى فإن العزم يكتب عليه سيئة تحتاج إلى تكفير لأنه كان اختيارياً من القلب والترك كان إجبارياً للعوائق التى اعترضته والله أعلم .

باب فى معنى تهذيب النفس

تهذيب النفس هو محو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الحميدة إليها مثال البدن فى علاجه فإنه إذا كان مريضاً يعالج بمحو العلل عنه وجلب الصحة إليه ، وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالتربية فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ولا تكمل إلا بتهذيبها وتغذيتها بالعلم وذلك أن تعرف رذائل الأعمال فتجتنبها وحسَنَها فتتبعها . ولكن لما كان علاج أمراض الأبدان لا يكون عادة إلا باستعمال ما هو مضادّ للمرض وفى هذه الحالة لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر بالكف عن المأكولات . فكذلك الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخّى ومرض الطمع بالقناعة ومرض الكبر بالتواضع وهكذا وفى هذه الحالة أيضاً لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لإقماع النفس عن شهواتها . وأولى بنا فى الواقع بل الواجب المحتوم علينا معالجة القلوب لأن مرض البدن يَخلص منه صاحبه بالموت أما مرض القلب يدوم بعد الموت ويشقى فيه صاحبه أبد الآباد . ولذلك وجب على الإنسان إذا كان جاهلا بحدود الشرع أن يتعلم أولا الطهارة والصلاة بأركانها المسنونة ويلزم ظواهر العبادات ويتجنب ارتكاب المعاصى فاذا تزين ظاهره بالعبادات وطهرت جوارحه من المعاصى ينظر بعد ذلك فى تهذيب نفسه .

باب فى مجاهدة النفس

قد علمت أن الطريق فى معالجة أمراض القلب هو ترك الشهوات وأن أصل أمراضه هو اتباع الشهوات — فمن أراد مجاهدة نفسه عليه أن يقف أولا على علل القلب وأمراضه وعلاجه ودوائه وذلك يحصل بنور العلم والإيمان فان عجز عن

تحصيل العلم فلا يفوته التصديق والإيمان ومتى آمن بالله واتقاه علمه الله . قال تعالى (واتقوا الله ويُعلمكُم الله) وليعلم أن درجة الإيمان والتقوى قبل درجة العلم فالمؤمن ناجٍ ولو بغير علم ولا ينجو العالم بغير إيمان وتقوى — فمخالفة الشهوات هو الطريق إلى الله عز وجل فمن صدق بذلك ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا وإذا اطلع بعين البصيرة عليه فهو من الذين أوتوا العلم وكلاً وعد الله الحسنى وما جاء فى القرآن والسنة عن وجوب مجاهدة النفس أكثر من أن يحصر قوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وقال عليه الصلاة والسلام (المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يُبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه) فبين أن النفس عدو يجب مجاهدته وقال عليه السلام لقوم قدموا من الجهاد (مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال (جهاد النفس) (ق) وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين . وقال الحسن ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك . فإذاً لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهى النفس عن الهوى ومجاهدتها فى مخالفة الشهوات ولا يتم ذلك إلا بالصبر أياماً قلائل فقد يتحمل الإنسان مشقة السفر والتعب ليتعلم صناعة يعيش بها مدة حياته وهى محدودة والأولى أن يتحمل مشقة مجاهدة نفسه ليحيى حياة لاحد لها . واعلم أن طريق المجاهدة يختلف باختلاف أحوال الناس والأصل فيه أن يترك كل واحد يفرح به من متاع الدنيا لأن الفرح بمتاع الدنيا والاطمئنان بها مهلك ومبعد عن طريق الحق تعالى ثم إذا ترك الفرح بالدنيا وجب عليه أن يعتزل الناس ويراقب قلبه ويذكر ذنوبه ولا يشتغل إلا بذكر الله تعالى ففى ذلك نجاته . روى عن عقبة بن عامر قال لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما النجاة قال (أملك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك) ومتى تم له ذلك وجب عليه أن يقطع أصل الشهوة متى ظهرت لأن لكل شيء أصلا ولا يزول إلا بقطع ذلك الأصل وليعمل على ذلك بقية عمره فليس للجهاد آخر إلا بالموت .

باب فى مراقبة النفس قبل العمل

حكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند ما يهم بفعل شىء أو يسعى بجوارحه فى شىء وكيفية المراقبة أن يتوقف عن العمل وعن السعى وينفكر أولا فى نتيجة ما سيفعله فإن كان لله تعالى يمضى فيه وإن كان لهوى فى نفسه يتّـقيه ويزجر القلب عن الفـكر فيه فإن الفـكرة الأولى إذا لم تدفع أو ورثت الرغبة والرغبة تورث العزم والعزم يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت . فينبغى حينئذ أن تُحسم مادة الشر من منبعه الأول فإن أشكل على العبد ذلك وعجز عن التفكر فى أموره بنفسه فعليه أن يستعين بنور العلماء العاملين وإرشاد أهل الدين وليفرَّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدَّ . فيجب أولا على من يرغب فى مراقبة نفسه أن يجعل همَّـه معرفة ما يضره وما ينفعه . قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يحبُّ البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات) فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بضر ناقد فى الشبهات . والواقع أن العلم بآفات النفوس وأمراض القلوب قد اندرس فى هذا الزمان لأن الناس قد تركوا الاشتغال بهذه العلوم واشتغلوا بعلوم دنيوية لا توصلهم لمعرفة حقيقة الأمر . فمن لم يوقف نفسه عن الإقدام على العمل متى حصل الاشتباه فى صوابه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متَّـبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك) وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى (ولا تقْـفُ ما ليس لك به علم) وكان الصديق يقول فى دعائه — اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابهاً على فأتبع الهوى — وقال عيسى عليـه السلام (الأمور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليه فكِـله إلى عالمه) .

أما المراقبة عند الشروع فى العمل فهو أن يقضى حق الله فيه ويحسن النيـة فى إتمـامه ويؤديه على أكمل مايمكنه ويلازم ذلك فى جميع أفعاله فإذا راقب نفسه فى جميع حركاته فقد قدر على عبادة الله تعالى — واعلم أن المراقبة ثلاثة أقسام المراقبة

فى الطاعات وهى الاخلاص فيها وإكمالها وحراستها من الآفات — والمراقبة فى فى المعاصى وهى التوبة والندم والاقلاع عنها — والمراقبة فى المباحات وهى مراعاة الآداب فيها بما يتفق مع الشرع — فعلى العبد أن يتفقد نفسه فى جميع أوقاته ويتلمس حدود الله تعالى فى جميع أعماله قال تعالى (ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه) وكل ذلك يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها فقد مضت سواء فى مشقة أو راحة وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد نفسه فيها ويراقب ربه فيها فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات الساعة الأولى وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى فى الأولى وهكذا — وليعتقد أنه دائما فى آخر أنفاسه حتى إذا جاءه الموت وهو على هذه الحالة كان لا يكرهه ولا يكره لقاء ربه وكان عاملا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يكون المؤمن طامعاً إلا فى ثلاث تزوّد لمعاد أو مرمّة لمعاش أو لذة فى غير مُحَرَّم) ولكن الناس فى زماننا هذا قد استهانوا بأمر الشرع فلا يراقبون أنفسهم ولا يحاسبونها بل تركوا أمر الدين وراءهم ظهرياً . قال ابن المقفع — الناس إلا قليلا ممن عصم الله مدخولون فى أمورهم فقائلهم باغ وسامعهم عيّاب وسائلهم متعنّت ومجيبهم متكلف وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف والأمين منهم غير محتفظ من إتيان الخيانه والصدوق غير محترز من حديث الكذب وذوى الدين غير متورع عن تقريظ الفجرة والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر . يتناقضون البناء ويتراقبون الدّول ويتعايبون بالهمز مولعون فى الرخاء بالتحاسد وفى الشدة بالتخاذل — نسأل الله تعالى السلامة .

باب فى محاسبة النفس بعد العمل ومعاقبتها

ينبغى أن يكون للعبد ساعة فى آخر النهار يحاسب فيها نفسه على جميع ما فعلته فى يومه كما يفعل التجار مع شركائهم فى آخر كل يوم حرصاً منهم على متاع الدنيا بأن ينظر فى رأس المال فإن وجد ربحاً شكر شريكه وإن وجد خسارة طالبه بتداركها فى المستقبل — فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل

وخسارته المعاصى وموسم هذه التجارة طول النهار فليحاسب نفسه على الفرائض أولا فان أداها على وجهها الأكمل شكر الله تعالى ورغب فى مثلها وإن ضيعها طالب نفسه بقضائها وإن أداها ناقصة كلفها بإكمالها بالنوافل وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها لتستوفى ما فرط منها كما يصنع التاجر بشريكه ، فاذا حاسب نفسه على كل ذلك فقد أدى الواجب عليه ثم ينبغى عليه أن يحاسبها على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة فاذا تم للعبد محاسبة نفسه وجب عليه معاقبتها على التقصير فى العبادة وعلى ارتكاب المعصية ويعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة فقد روى عن طلحة رضى الله عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً جيفة بالليل بطالة بالنهار . فبينما هو كذلك إذ بصر بالنبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (ألم يكن لك بُدٌّ من الذى صنعتَ أما لقد فُتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة) ثم قال لأصحابه (تزوّدوا من أخيكم) فجعل كل واحد يقول يا فلان ادع لى يا فلان أدع لى فقال النبى صل الله عليه وسلم (عُمَّهم) فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى عليه الصلاة والسلام يقول (اللهم سدده) فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم — والعجب أن الإنسان يعاقب ولده أو خادمه على سوء خلقه أو على تقصيره فى أمر من الأمور مخافة إن أهمله يخرج عن حدود الأدب ويطغى عليه ثم يهمل نفسه وهى أعظم عدوّ له وأشد طغيانا عليه من ولده وخادمه — — أما إذا استمرت النفس محبة للمعاصى فيجب أن يثقل عليها الأوراد ويشغلها بأنواع الطاعات ويتدارك مافرط منه فقد عاقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة مرة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وأخّر عبد الله بن عمر مرة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فى السماء فأعتق رقبتين وكان بعضهم يعاتب نفسه بصوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله — فان قلت إن نفسى لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة فما سبيل معالجتها . فطريق

معالجتها أن تسمعها ماورد فى أخبار الصالحين وأحوال الطائعين وما أعده الله تعالى لهم من النعيم فى الجنة وما يلاقيه العاصى من العذاب الأليم فى النار وقد ذكرنا فى أبواب هذا الكتاب ما لو تأمله المطلع وعمل به لكان كافياً لعلاج نفسه — وإن لم يكفك ذلك فابحث عن عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فصاحبه واقتد به فإن عز وجوده فى زمامنا فالأفضل المواظبة على سماع أخبار السابقين فلا شىء أنفع للناس وأشفى لها من سماع أخبارهم ومعرفة أحوالهم وما كانوا عليه رجالاً ونساء وقد انقطع تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم إلى ماشاءالله فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم وإليك بعض أحوال المجتهدين .

قال الحسن أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من التراب الذى تطأونه بأرجلكم فقد كان أحدهم يعيش العمر كله ما طوى له ثوباً ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً وأدركتهم عاملين بكتاب الله وسنة نبيهم إذا أتى الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا على شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . وقال أبو الدرداء لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر والسجود لله فى جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الحديث كما ينتقى أطايب التمر .

وكان أبو مسلم الخولانى قد علق صوتاً فى مسجد بيته يخوف به نفسه ويقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . هذا قليل من كثير من أعمال الرجال الصالحين المجتهدين وسنذكر شيئاً من أحوال بعض النساء المجتهدات أيضاً حتى تقارن بين نفسك وبينهن فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت صلاة العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك

ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأعزى . وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحته لما وقع فى نفسى من جودك وكرمك . وقال عبد الله بن الحسن كانت لى جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فاذا هى ساجدة وهى تقول بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك . فقالت لا يامولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام . وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يابريرة كيف أصبحت قالت أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى نُدعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعينىَّ عند الله خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا . وإن كان لها عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت عنا فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه . وقال أبو سليمان الدارانى بت ليلة عند رابعة العدوية رحمها الله فقامت إلى محراب لها تصلى وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ماجزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه نصوم له غداً وكانت كثيرة البكاء والحزن وإذا سمعت ذكر النار بكت وغشى عليها زماناً وكانت ترد ما أعطاه الناس لها وتقول مالى حاجة بالدنيا . وغيرهن كثيرات وقد اكتفينا بما ذكرناه من أخبار الرجال وأحوال النساء فعليك أيها العبد إن كنت ممن يراقبون أنفسهم ويحاسبونها أن تطالع مثل هذه الأخبار فى كتب الصالحين لينبعث نشاطك ويقوى عندك الميل للعبادة ويزداد عندك الإجتهاد حتى تساوى امرأة يوم القيامة . أفلا تستحى أن تكون النساء فى درجات الجنة وأنت فى درك جهنم معذب ليست هذه شهامة عربية ولا إدراك عقول بشرية — إياك ياأخى أن تنظر إلى أبناء هذا العصر وإياك أن تقول إن الناس قد أصبحوا عن

الدين غافلين وعن العبادة متقاعدين وهل أنا إلا واحداً منهم فإذا فعلت ذلك خسرت وهلكت مع الهالكين ولو كانوا أهل عصرك أجمعين فهل نسيت أن الجبار العظيم بعد بعث الرسل لا يبالى إذا هلك العالم وأنت معهم فأوصيك أن لا تجارى أقرانك ما داموا فى معصية وتمسك بحبل التقوى ولا تخش فى ذلك لومة لائم فغداً تراهم نادمين متحسرين يسخرون منك اليوم ويهزؤن بك وأنت غداً أشد سخرية منهم واستهزاء بهم يوم يساقون إلى النار وتزف أنت إلى الجنة — فضع هذا نُصب عينيك أيها المسلم وحاسب نفسك ولا تغفل عن ذكر الله لحظة واعلم أن العبادة لا تمنعك من أعمال معيشتك كما يتوهم الذين لا معرفة لهم بالدين فمن أراد أن يذكر الله ذكره فى كل عمل وفى كل قول وفى كل حركة وفى كل سكون وهو فى بيته وهو فى طريقه وهو فى ديوانه وهو فى مصنعه وهو فى متجره وهو فى مزرعته وما كان الدين بمانع عن طلب الرزق أبداً — وقد روى (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) فلا تهمل أمر دنياك حتى تكون عالة على الخلق ولا تفرط فى أمر دينك حتى تنسى الموت وما بعد الموت .

باب فى توبيخ النفس ومعاتبتها

قد علمت أن أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك وقد خُلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتطهيرها وتهذيبها وامرت بأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وإبعادها عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت منك ولم تقدر عليها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والمحاسبة والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ثم رجوت بعد ذلك أن تصير نفسك النفس المطمئنة التى دعيت لتدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية — فياعبد الله لا تغفل ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها . والطريق فى ذلك أن تعترف وتقرر أمامها جهلها وغباوتها وتقول لها أما تعرفين يا نفس ما هو أمامك من جنة ونار وأنك صائرة إلى احداهما عن قريب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو واللعب وأنت مساقة لهذا الخطب العظيم فمالك أيتها النفس لا تستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب — أما تتدبرين قول الله تعالى (اقترب للناس حسابهم

وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ويحك يانفس إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كانت جرأتك على المعصية مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك إن ألهاك البطر عن عذابه فقربى أصبعك إلى النار أو اقبضى يدك على الجمرة مدة ساعة ليتبين لك مقدار طاقتك على العذاب وهيهات لا نسبة مطلقاً بين هذا وبين عذاب الآخرة ــ أم تغترين يانفس بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فتعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فإذا احتجت إلى درهم لتجلبى به شهوة من شهوات الدنيا نزعت فى طلبه الروح فلم لا تعوّلين على كرم الله تعالى حتى يسخر لك عبداً من عبيده يحمل اليك ماتحتاجين اليه من غير سعى ولا كدّ . أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة وليس كريماً فى الدنيا كلا فان رب الآخرة هو رب الدنيا وأن سنة الله لا تبديل لها ــ ألم يقل لك مولاك فى أمر الدنيا (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وقال فى أمر الآخرة (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبتيه بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ــ ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ولو أن طبيباً مجوسياً أخبرك أن نوعا من أنواع الأطعمة اللذيذة مضرّ بصحتك لسمعت نصيحته وامتنعت عن تناوله وجاهدت نفسك فيه . فما أراك يانفس تتوانين عن النظر فى ذلك إلا لكفر خفىّ أو حمق جلىّ . أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره تعالى واستدراجه وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) فلو كان الأمر بالتمنى دون العمل ما تعبدت الأنبياء بعد أن اصطفاهم الله تعالى من بين خلقه بل هم صلوات الله عليهم لمعرفتهم بحقيقة الأمر كانوا يضنون أجسامهم فى العبادة ولا يفترون عن ذكر مولاهم طرفة

عين ولا يأمنون مكره وأنت أيتها النفس التعسة المغرورة تنامين ثم تطمعين فى العفو يوم يقوم الحساب . ويحك يانفس أما تعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وأنه يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ألم تنظرى إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم وأموالهم أعداءهم . أما ترين الجهلاء كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون يبنى الواحد قصراً مرفوعا إلى السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حق وغرور وجهل أعظم من هذا — يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها حتما — فبادرى يانفس فقد أشرَفتِ على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يطلب رضا خالقك عنك بعد الموت . ويحك يانفس أما تعلمين ان أيامك محدودة وان أنفاسك معدودة وهى بضاعتك وقد ضيّعت أكثرها . فلو سجدت بقية عمرك ماوفيت بحق ربك فكيف إذا ضيعت البقية الباقية وأصررت على عنادك .

فأتوسل إليك يانفس أن تعملى لنجاتك وترجعى عن غيّك واغترارك وتحاسبى نفسك على الزّلات وتبادرى إلى العمل قبل الفوات واعلمى يانفس أنه ليس للدّين عِوض إذا خسرتيه ولا للإيمان بدل إذا افتقدتيه ولا للجسد خلف إذا ابتليتيه — وَمن كانت مطيته الليل والنهار فإنه سائر لايشعر فاتعظى يانفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة الخالصة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية فإن كانت قساوة قلبك تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام الصلاة وتلاوة القرآن فان لم تزُل فبالمواظبة على الصيام فإن لم تزُل فبقلة المخالطة وقلة الكلام فإن لم تزل قساوتك فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة النفوس على ظاهره وباطنه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فوطّنى نفسك على النار واستعدى لغضب الجبار فقد خلق الله تعالى الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له — فانظر أيها القارىء المسكين هل تحزن على هذه المصيبة التى ابتليتَ بها وهل تسمح عينك الجامدة بدمعة على

نفسك . فإن سمحت فابشر فان الدمع من بحر الرحمة واعلم انه قد بقى فيك أمل للرجاء
فاستغث بأرحم الراحمين لعله يرحم ضعفك ويغيثك فإن مصيبتك قد عظمت وتماديك
قد طال فافزع إليه بالتضرع واخشع فى تضرعك على قدر كثرة ذنوبك لأن الله
يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيبَ دَعوة المضطر فالمطلوب منه
كريم والمستغاث به بَر رؤف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقل
ياأرحم الراحمين أنا المذنب المصر أنا الجرىء الذى لا أرتدع أنا المتمادى الذى
لا أستحى هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والهالك الغريق فعجل إغاثتى
وفرجى وأرنى آثار رحمتك وأذقنى برد عفوك ومغفرتك وارزقنى قوة عصمتك
يا أرحم الراحمين .

باب فى تربية الطفل وتهذيبه

إعلم أن تربية الطفل وتهذيبه من أهمّ الأمور فإن الطفل أمانة عند والديه . فقلبه
الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل عمل ، وهو قابل لكل مايُمهَّد اليه ومائل لكل
ما يُحول به إليه . فإن عود الخير وتعلمه نشأ عليه وَسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه
فى ثوابه أبواه . وإن عوّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة
القيم عليه والوالى له — قال تعالى (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) .
فكما أن الوالد يصون ابنه ويحافظ عليه من نار الدنيا فأولى له أن يصونه ويحفظه من
نار الآخرة بأن يربيه التربية الدينية الصحيحة ويعلمه أمور دينه ومحاسن الأخلاق
ولا يستعمل فى إرضاعه إلا امرأة صالحة تأكل الحلال فاذا أرضعته امرأة تأكل
الحرام انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث . واعلم أن اول مايغلب
على الصبى من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه وأن يفهم أن كثرة الأكل
مضرة وأن المقصود منها تقوية الجسم على التعليم وعبادة الله تعالى وماخلقت الخلائق
إلا لذلك . كما يفهم أن الدنيا كلها لا بقاء لها وان الموت يقطع نعيمها . وأن الآخرة
هى الباقية ونعيمها دائم . ثم يلحق بمعاهد التعليم لاسيما المعاهد الدينية كى يحفظ القرآن
والحديث وحكايات الصالحين وأحوالهم لينغرس فى قلبه حبهم كما يمنع من مخالطة

الذين لا يهمهم أمر الدين وكذا يمنع من قراءة الروايات المنتشرة فى السوق المحشوة بالخيالات والصور المبتذلة لأن ذلك يغرس فى نفسه بذور الفساد ويبعده عن طريق الهدى والرشاد . ويفهم أيضاً بأن لا يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه أو بطعامه وملبسه لأن هذا يورث فيه ملكة الكبر والعجب بل يعود التواضع والكرم لكل من عاشرهم والتلطف فى الكلام معهم .وينبغى أن يفهم بأن لا يبصق ولا يتمخط فى حضرة من هو أكبر منه سناً . ويمنع كثرة الكلام ويعود على عدم حلف اليمين مطلقاً حتى لا يعتاد ذلك . ويمنع من التكلم بالفحش والسب ويمنع من مخالطة من يتكلم بهذه الألفاظ ومن مخالطة ذوى الأخلاق الرديئة لأن الطفل إذا أهمل فى بادىء الأمر نشأ كذاباً سروقاً حسوداً — بل الأصل فى تهذيب الأولاد أن يمنعوا من مخالطة اهل الفجور والفساد لاسيما إذا كانوا أكبر منهم سناً . فإذا بلغ الولد سن التمييز يعلم الطهارة ويؤمر بالصلاة ويضرب عليها لثلاث عشرة سنة . وأن يؤمر كذلك بالصوم فى بعض أيام رمضان حتى إذا قدر عليه صامه كله . ومتى قارب البلوغ (وهنا مزرعة الشيطان) يفهم مضار هذه الأمور بطريقة خفية وتشدد عليه الرقابة ومتى حبب اليه التردد على بيوت الجيران والأقارب التى بها بنات من سنه يمنع عنها فوراً قبل ان يلعب الشيطان بقلبه كما يفعل ذلك بل أشد منه مع الفتيات لأن بذور الشر لا تنبت إلا فى بيوت الجيران والأقارب ولا تسقى إلا بماء (رفع التكليف بين العائلات) الذى ابتلانا به هذا الزمان — وعلى الوالدين أن يقيما الشعائر الدينية أمام أولادهما وان يكثرا من ذكر الله تعالى والخشوع لعظمته وكبريائه على مرآى ومسمع منهم لأنه إذا كبر الطفل رجعت به ذاكرته إلى ماكان يراه أو يسمعه من والديه فإن رآى وسمع صالحاً نشأ صالحاً وبالعكس . لذلك يجب على الوالد المرتكب أن يتوب عن فعلته الشنعاء متى كانت له ذرية وأن لا يرتكبها أمامهم أو على علم منهم لأن ذلك يشجعهم على إتيان مثلها إن لم يكن فى الحال فعندما يقدرون عليها . وهذه الحالة هى التى جعلت شبان هذا الزمان لا يهتمون بأمر الدين لما رأوا آباءهم قد أهملوه — فعلينا معشر من آمن بالله ورسوله ان نربى أولادنا التربية الدينية الصحيحة لأن الطفل بجوهره خلق صالحاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد

الأمرين حتى فى الإيمان والكفر لا فى الطاعة والمعصية فقط قال عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ألا فليعلم الأبوان انهما مسئولان عما يشب عليه اولادهما امام الله تعالى فى عرصات القيامة

باب فى طريقة معرفة الإنسان عيوب نفسه

إعلم أن الله عز وجل إذا اراد بعبده خيراً بصره بعيوب نفسه فلم تخف عليه فإذا عرف العيوب امكنه العلاج . ولكن اكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى احدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربع طرق : الأول — ان يجلس مع عالم بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويتبع إشارته كشأن التلميذ مع استاذه . الثانى — ان يتخذ صديقاً متديناً فيجعله رقيباً على نفسه ليلاحظ احواله وافعاله فما كرهَ من اخلاقه وافعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة نبهه عليه . الثالث — ان يستفيد الإنسان معرفة عيوب نفسه من ألسنة اعدائه ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن له يذكره عيوبه اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه كما هو حاصل الآن . الرابع — ان يخالط الناس ليقف على أفعالهم فكل ما رآه مذموماً من افعالهم يتباعد هو عنه فان المؤمن مرآة المؤمن وبذا يمكنه ان يرى عيوب نفسه من عيوب غيره .

باب فى بيان أقسام الذنوب

اعلم ان للانسان اوصافاً واخلاقاً كثيرة ولكن تنحصر منابع الذنوب فى اربع صفات : صفات بهيمية — وصفات سبعية — وصفات شيطانية — وصفات ربوبية — وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة — فأما الصفات البهيمية — فهى التى يتشعب منها الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام الدنيوية — والصفات السبعية منها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع منها جملة ذنوب — والصفات الشيطانية منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق

والدعوة إلى البدع والضلال — وأما الصفات الربوبية فان الإنسان ينزع إلى الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الإستعلاء على كافة الناس وهذا يتشعب منه جملة من الذنوب — والذنوب نوعان — نوع بين العبد وبين الله تعالى ونوع بين العبد وبين سائر الخلق. فأما ما يتعلق بالعبد خاصة فهو ترك الصلاة والواجبات الخاصة به — وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقتل النفس وكل ما يختص بالغير . واعلم أن الذنوب في جملتها تنقسم إلى صغائر وكبائر لأن الله تعالى يقول (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنهُ نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً) وقال صلى الله عليه وسلم (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر) (ق) فثبت بهذا أن الذنوب كبائر وصغائر وقد اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر فقالت طائفة كل ذنب يعمله الإنسان عمداً فهو كبيرة وقال بعضهم كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة . وقال أبو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من الأحاديث ومن أقوال الصحابة وبيانها أربعة في القلب : الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره . وأربع في اللسان : شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقاً وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر وهو كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن أصل الخلقة . وثلاثة في البطن ، شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان في الفرج الزنا واللواط واثنتان في اليدين القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين الفرار من الزحف الواحد من الإثنين والعشرة من العشرين . وواحدة في جميع البدن وهي عقوق الوالدين ومجمل عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبرّ قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما وأن يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما وهذا قريب . والحق أن الشرع لم يعد الكبائر ولم يحددها ربما قصد بذلك إبهامها ليكون العباد على حذر فلا يجرأون على ارتكاب الصغائر اعتماداً على أن الصلوات الخمس تكفرها وعلى أن اجتناب الكبائر يكفرها أيضاً وهذه حكمة بالغة أراد بها الشرع نجاة العباد — أما ان اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر فهو إن اجتنبها مع القدرة خوفا من الله تعالى كمن يتمكن من امرأة فيكف نفسه عن الوقاع مخافة الله مقتصرا على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً فى قلبه من إقدامه على النظر أو اللمس فهذا معنى التكفير . أما إذا كان امتناعه بسبب قهرى أو سبب آخر غير مخافة الله فهذا لا يصح للتكفير أصلا . واعلم أن الصغيرة تكبر بالمواظبة على فعلها وكذا المباح يصير صغيرة بالمواظبة عليه كمداومة اللعب المباح أو الترنم بالغناء وغير ذلك وأن الصغيرة تكبر بالإصرار عليها ولذا قيل — لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار — فكبيرة واحدة لو مضت ولم يتبعها مثلها كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها — مثال ذلك أنه لو صب قطرات ماء على حجر على التوالى مدة من الزمن تؤثر فيه ولكن إذا صب هذا القدر من الماء على الحجر دفعة واحدة لا تؤثر فيه فكذلك تأثير الأعمال فى القلوب .

باب فى حقيقة الدنيا

إعلم أن الدنيا عبارة عن الأرض وما عليها وقد خلقها الله تعالى مهاداً للآدميين ومسكنا ومستقراً لهم ولهم فيها حظوظ ولهم فيها شغل لحظوظهم فيها عبارة عن ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويحتاج كل ذلك إلى عمل ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان — فالمعادن لازمة للآلات والأوانى كالنحاس والرصاص والحديد وللتعامل كالذهب والفضة . أما النبات فلازم للقوت وللتداوى . وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم ويطلب من البهائم لحومها للمأكل وألبانها للمشرب وأصوافها للملبس وظهورها للمركب والزينة وحمل الأثقال وفيها كثير من المنافع والفوائد . فهذه هى الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله (زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) فالنساء والبنون من الإنس الذى هو نوع من الحيوان . والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة من الجواهر وهى من المعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت والخيل المسومة والأنعام

هى البهائم والحرث هو النبات وسائر الزرع – وللعبد مع هذه الأعيان علاقتان – العلاقة الأولى مع القلب وهى حبه لمتاع الدنيا وانصراف همه إليها ويدخل فى هذه العلاقة جميع أمراض القلب مثل الكبر والغل والحسد والرياء وسوء الظن وحب الجاه وحب التكاثر والتفاخر وحب البقاء ويعبر عن هذا بالدنيا الباطنة . والعلاقة الثانية هى اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وهى عبارة عن جملة الصناعات والحرف التى شغلت بها الخلق حتى نسوا أنفسهم وعموا عن سوء منقلبهم بهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف الإنسان حقيقة الدنيا وحكمة سرها علم أن كل ما عليها لم يخلق إلا لعلف الدابة التى يسير بها إلى الله تعالى وأعنى بالدابة البدن . ولو عرف الإنسان سبب الحاجة إلى هذه الأشياء واقتصر عليه لم تشغله أمور الدنيا وإنما شغلته الدنيا واستولت عليه لجهله بها وبحكمتها فتتابعت الأشغال عليه واتصل بعضها ببعض وأصبحت لا نهاية لها ولا حد فتاه فى كثرة مشاغلها وفنى فى متاعها . وقد خلق الإنسان بحيث لا يعيش وحده فى هذه الدنيا بل يحتاج إلى الإجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين – أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى – ثانيهما : تعاون الإنسان مع غيره لإعداد طعامه وملبسه وما يلزمه . واعلم أن أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخرى فكأنها هاوية لا نهاية لعمقها من وقع فى هاوية منها سقط فى أخرى وهكذا على التوالى . ولكن الناس فى أثناء اشتغالهم بأمور الدنيا نسوا أنفسهم ومصيرهم فتاهوا وضلوا وتخيلوا بعقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات خيالات فاسدة فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراءهم . فطائفة غلبهم الجهل وتغلغل فى قلوبهم مرض الغفلة فقالوا المقصود أن نعيش أياماً فى الدنيا فنكد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب فيأكلون ليكسبوا ويكسبون لتأكلوا وهكذا على الدوام وهذا سفر مستمر لا ينقطع إلا بالموت . وطائفة زعموا أنهم فطنوا للأمر فقالوا ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ويحرم من التنعم فى الدنيا بل السعادة فى أن يتمتع بشهوتى البطن والفرج فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع الشهوات يأكلون كما تأكل البهائم

ويصرفون شهوتهم كما يصرفها أخس الحيوانات . ويظنون أنهم قد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة فى كثرة المال فسهروا ليلهم وأتعبوا أنفسهم فى نهارهم لجمعه فهم يشقون فى الأسفار ويترددون فى الأعمال الشاقة غير مبالين بالمتاعب والأخطار حباً فى الكسب والإدخار ولا يأكلون إلا بقدر الضرورة فيبخلون على أنفسهم وعلى أولادهم مخافة أن تنقص أموالهم وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم إلى أن يدركهم الموت فيبقى مالهم الذى ادخروه تحت الأرض حتى يعثر عليه من يصرفه فى الشهوات واللذات فيكون للجامع المسكين تعبه ووباله وللآكل لذته ونعيمه — فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا . وقد تنبه لذلك طائفة قليلة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان وأضلهم حتى انقسموا هم أيضاً إلى طوائف فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد أو لم يتعبد وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يحرقون أنفسهم بالنار ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا . وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يكفى بل لابد من إماتة الصفات البشرية وأن السعادة فى قطع الشهوة نهائياً . ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها وأن الناجى منها السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فكانوا على النهج القصد والسبيل الواضح فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا ، بل كانوا يأخذونها للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً . وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى . والله أعلم .

باب فى صفة الدنيا

إعلم أن الدنيا ليست بدار قرار ، والإنسان فيها على صورة مسافر . فأول منازله بطن أمه ، وآخر منازله لحد قبره ، وإنما وطنه وقراره ومكثه واستقراره بعدها فكل سنة تنقضى من عمر الانسان كالمرحلة ، وكل شهر ينقضى منه كاستراحة المسافر ، وكل أسبوع كقرية يمرّ عليها ، وكل يوم كميل يقطعه ، وكل نَفَس كخطوة يخطوها ، وبقدر

كل نفس يتنفسه يَقرُب من الآخرة . فهذه الدنياقنطرة بين الأزل والأبد ، فمن عبر القنطرة واشتغل بعارتها فى فيها زمانه ونسى المنزلةالتى إليها مصيره وفيها مقره ، وكان جاهلا غير عاقل ، لأن العاقل الذى لايشتغل فى دنياه إلا بإعداد زاد لمعاده ويكتفى منها بقدر حاجته ، فجميع ما جمعه منها فوق كفايته يكون سما قاتلا ويتمنى أن تكون خزائنه وسائر أمواله رماداً لافضة ولاذهباً . إعلم أن حالات الإنسان ثلاث ، حالة لم تكن فيها شيئاً وهى ما قبل وجودك فى الأزل . وحالة لم تكن فيها مشاهداً للدنيا وهى ما بعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهى أيام حياتك فى الدنيا . فانظر إلى مقدار طولها وقسه إلى طرفى الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من استراحةقصيرة فى سفر بعيد ، لا ابتداء لأوله ولا انتهاء لآخره . فمن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها . ولم يبال كيف انقضت أيامه فى ضر وضيق ، أو فى سعة ورفاهية . الدنيا دار غرور وبلاء وشرور ونقصان وزوال وتقلُّب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم . وهى عائدة عليكم وعلى مَن بعدكم . من ركن اليها صرعته ، ومن وثق بها خانته ، ومن أمَّلها كذبته ، ومن رجاها خذلته . عزها ذل . وغناها فقر . والسعيد من تركها والشقى فيها من آثرها . واعلم أنه لا فخر فيما يزول ، ولا غنى فيما يفنى ، قال لقمان لابنه — لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فانك لم تخلق لها وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، فانه لم يجعل نعيمهاثواباً للمطيعين ، ولا بلاءها عقوبة للعاصين ، ولقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بنى بيتاً ولا أسس فيها متاعاً . وقال عليه السلام (إنما مثل صاحب الدنيا كالماشى فى الماء هل يستطيع الذى يمشى فى الماء أن لاتبتل قدماه) (هب) هذا الحديث يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منقطعة عنها غير عالقة بشهواتها ، وهذا الاعتقاد مكيدة من الشيطان ، لأنهم لو زال ماهم فيه من نعيمها لوجدتهم أعظم المفجعين بفراقها . فكما أن المشى على الماء يقتضى بلل القدم حتما ، فكذلك التعلق بالدنيا يحدث ظلمة فى القلب بل علاقة الدنيا بالقلب تمنع حلاوة العبادة . واعلم أن الأيام خمسة يوم مفقود ويوم مشهود ويوم مورود ويوم موعود ويوم ممدود ، والمفقود أمسك الذى فاتك مع مافرطت فيه . والمشهود يومك الذى انت فيه فتزوّد فيه من الطاعات . والمورود هو غدك

لا تدرى هل هو من أيامك أم لا . والموعود هو آخر أيامك من أيام الدنيا فاجعله نُصب عينك . والممدود هو آخرتك وهو يوم لا انقضاء له فاهتم له غاية اهتمامك ، فإنه إما نعيم دائم أو عذاب مخلّد .

باب فى ذم الدنيا

الآيات الواردة فى ذم الدنيا كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا والدعوة إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ولم يُبعثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن هنا لأن ذلك غير خاف علينا — وإنما نذكر بعض الأخبار الواردة فى ذم الدنيا فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال (أترون هذه الشاة هينة على أهلها) قالوا من هوانها ألقوها . قال (والذى نفسى بيده للدّنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) (م) وقال عليه السلام (من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال همّاً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلا لا يتفرغ منه أبداً ، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً وأملا لا يبلغ منتهاه أبداً) (طب) .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر فى موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال فمر بعابد فقال العابد والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان ذلك وقال (لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داواد يذهب والتسبيحة تبقى) ويروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام (يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا) فقال (كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر) وقال على رضى الله عنه من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً — من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها — .

ومما يروى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها وسيق إلى عذبها وعذابُها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها
وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلابٌ همّهن اجتذابها
فان تجتنبها عشت سلمًا لأهلها وإن تجتذبها ناهشتك كلابها

باب فى شهوة الفرج وفضيلة مخالفتها

إعلم أن شهوة الوقاع ُخلقت فى الإنسان لفائدتين — إحداهما ليدرك لذتها فيقيس بها لذات الآخرة لأن لذة الوقاع أقوى لذات الجسد — الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود ولكن مع هذا آفات يهلك بها الدين والدنيا إن لم تضبط وتقهر. نقول إن هذه الشهوة هى أقوى الشهوات على الإنسان وأعصاها على العقل عند الهيجان ، إلا أن مباشرة فعلها قبيح ُيستحى منه ، فامتناع أكثر الناس عن فعلها إما لعجز أو لخوف من آدمى أو لحياء، وليس فى ذلك ثواب ؛ وفقط تفيد هذه العوائق فى دفع الأثم عن العبد. فان من ترك الزنا اندفع عنه إثمه مهما كانت الأسباب الداعية للترك — وإنما الفضل والثواب الجزيل فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة عليه وعدم وجود الموانع . أما الترك بعد تحرك الشهوة فهو درجة الصّديقين — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد)(ك) وقال (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله) (ق) وعد منهم (رجل طلبته ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله) — وقصة سيدنا يوسف عليه السلام وامتناعه عن زليخاء مع القدرة ومع رغبتها معروفه ، وقد أثنى الله عليه فى كتابه العزيز ، فيوسف عليه السلام إمام لكلّ من وفق فى مجاهدة الشيطان فى هذه الشهوة العظيمة ، وروى أن سليمان بن يسار خرج من المدينة يريد الحج ومعه رفيق له حتى نزلا بالإبواء فقام رفيقه ونزل إلى السوق ليبتاع شيئاً وجلس سليمان فى الخيمة وكان أحسن الناس وجهاً ، فرأته إعرابية من قمة الجبل فانحدرت اليه فلما رأت جمال وجهه جاءت حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع ، وكانت على جانب عظيم من الجمال فكشفت عن وجهها فكأنه فلقة قمر ، وقالت إهننى فظن أنها تريد طعاماً ، فقام إلى فاضل أكل

ليعطيه إياها، فقالت لست أريد هذا، إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله، فقال جهزك الشيطان إلىّ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب فلم يزل يبكى، فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة. وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك، قال خير، ذكرت أولادى، قال لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بأولادك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية فوضع رفيقه الطعام وجعل يبكى بكاء شديدا، فقال له سليمان وأنت ما يبكيك. قال أنا أحق منك بالبكاء، لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها. فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمان إلى مكة سعى وطاف وأتى الحجر الأسود فاحتبى ثوبه فأخذته عينه فنام، وإذا برجل وسيم له صورة حسنة ورائحة طيبة. فقال له سليمان رحمك الله من أنت، قال أنا يوسف. قال يوسف الصديق قال نعم. قال إن فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا. فقال يوسف شأنك وشأن صاحبة الإبواء أعجب.

هذا فضل من تمكن من قمع الشهوة مخافة الله تعالى بعد تهيئة أسبابها. واعلم أن شهوة العين تقرب من هذه الشهوة لأن العين مبدأ الزنا، فحفظها واجب ولكنه عسير يستدعى مجاهدة، وقد يستهان بالنظر والآفات كلها منه فالنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ، بها والمعاودة يؤاخذ بها. قال صلى الله عليه وسلم (لك الأولى وعليك الثانية) (ق) فيجب على العبد أن يحفظ عينه حتى يندفع عن قلبه كثير من الآفات وقد أفردت باباً خاصاً بعقوبة الزنا فانظره.

باب فى مرض الكبر ومذامه

لما كان الكبر داء مهلكا والمتكبر قلبه مريض وممقوت عند الله تعالى، فقد ذمه الله عز وجل فى كثير من كتابه العزيز، منه قوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) وقوله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) وقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وغير هذا كثير. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بئس العبد عبدٌ تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى،

بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى)(ت) واعلم أن الاختيال وإظهار آثار الكبر فى المشى مذموم أيضاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزره بَطَراً) (ق) وقال عليه السلام (من تعظَّم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان) (طب).

باب فى علاج مرض الكبر

قد عُلم لنا أن الكبر من الأمراض المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين على كل إنسان ؛ ولا يزول إلا بالمعالجة وفى معالجته بابان — أحدهما — استئصال أصل المرض وقلع شجرته من مغرسها فى القلب — والثانى — دفع العارض منه بالأسباب التى بها يتكبر الإنسان — فالباب الأول وهو استئصال أصله علاجه علمى وعملى. أما العلمى فهو أن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر فإنه إذا عرف نفسه علم أنه أذل من كل ذليل فى الوجود، وأقل من كل قليل، وأنه لايليق به إلا التواضع والذلة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله سبحانه وتعالى، أما معرفة ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول، وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفة نفسه فهو يطول أيضاً ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والذلة ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله تعالى، فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن شق قلبه وفتحت بصيرته، فقد قال تعالى (قُتل الإنسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره) فقد أشارت الآية الى أول خلق الإنسان والى آخر أمره والى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى الآية الشريفة.

أما أول الانسان فهو انه لم يكن شيئاً مذكوراً بل كان فى حيز العدم. وأى شيء أخس من العدم : ثم خلقه الله تعالى من أحقر الأشياء فقد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظماً ثم كسا العظم لحماً. فهذا بداية وجوده.

فمن كان هذا بدايته فمن أين له البطر والكبرياء ، وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء ، نعم . لو أكمله وفوض أمره إليه وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه الأمراض الهائلة والآفات المختلفة ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط ، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً ، لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ولاخيراً ولاشراً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء فيتذكره ، فلا يملك قلبه ولا نفسه . نفسه تشتهى الشيء وربما يكون هلاكه فيه ، وتكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، لايأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره ، وتشل أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتختطف روحه ، ويسلب جميع مايهواه فى دنياه . وأما آخره ومنتهاه ، فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) ومعناه أن يسلب روحه فيعود جماداً كما كان أول أمره ، ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ، كما كان فى الأول نطفة قذرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميما رفاتاً . ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه ، فيصير روثاً فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ، ثم يحييه بعد طول البلى ، ليقاسى شديد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة ، قائمة وسماء مشققة ، وارض مبدلة ، وجبال مسيرة ، ونجوم متكدرة ، وملائكة غلاظ شداد . ويرى صحايف منشورة ، فيقال له إقرأ كتابك ، فيقول وما هو كتابى ، فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بمتاعها ، ملكان رقيبان يكتبان عليك ما تنطق به أو تعمله من قليل وكثير وصغير وكبير ، فهلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب . فيتقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب ، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما بها من مخازيه فاذا شاهده قال (ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) فهذا آخر أمره ، وهو معنى قوله تعالى (ثم إذا شاء أنشره) فمن هذا حاله ماله وللتكبر والتعظم ، فقد ظهر له أول حاله ووسطه ، ولو ظهر آخره ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ، نعم إن كان عندالله

مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب وآخره التراب ، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لايهرب منهما الخلق ، ولو رآى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو شموا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة . فمن هذا حاله فى الآخرة إلا ، أن يعفو الله عنه ، فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يرى له فضلا — وأى عبد يذنب ذنباً ولم يستحق عليه العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه ، وقد رجونا ذلك منه لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بأن يواظب على خلاق المتواضعين وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه فى باب خاص .

الباب الثانى — وهو دفع مايعرض من الكبر بالأسباب التى يتكبر بها الإنسان وتتلخص فيما يأتى :

أولا — النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب والأصل ، فليداو قلبه بأن يعرف أنه إذا كان خسيساً فى ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره .

ثانياً : التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الانسان إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم ، فمتى نظر إلى باطنه رآى به من القبائح ما يكدّر عليه تعززه بجماله فانه وُكّل به من الأقذار فى جميع أجزائه ، فجعلت العَذِرة فى أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبذاق فى فيه والقذى فى عينيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت جلده والصنان تحت إبطه ، يغسل العذرة بيده كل يوم عدة مرات ، كل هذا ليعرف الانسان قذارته وذلّه ، وقد خرج من مجرى البول مرتين .

ثالثاً : التكبر بالقوة ودواء ذلك أن يعلم أن الله إذا سلط عليه العلل والأمراض ، وإذا مرض عِرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه الذباب شيئا لا يستنقذه منه ، وأنه لو دخلت فى أنفه أو أذنه نملة لقتلته ولو

دخلت فى رجله شوكة لأعجزته ، فمن لايطيق شوكة ولا يقاوم نملة ولا يقدر أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغى له أن يفتخر بقوته ولا أن يتكبر بها .

رابعاً : التكبر بالغنى وكثرة المـــال وكثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر أيضاً بالمناصب والرتب والتقرب من الحكام ، وهذا أقبح أنواع الكبر ، فالمتكبر بالمال لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى المال ، فأفٍّ لشرف يسبقك به يهودى وأفٍّ لمال يسلبه اللص فى لحظة ، وأف لثروة تأكلها النار فى ساعة ، وأف لعز يزول بخسارة صفقة ، فكل هذه الأموال معرضة للزوال فى قليـــل من الزمن ، كذلك لا تدوم سطوة المنصب ولا تدوم كثرة الأتباع والأنصار ، وقد نرى ونشاهد ما تفعله المناصب بأربابهـا المتكبرين عند عزلهم منها ، فيكونون فى حالة ذلة ومهانة بعد البغى والطغيان .

خامساً : التكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأعصى الأمراض ، وذلك لأن قدر العلم أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما وللعالم فى هذا العلاج أمران ــ أحدهما ــ أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم يوم القيـامة أقوى من غيرهم ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لايحتمل عشره من العالم ، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنايته أفحش وعذابه أشد ، لأنه لم يقض حق الله تعالى عليه فى العلم وأقله التواضع ، الأمر الثانى ــ إن العالم يعرف ان الكبر لايليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له ــ إن لك عندى قدراً مالم تر لنفسك قدراً ، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندى ــ وقد زال الكبر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قَصَمه .

سادساً ــ التكبر بالورع والعبادة وذلك فتنة عظيمة ، فعلى العبد الورع المتعبّد أن يُلزِمَ قلبَه التواضع لجميع الخلق كافة ، حتى ولو كان فاسقاً ، لأن الفاسق قد يجرى على قلبه خوف الله تعالى وتعظيمه والخشوع له وهذا لايراه العابد ولا يعلمه إلا الله وحده فيكفِّر الله به سيئاته ويغفر له قبل مماته ، فإذا انكشف الغطاء يوم القيامة ربما ترى الذى كان فاسقاً فى الدنيا فوق العابد بدرجات فإذا فكر العابد فى هذا الخطر انشغل به حتماً عن التكبر على أى مخلوق مهما كانت حالته ــ هذا هو علاج مرض الكبر ، نسأل الله تعالى أن يكون نافعاً وشافياً .

باب فى مرض العجب ومذامه

العُجب من الأمراض الخبيثة فى القلوب ، وهو فرح العبد بكمال النعمة وتمام الخير لديه سواء فى المال أو العلم أو العمل ، واطمئنانه إلى ذلك ، واعتقاده بأن له حقاً على الله أعطاه إياه ، لا من حيث أنها مِنّة من المنعم سبحانه وتعالى ومحض عطاء . فإذا غلب على قلبه أنها نعمة من الله متى شاء سلبها زال العجب عنه — وللعجب آفات كثيرة أهمها أنه يدعو إلى الكبر ويدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها . أما آفاته فى العبادات فإن العابد المعجب يتبجح بعبادته ويمنّ على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق لها . ولذلك فإن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) ذكر ذلك فى معرض الانكار ، وقال تعالى (وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً) وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل . وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) (هب) قال مطرّف لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحب إلىَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجبا . وقيل لعائشة رضى الله عنها متى يكون الرجل مسيئاً ، قالت إذا ظن أنه محسن . نعوذ بالله من ذلك .

باب فى علاج مرض العجب

اعلم أن مرض العجب هو الجهل المحض ، وعلاجه المعرفة وهذه المعرفة هى علمه بأنه لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، وعجب القوى بقوته ، لأن كل ذلك من فضل الله تعالى ، وإنما العبد محل لفيضان هذا الفضل . فما عمل العبد إذا عمل وما صلى إذا صلى ، وما رمى إذا رمى ، (ولكن الله رمى) فهذا هو الحق . فقد خلقك الله وخلق أعضاءك وخلق فيها القدرة والقوة والصحة . وخلق لك العقل والعلم والإرادة ، فإذا علمت ذلك كان من العجائب أن تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن بيده الأمر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه فى تفضيله إياك على الفساق من عباده . إذ سلط دواعى الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط إخوان السوء عليهم وصرفهم عنك ، وأغرقهم فى بحار الشهوات

ونجاك منها ومنع عنهم بواعث الخير وهداك اليها — فعل سبحانه وتعالى ذلك كله بك بمحض إرادته من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصى ، بل فضلك واصطفاك بفضله وأبعد العاصى وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك بعد أن عرفت ذلك . فهذا هو العلاج الشافى لمرض القلوب من العجب . إن شاء الله .

باب فى مرض الغرور ومذامه وعلاجه

إعلم ان الغرور مرض مهلك من أمراض القلب وجرثومته الجهل أيضا وذلك أن يعتقد الإنسان أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فأكثر الناس إذاً مصابون بهذا المرض ، ويكفى فى ذم الغرور قول الله تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وقد يختلف الغرور فمنه ما هو أشد من غيره مثل غرور الكفار والعصاة والفسَّاق . ومنهم من غرتهم الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور . فالذين غرتهم الحياة الدنيا هم الذين قالوا إن اليقين خير من الشك فاعتبروا لذات الدنيا يقينا ولذات الآخرة شكا وقالوا لن نترك اليقين بالشك وإلى هؤلاء أشار الله تعالى بقوله (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) . وعلاج هذا النوع هو أن يصدق الله تعالى فى قوله (وللآخرة خير وأبقى) ويصدق الأنبياء والرسل فيما جاءوا به . وعلى ذلك فالمؤمنون إذا ضيعوا أوامر الله تعالى التى جاءنا بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهجروا الأعمال الصالحة واتبعوا الشهوات وارتكبوا المعاصى ، فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة . ولكن أمرهم أخف لأن الإيمان بالعقيدة يعصمهم من عقاب الخلد فيخرجون من النار ولو بعد حين ، لأن مجرد الإيمان دون العمل الصالح لا يكفى للفوز بالنعيم . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً) وقال عز وجل (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وغير ذلك كثير . فوعد المغفرة فى جميع كتاب الله تعالى مرتبط بالإيمان وبالعمل الصالح معاً لا بالإيمان وحده.

أما الغرور بالله تعالى فغرور الكافرين وغرور العصاة من المؤمنين . والذى يعنينا الكلام فيه هو غرور العصاة وهو المرض الذى دب فى قلوب المؤمنين حتى

أهلكها وطمس على بصيرتها فعميت عن حقيقة الأمر ، نسأل الله السلامة .

إعلم أن غرور العصاة من المؤمنين هو قولهم — إن الله كريم إن الله غفور رحيم . ثم يتكلون على ذلك ويهملون الأعمال الصالحة ويقولون ، أين معاصى العباد فى بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ونرجو بإيماننا هذا أن ننال النعيم فى الآخرة : فهذا منتهى الغرور بالله تعالى — ومثال هذا الغرور مثال الذى يرجو أن يكون له ولد وهو لم يتزوج ، أو تزوج وكان عنيناً فهو معتوه ، وكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحاً ، أو عمل صالحاً ولم يترك المعاصى فهو مغرور . وكما أن العاقل إذا تزوج ووطىء بقى متردداً فى وجود الولد ، ولكنه فى هذه الحالة يرجو فضل الله فى أن يرزقه الولد وأن يرفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم الحمل والولادة ، فكذلك كان عاقلا من آمن وعمل صالحاً وترك المعاصى وبقى مترددا بين الخوف والرجاء ، ويخاف أن لا يقبل منه وأن لا تدوم عليه نعمة الطاعة ويخاف أن يختم له بالسوء ويرجو الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ عليه دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، فهذا منتهى الحكمة والعقل وهو علامة الإيمان ، وما عدا ذلك فهم المغرورن بالله .

فعلام الغرور يا عبد الله وقد علمت أنه لا جزاء إلا بعمل ولتنظر إلى القرآن . فالقرآن فيه كثير من التخويف والتحذير ويكفيك قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الناس من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه على المعاصى ولا يتفقدها فاذا عمل طاعة حفظها وباهى بها كالذى يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب الناس ويمزق أعراضهم طول نهاره من غير حصر ولا عدد . ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون من الإنسان أجرة ما يكتبون من هذيانه الذى زاد عن تسبيحاته لعجز عن الدفع ولكف لسانه عن الكلام حتى فى المباحات خوفا من دفع أجرة الكتابة ، فياعجباً لمن يحتاط خوفاً على مال يدفعه ولا يحتاط خوفاً من فوات الفردوس الأعلى ونعيمه . ماهذه والله إلا مصيبة كبرى لمن تفكر فيها ، فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، نسأل الله السلامة لنا وللمسلمين أجمعين .

باب فى مرض الرياء ومذامه

مرض الرياء هو طلب المنزلة فى قلوب الناس، بأن تريهم خصالا تتصنعها لتوهم الرائى أنك مطيع لله تعالى وقائم بما فرضه عليك وتكون الحقيقة فيك غير ذلك. وما علمت أن طاعة الله لو وُفقت لها تجعل لك منزلة وجاهاً فى القلوب بدون تصنع لأن الله سبحانه وتعالى هو موجد الجاه والمنزلة وهو مطلع على أسرار القلوب — واعلم أن الرياء يكون فى خمسة أشياء وهى بمجموع مايتزين به العبد للناس.

أولا — البدن. ثانياً الزى. ثالثاً القول. رابعاً العمل. خامساً الأتباع. واليك بياناً موجزاً عن هذه الأشياء الخمسة. أولا الرياء بالبدن فى أمور الدين وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم الناس أنه شديد الإجتهاد فى العبادة وحزين على أمر الدين. ثانياً — الرياء بالزى وهو تشعيث شعر الرأس وحلق الشارب واطالة اللحية وإطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه عمداً، وتشمير الثوب ولبس الثوب المرقع، يريد المرائى أن يظهر للناس أنه متبع للسنة وهو ليس كذلك. ثالثاً — الرياء بالقول هو رياء أهل الدين بالوعظ والنطق بالحكمة، وحفظ أخبار الأنبياء والأولياء، وتحريك الشفتين بالذكر أمام الناس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حضور الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على ارتكاب الناس للمعاصى وهو فى خلوته غير ذلك. رابعاً — الرياء بالعمل هو مراءاة المصلى بطول القيام وطول الركوع والسجود، وإطراق الرأس وتسوية اليدين والقدمين، وكذلك التحدث بالصوم وباطعام الفقراء — خامساً — الرياء بالأصحاب والأتباع وهو الذى يتكلف أن يزور عالماً، أو يتودد إلى غنى من الأغنياء أو عظيم من العظماء ليقال أن فلاناً زار فلانا أو يجلس مع رجل صالح أو يكثر من ذكر العلماء، ليوهم الناس أنه استفاد منهم العلم وحفظ عنهم الدين. كل هذه الأعمال إذا قصد بها الرياء ولم يقصد بها وجه الله تعالى كانت هى الرياء بعينه، والرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت، والآيات والأخبار الواردة فى ذم الرياء كثيرة منها قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون) وقال عليه السلام حين سأله رجل فقال يارسول الله فيم النجاة فقال (أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس) وقال

أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث الثلاثه ، المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتاب الله وأن الله عز وجل يقول لكل واحد (كذبتَ بل أردتَ أن يقال فلان شجاع ، كذبتَ بل أردتَ أن يقال فلان جواد ، كذبتَ بل أردتَ أن يقال فلان قارىء) (م) فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم أحبط أعمالهم . وقال عليه السلام (إن المرائى ينادَى عليه يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك ، إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له) (ابن المبارك) وقال شداد بن أوس رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يبكى ، فقلت ما يبكيك يارسول الله . قال (أمر تخوفت على أمتى الشرك ، أما إنهم لا يعبدن صنما ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراءون بأعمالهم) (هـ ك) نعوذ بالله من ذلك .

باب فى علاج مرض الرياء

قد عرفت مما تقدم أن الرياء مرض يحبط الأعمال ويسبب المقت ، فيجب على العبد الذى يشعر من نفسه بوجود صفة من هذه الصفات عنده ، أن يجد فى إزالتها بالمجاهدة ، لأن الشفاء لايتم للمريض إلا بشرب الأدوية المرة ، ولهذا العلاج مقامان — أحدهما قلع عروق الرياء وأصوله التى يتشعب منها — والثانى دفع مايخطر منه فى الحال — فالمقام الأول فى قلع عروقه ، ليس خافياً على الإنسان أنه لايقصد الشىء ويرغب فيه إلا لظنه أنه خير له ونافع ، إما فى الحال وإما فى المستقبل . فاذا علم أنه لذيذ فى الحال ولكنه ضار فى المآل سهل عليه الإمتناع عنه ، فكذلك طريق قطع الرياء متى عرف العبد ضرره ومايتعرض له من العقاب العظيم ، والمقت الشديد ، والخزى الظاهر ، حيث ينادَى على رءوس الخلائق يافاجر ياغادر يامرائى ، أما استحييتَ إذا اشتريتَ بطاعة الله عرَض الدنيا وطلبت رضاء الخلق بسخط الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله فاذا تفكر العبد فى هذا وعلم ماتجلبه آفة الرياء من الضرر العظيم ، أبعدها عن نفسه وأقبل على الله بقلبه ، فإن العاقل من هجر مايضره وأقبل على ماينفعه . فهذا هو العلاج العلمى الشافى لأصول الرياء . أما العلاج العملى فهو أن يعوّد نفسه العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون المعاصى تماماً ، حتى يقتنع قلبه بعلم الله

واطلاعه على عباداته وحده ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله وقد ذكر الإمام الغزالى رحمه الله فى هذا المقام كثيراً نكتفى منه بما تقدم ، ونذكر ماقاله فى إظهار الطاعات أيضاً . قال إن فى الإسرار بالأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة لاقتداء الغير وترغيب الناس فى الخير . ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال (إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) . والإظهار قسمان — أحدهما فى نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل — فالقسم الأول — إظهار نفس العمل كالصدقة التى تعطيها للفقير أمام الناس لترغيب الناس فيها ، كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالسرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه قد تصدق بها فقال النبى صلى الله عليه وسلم (من سن سنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه) (م) وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج وغيره ، وقد روى ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، ويضاعف عمل العلانية إذا استن به على عمل السر سبعين ضعفاً ، وهذا خلاف ، ولكن إذا تم الاخلاص فى الحالتين فما يقتدى به أفضل لامحالة ، وفقط يخشى من العلانية ظهور الرياء ومتى ظهر الرياء لم ينفع العبد اقتداء غيره بعمله ويهلك هو به ، ففى هذه الحالة يكون السر أفضل .

القسم الثانى — أن يتحدث العبد بما فعله بعد الفراغ منه ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه ، والخطر فى هذا أشد ، لأن للنفس لذة فى إظهار العمل فترتاح إلى ذكره ، غير أن تطرق الرياء للعمل بعد الفراغ منه لم يؤثر فى إفساده ، فهو من هذه الوجهة أهون ومن تحدث بعمله بقصد الاقتداء به والرغبة فى الخير ، فهو جائز إن صفت النية ، لأن الترغيب فى الخير خير ، سواء بالعمل أو بالتحدث ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء ، قال سعد بن معاذ ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى بغيرها ولا اتبعت جنازة فحدثت نفسى بغيرها ما هى قائلة وما هو مقول لها ، ولا سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت انه حق . وقال عثمان رضى الله عنه ماتغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبو سفيان لاهله حين حضره الموت لاتبكوا على ، فإنى ماأحدثت ذنباً منذ أسلمت فهذا إظهار لاحوال شريفة وفيها غاية المراءات إذا صدرت ممن يرائى بها ، وفيها غاية

الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به مثل هؤلاء، فما تقدم يعلم انه إذا توفر الاخلاص فى العمل يستوى فيه السر والعلانية، كما قال عمر رضى الله عنه لرجل، عليك بعمل العلانية. قال ياأمير المؤمنين وما عمل العلانية. قال إذا اطلع عليك لم تستح منه. وهذه درجة عظيمة لاينالها كل واحد، ولكن علينا ان نجتهد و نتشبه بالسلف الصالح والله الموفق.

باب فى مرض الغضب ومذامه

الغضب مرض من أمراض القلوب ينبته أربعة أمور، الكبر، والفخر، والتعزّز والحمية — قال يحيى بن زكريا عليهما السلام لعيسى عليه السلام، أىّ شىء أشد، قال غضب الله — قال فما يقرب من غضب الله. — قال — أن تغضب — قال فما يُبدى الغضب وما يُنبته، قال — أربعة أمور. الكبر، والفخر، والتعزز، والحمية — فأصول الغضب حينئذ هى الآفات الأربعة المتقدمة، ولها أفرع مهيجة، وهى الزّهو والعجب والفخر والمزاح والهزل وشدة الحرص على حصول المال، وحب الجاه والرياسة، وجميع هذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا شفاء من مرض الغضب مع بقاء هذه الجراثيم، فلا بدّ إذاً من إزالتها، وإزالتها لاتكون إلا باستعمال أضدادها، فمثلا تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفة حقيقة نفسك، وتميت الفخر بأنك من جنس خادمك. وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالذكر، وأما الهزل فتزيله فى طلب الفضائل. وأما شدة الحرص فتزيله بالصبر على مضض العيش، فواجب على العبد أن يتباعد عن هذه الآفات ليسلم من آفة الغضب، روى أبو هريرة رضى الله عنه، أن رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل، قال (لاتغضب) ثم أعاد عليه قال (لاتغضب) (خ) وقال عليه السلام (ليس الشديد بالصُّرَعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) (ق) وقال عليه السلام (من كف غضبه ستر الله عورته) (ابن أبى الدنيا) وقال عليه السلام (من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاء) (ابن أبى الدنيا) وفى رواية (ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً) (ت) فواجب على العبد أن يكظم غيظه لما فى ذلك من الفضائل. قال الله تعالى فى معرض المدح (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس).

باب فى علاج مرض الغضب

ماذكرناه هو حاسم لمواد الغضب وقطع الأسباب المهيجة له ، لأن الأصل فى تهيج الغضب عند الإنسان وجود سببه . فيعالج مرض الغضب عند هيجانه بدواء العلم والعمل . فهو أن يتفكر فى فضائل كظم الغيظ ويحرص على نوال ثوابه ويخوف نفسه بعقاب الله تعالى إن أمضى غضبه على عدوه .

ويحذِّر نفسه عاقبة العداوة التى تنتج من ذلك ، واجتهاد العدو فى الانتقام منه وليعلم أن الغضبان يشبِّه بالكلب العقور ، والحليم يشبه بالأنبياء والأولياء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب وأراذل الناس . وبين أن يتشبه بأخلاق الأنبياء والأولياء ، هذا هو العلاج العلمى — أما العلاج العملى — فأن تقول بلسانك ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ (ق) وكان عليه السلام إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال (ياعويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفرلى ذنبى واذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن) (ابن السنى) . فيستحب أن يقال ذلك عند الغضب — فاذا لم يذهب غضبك بذلك ، فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقترب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذلَّ نفسك ، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون ، لأن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم ، فإن لم يزل ذلك فيتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء) وفى رواية أخرى (إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) (ت) فمن يفعل ذلك يحصل له الشفاء من هذا الداء إن شاء الله تعالى .

باب فى مرض الحسد ومذامه

إعلم أن جرثومة مرض الحسد الحقد ، وهو من الأمراض المهلكة — والحسد

لا يكون إلاّ على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان — إحداهما أن تكره هذه النعمة وتحب زوالها عن أخيك وهذه الحالة تسمى حَسَداً . والحالة الثانية أن لاتحب زوالها ولا تكره وجودها عند أخيك وفقط تشتهى لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة أو منافسة . أما الحالة الأولى وهى الحسد فهو حرام ؛ إلا إذا كان على نعمة أصابها فاجر أو كافر يستعين بها على إيقاظ الفتنة وإيذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها . أما الغبطة أو المنافسة فليست بحرام ، وهى إما واجبة وإما مباحة ، ويدلنا على ذلك قوله تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) — وقد ورد فى ذم الحسد أخبار كثيرة . منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) (د) وقال عليه السلام فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته (لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً) (ق) وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث لاينجو منهن أحد الظن والطِّيَرَة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيّرت فامضِ وإذا حسدت فلا تبغ) (طب)

وقال ذكريا عليه السلام ؛ قال الله تعالى — الحاسد عدو لنعمتى ، متسخّط لقضائى ، غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى — وقال ابن سيرين رحمه الله ما حسدت أحداً على شىء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار .

باب فى علاج مرض الحسد

قد علمنا أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تُداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل — والعلم النافع لمرض الحسد ، هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود لا فى دينه ولا فى دنياه ، بل ينتفع به فيهما ، ومتى عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك امتنعت عن الحسد لا محالة . أما كونه ضرر عليك فى الدين فهو أنك بالحسد قد سخطت على قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمة الله التى قسمها بين عباده ، وانتقدت

عدلـه الذى أقامه فى ملكه بخفىّ حكمته ، فاستنكرت ذلك ، وهذه جناية كبرى فى عين التوحيد والإيمان . وأما كونه ضرراً عليك فى الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك وتصير فى كمد وغمّ كلما أنعم الله تعالى بنعمة على أعدائك ، ولا تزال تتعذب إذا صرف عنهم بلية نزلت بهم ؛ فتبقى متعَـب القلب ضيق الصدر ؛ ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ، ولو كنت تؤمن بالبعث والحساب ماحَـسدت . وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه فما قدَّره الله تعالى من رغد عيش وإقبال نعمة على عبده ؛ لابد وأن يدوم إلى الأجل الذى قدره سبحانه وتعالى فلا حيلة فى ذمه ، بل كل شىء عنده بمقدار — وأما المنفعة التى تعود على المحسود فى دينه ، فهو أنه مظلوم من حسدك له ، لا سيما إذا جرّك الحسد إلى القول بالغيبة فى حقه والقدح فيـه ، وهتك ستره وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها أنت اليه . أعنى أنك بذلك تهدى اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة وأنت مفـلس محروم من الحسنات التى أذهبتها بحسدك ، فتصير محروماً فى الآخرة ، كما كنت محروماً فى الدنيا — قد علمت أن الحسد يعود على الحاسد بالإثم كما تقـدم ، ويا ليت الإِثم ينتهى بالموت ، بل يؤدّى إلى غضب الله تعالى وإلى عذاب النار بعد الموت ، فلأن تذهب عين الحاسد فى الدنيا خيرٌ له من أن يكون له عين تدخله النار فيقلعها لهيب النار . فانظر ياأخى ، هدانا وهداك الله ، كيف ينتقم الله من الحاسد ، فعلينا أن نترك الخلق للخالق ، ولا ننظر إلى نعم الله على العباد إلا بعين الاعتبار والتأمل فى صنعه تعالى وحكمته وعدله ، وإذا خطر فى صدرك شىء من الحسد ، فأكثر من الاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك لا تهلك نفسك ولا تنغص عيشَـك ولا تغضب ربك .

باب فى مرض البخل

البخل مرض فى القلب مهلك جرثومته الحرص وحب المال ، فهو منع الواجب . والواجب قسمان ، واجب الشرع وواجب المروءة والعادة ، فالذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فهو سخى ، فإذا منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولـكن الذى

يمنع واجب الشرع أبخل ، كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع النفقة المعتادة عن عياله وأهله أو يؤديها بغضاضة نفس ، أو الذى يتصدق بالخبيث من ماله ، كأن يعطى الزكاة من حثالة الغلال ، أو يعطى السائل قطعة خبز قديمة ، أو أى نوع من المأكولات غير جيد ، ولا يقبل أن يعطى الطيب ، فهذا كله بخل محض . أما واجب المروءة ، فهو أن يعرف الإنسان ما عليه لأهله وأقاربه وجيرانه وأصدقائه وضيوفه ، فان منع عنهم ما يجب عليه إعطاؤه وبذله بالنسبة لكل منهم بحسب درجته ومنزلته ، فهو بخيل . وإيضاح ذلك أن مَن يعطى عياله القدر المفروض ، ثم يضايقهم فى لقمة يأكلونها زيادة فهو بخيل ، ومن كان بين يديه طعام وحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفى الطعام فهو بخيل ، ومن كان يملك شيئاً من متاع الدنيا وطلبه جاره ليقضى به مصلحته فأنكره منه فهو بخيل ، ومانع الزكاة والصدقة والنفقة بخيل . والذى لا يؤدى مايجب عليه للأقارب والضيوف وغيرهم ، حبًا منه للمال فهو عديم المروءة ، وهاتك سترها . وليعلم من هذا حاله ، أن صيانة المروءة أفضل من صيانة المال — أما الكرم فهو أن ينفق المال بحسب ما توجبه العادة والمروءة ، عن طيب نفس وبغير عوض ، ولا يكون عن طمع فى الشكر والثناء ، وإلا فيعتبر بيَّاعاً وليس بكريم . فإذا لم يكن غرضه إلا الثواب فى الآخرة ، واكتساب فضيلة الكرم ، وتطهير القلب من آفة البخل فهو كريم حقاً . هذا فى المال . أما فى الدين ، فقد قال المحاسبى ، السخاء فى الدين أن تسخو بنفسك ، تتلفها لله عز وجل ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك ، وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلا أو آجلا . فرحم الله القوم ، كانوا يجودون بالمهج والنفوس . ونحن نبخل بالخبز والفلوس .

باب فى ذم البخل ومدح السخاء

قال الله تعالى (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيُطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال عز وجل (الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخل ويكتمون ما آتاهم اللهُ من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً) أى أن مثل البخلاء كمثل الكافرين فى استحقاق المقت والملامة . وقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا جبان ولا خائن ولا سيء الملكة) وفى رواية (ولا جبار) وفى رواية (ولا منان) (ت) (الخب الرجل الخداع) وقال عليه السلام (إن الله يَعجَب من ثلاث، الشيخ الزانى، والبخيل المنان، والمعيل المختال) (ت) وغيره. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال (السخى الجهول أحبُّ إلى الله من العابد البخيل) (ت) وقال عليه السلام (مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جُبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سَبغت أو وَفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وأما البخيل فلا يريد أن يُنفق شيئاً إلا قلَصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع) (ق) وقال عليه السلام (الشح والإيمان لا يجتمعان فى قلب عبد) (ن) ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام إبليس فى صورته فقال له — يا إبليس، أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغض الناس اليك، قال أحب الناس إلى المؤمن البخيل، وأبغض الناس إلى الفاسق السخى، قال له لمَ. قال لأن البخيل قد كفانى بخله، والفاسق السخى أتخوف أن يطلع الله عليه فى سخائه فيقبله، ثم ولىَّ وهو يقول، لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

باب فى علاج مرض البخل

قد علمت أن أصلَ مرض البخل حب المال، وحب المال له سببان — الأول حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال، مع طول الأمل فى الحياة، فان الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم أو بعد شهر أو بعد سنة كان لا يبخل بماله، لأن القدر الذى يحتاج اليه من المال فى يوم أو فى شهر أو فى سنة، سهل وميسور — ولكن إذا كان للرجل ولد فإنه يضعه موضع طول الأمل، أى أن الرجل يُقدِّر بقاء ولده كبقاء نفسه فيبخل ليجمع له المال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الولد مَبخلة مَجبنة مَجهلة) (ه و ك) فاذا أضيف إلى هذه الأوصاف، خوفُ الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق، قوى البخلُ لا محالة — السبب الثانى — إن الإنسان يحب المال لنفس المال، فمثلا الرجل الغنى الذى عنده الآلاف، وقد بلغ من العمر مالا يُنتظر معه زيادة، وليس له ولد، فتراه يبخل على نفسه، فلا يُنفق بسعة ولا يتصدق بدرهم،

بل أكثر من ذلك ، أنه لا يسمح بإنفاق شيء يتداوى به من الأمراض ، فهذا النوع من الناس محب لنفس المال عاشق له ، يتلذذ بوجوده فى يده ، ويفرح عندما يقع نظرُه عليه فى خزانته — وهـذا مرض فى القلب عسير علاجه ، لا سيما عند كبار السن .

وقد يخشى على مثل هذا من سوء الخاتمة ، لأنه عند موته يتحسر قلبه على فوات المال ، فيُقبض على هذا الحال ، وهذا هو الخطر العظيم . أمَا يدرى البخيل وكل من يكنز المال ، أن المال الزائد عن حاجته هو والحجر سواء بسواء ،أى أن الذهب إذا وضع فى الخزانة ولم يستعمل ، لم يكن فى هـذه الحالة ذهباً ، بل يكون كقطع الأحجار وأجزاء الفخار . أما علاج ذلك فهو القناعة باليسير ، وبالصبر على ترك مشتهيات النفس فى هذه الحياةالقصيرة ، فيعالج طول الأمل بذكر الموت والانشغال به ، وبما بعده من أهوال ، ويعتبر بموت الأهل والأقران بعد طول تعبهم فى جمع المال وضياعه بعدهم ، وهذه الحالة تتكرر أمامنا فى كل يوم ، فكم من أغنياء تركوا أموالا كثيرة فبددها ورثاؤهم فى قليل من الزمن ، أما البخـل لأجل الولد ، فيعالج بأن يعلم الوالد أن الخالق الذى خلق ولده ورزقه فى بطن أمه قبل أن يولد ، خلق معه رزقه وتكفل به ، فكم من ولد لم يرث عن أبيه مالا ، وحاله أحسن من حال مَنْ ورث المـال ، وليوقن الإنسان بعد هذا أنه لا يضمن لولده السعادةَ بما ادَّخر له من المال ، فقد يجمع الرجل المالَ يريد أن يصلح به حال ولده بعد موته ، ولكن هذا المال ينقلب على ولده شر ويكون بمثابة سلاسل تقوده إلى النار ، فالولد إن كان تقيا موفقا صالحا فالله سبحانه وتعالى كافيه رزقه ، وموسع عليه وميسر له ورازقه القناعة ، وإن كان شقياً فاسقا متبعا لشهواته ساعيا وراء ملذاته منقاداً لقرناء السوء — وكثير ماهم — فإن المال الذى تركه له والده ، يكون عونا على ارتكاب المعصية — فى الوقت الذى يتقلب فيه الولد ، فى ملذاته ، يتقلب فيه الوالد فى عذابه ، فعلى الانسان أن يعالج قلبه بكثرة التأمل فى الآيات والأخبار الواردة فى ذم البخل ومدح السخاء ، وما توعد الله به البخيل من العذاب ، ويكفيه رادعا فى ذلك قوله تعالى (والذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها

فى سبيلِ اللهِ فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنمَ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) فوجب إذاً أنه لاينبغى للإنسان أن يأخذ من المال إلا مايكفيه ، ومايزيد عن حاجته ينفقه فى أوجه البر والخيرات قبل موته ، ليكون مدخراً له فى الحياة الباقية . فهذه أدوية علاج البخل ، ولا يتوصل الإنسان إلى معرفتها وتعاطيها ، إلا بنور العلم الذى يعرف به أن العطاء خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة ، وأن الشيطان يَعدِه الفقر ويصدّه عن الصدقات . ورحم الله القائل :

قدّم لنفسكَ خيراً وأنتَ مالك مالكْ
من قبل تصبح فرداً ولون حالكَ حالكْ
ولستَ واللهِ تدرى أىّ المسالك سالكْ
إمَّا لجنةِ عدنٍ أوفى المهالِك هالكْ

باب فى معنى الغيبة

قال عليه الصلاة والسلام (هل تدرون ماالغيبة) قالوا الله ورسوله أعلم . قال (ذكرك أخاك بما يكرهه) (م) سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو فى دينه ، حتى ثوبه ودابته . أما الغيبة فى البدن ، فإنك تقول إنه أعمى ، أو أقرع ، أو قصير ، أوطويل ، أو أسود ، وغير ذلك ولو كان حقا . وأما النسب ، فهو أن تقول ابن الفاسق ، أو ابن الكلب . وأما الخلق فإنك تقول بخيل متكبر ، أحمق ، جبان ، وما يماثل ذلك . أما أفعاله ، كأن تقول هو كذاب ، أو شارب خمر ، أو ظالم ، وتقول إنه قليل الأدب ، وإنه كثير الكلام ، وماشابه ذلك . وأما فى ثوبه كأن تقول إنه طويل الذيل ، وسخ الثياب ، وغير ذلك ، قال معاذ ابن جبل ، ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ، فقال صلى الله عليه وسلم (إغتبتم أخاكم) قالوا يارسول الله قلنا مافيه ، قال (إن قلتم ماليس فيه فقد بهتموه) (طب) وقال الحسن — ذكر الغيبة ثلاثة — الغيبة والبهتان والافكْ وكل فى كتاب الله عز وجل . أما الغيبة ، أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس

فيه ، والأفك أن تقول مابلغك . واعلم أنه يدخل فى الغيبة الإشارة والإيماء والغمز واللمز والكتابة والحركة ، وكل مايعبر عن المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام. فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها ، دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة ، فقال عليه السلام (اغتبتيها) (ابن مردوية) ومن الغيبة أيضا التمثيل ، كمن يمشى يمثل مشية أخيه ، أو يتكلم بمثل كلام أخيه ليضحك الناس ، فهذا أشد من الغيبة لأنه أعظم فى التصوير والتعبير .

باب فى ذم الغيبة

إعلم أن الغيبة مذمومة وقد نص الله تعالى على ذمها فى كتابه العزيز ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال عز وجل (ولا يغتبْ بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحمَ أخيه ميتا فكرهتموه) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) (م) وقال عليه السلام (لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتبْ بعضكم بعضا وكونوا عبادَ الله إخوانا) (ق) وقال عليه السلام (إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه)(حب) وقال البراء ، خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن ، فقال (يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته) (د) ومن السنة أن ترد عن أخيك فى غيبته قال عليه السلام (من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار) (طب) .

باب فى علاج الغيبة

اعلم أن مساوىء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل . وعلى هذا فعلاج الغيبة له وجهان : الوجه الأول على الجملة . والوجه الثانى على التفصيل — أما الوجه الأول فهو أن يعلم أن تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته ، سبب لاحباط حسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته فى القيامة إلى من اغتابه فى الدنيا ، فإن لم تكن له

حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فعلى العبد بعد أن عرف ذلك أن يتجنب الغيبة وأن يتفكر فى نفسه ويشتغل بعيوبها ، قال صلى الله عليه وسلم (طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس) (البزار) أما إذا كان الذم فى خلقة العبد فيكون موجَّهاً لله سبحانه وتعالى ، وهذه جريمة كبرى ومصيبة عظمى ، فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها — فمثلا إذا صنع لك الخياط قميصاً فوجدت فيه عيباً وذممته فانك فى الحقيقة ذممت الخياط لا القميص ، لأن القميص ما جنايته إذا كان الخياط جعله طويلا أو قصيراً أو واسعاً أو ضيقاً ، فكذلك العبد لا ذنب له فى تصوير نفسه وتكوينه كما تراه — قال الله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) فمن ذا الذى يجرأ على توجيه الذم لفعل الخالق جل شأنه ، إلا إذا كان محروماً من العقل السليم . هذا علاج إجمالى . أما التفصيلى ، فعلى العبد أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فإن كان الغضب فليعالج الغضب بما أوردناه فى بابه ، وهو أن يقول إنى إذا أمضيت غضبى فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة ، إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بأمره . وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى) (ن) أما موافقتك الأصدقاء فى غيبة أخيك ، فاعلم أن الله تعالى يغضب عليك لأنك تعرضت لسخطه فى إرضاء المخلوقين — وأما الغيبة اقتداء بالناس لأنهم يغتابون غيرهم أمامك ، فهذا منتهى الجهل ، لأنه لا يجوز الاقتداء بمن يرتكب المعاصى ، فكل مجزى بما كسبت يداه . وأما كونك تغتاب أخاك لتهزأ به وتخزيه أمام الناس ، فاعلم أنك إنما تهزأ بنفسك وتخزيها أمام الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، يوم تضاف سيئات من استهزأت به إلى سيئاتك وتساق بها إلى النار . فلو تفكرت فى ذلك لرجعت عن الاستهزاء بأى مخلوق كان — هذا عقاب الآخرة — أما فى الدنيا فإنك لا تأمن عقوبة الله وهو أن يهتك سترك كما هتكت ستر أخيك — فعلاج ذلك إنما يكون بالمعرفة واليقين بهذه العاقبة التى هى من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك ، انكف لسانه عن الغيبة لا محالة . فهلموا أيها المسلمون وتوبوا إلى الله عن الغيبة قبل الممات ، عسى الله أن يتوب علينا جميعاً إنه هو التواب الرحيم .

باب فى الأعذار المرخصة فى الغيبة

لا يرخص فى ذكر مساوىء الغير إلا أغراض فى الشرع وهى ستة أمور ـ الأول ـ التظلم من القاضى الظالم ، أو الحاكم الجائر أو القادر المماطل ، فالمغتاب فى ذكر هؤلاء يكون عاصياً إن لم يكن قد وقع عليه ظلم منهم ، وإن ظلموه فلا معصية فى ذكر مساوئهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لصاحب الحق مقالا) (ق) وقال (لَى ّالواجد يُحل ّ عقوبتَه وعرضَه) أى مماطلة القادر (د) ــ الثانى ـ الاستعانة على تغيير المنكر ، وردّ العاصى إلى الصلاح ، فان لم يكن هذا غرض المغتاب كانت الغيبة حرام ــ الثالث ــ الشكوى كمن يشكو أباه من حرمانه ، أو زوجته من رداءة خُلقها ، أو أخاه من سوء تصرفه معه ، وغير ذلك ـ الرابع ـ تحذير المسلم من الشر ، فاذا رأيت فقيهاً يخوض فى البدع أو خارجاً على الجماعة ، وخِفت أن يتعدَّى ذلك إلى المسلمين ، فلك أن تكشف لهم بدعته وفسقه ، وتَحذرهم من مخالطته ، وكذلك المستشار فى التزويج له أن يذكر ما يعرفه من أمر المرأة لمن يريد الزواج بها ، على شرط أن يكون القول صحيحاً لا مبالغة فيه ، وأيضاً كل فاجر تخالطه الناس وتخاف عليهم من مخالطته ، لك أن تذكر لهم عيوبه حتى يعرفونه ، قال عليه السلام (أترغبون عن ذكر الفاجر ، اهتكوه حتى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس) (طب) وقيل ثلاثة لاغيبة لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه ، ـ الخامس ـ أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعبَّر عنه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول ذلك لضرورة التعريف ـ السادس أن يكون الرجل مجاهراً بالفسق كالمخنَّث ، وصاحب الماخور ، والمجاهر بشرب الخمر والمرتكب لأى منكر وكان يتظاهر به ، فاذا ذكرت مايتظاهر به فلا إثم عليك ، قال عليه السلام (من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غِيبة له) (ابن عدى) .

باب فى معنى النميمة ومذامها

النميمة تطلق على من ينقل كلام الغير إلى الشخص الذى قيل فيه ، كما تقول لإنسان فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وهذا يعتبر كشفُ ما يكره كشفه ، سواء بالقول

أو بالكتابة أو بالرمّز أو بالإشارة . والحقيقة أن النميمة هى إفشاء السر ، وهتك الستر ، عما يُكره كشفه ، وهى آفة مذمومة ، فيجب على العبد أن لا يتكلم بما يراه من أحوال الناس ، أو يسمعه من كلامهم ، إلا إذا كان فى كلامه فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية . وإليك ماورد فى ذم النميمة ، قال تعالى (همّاز مشاء بنميم) ثم قال (عتل بعد ذلك زنيم) . قال عبد الله بن المبارك ، الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث . وقال تعالى (وَيل لكلِّ هُمزة لمزة) قيل الهمزَة ، النمام ، وقال تعالى (حمالة الحطب) ، قيل إنها كانت نمامة حمالة الحديث . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة نمام) (ق) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ؛ وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرآء العثرات (طب) والنسائ من حديث عبد الله بن عمر (ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر) ؛ ويد ؛ اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات ؛ فلما قدم عليه قال ، إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم : إخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ؛ وعن الصخر وما أقسى منه ؛ وعن النار وما أحر منها ؛ وعن الزمهرير وما أبرد منه ، وعن البحر وما أغنى منه ؛ وعن اليتيم وما أذل منه . فقال له الحكيم — البهتان على البرىء أثقل من السماء ؛ والحق أوسع من الأرض ، وقلب الكافر أقسى من الصخر ، والحسد أحرّ من النار ؛ والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ؛ والقلب القانع أغنى من البحر ، والنمام إذا افتضح أمره أذل من اليتيم — أعاذنا الله من خزى الدنيا والآخرة .

باب فى خطر اللسان وفضيلة الصمت

إعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالصمت ، ولذلك مدح الشرع الصمتَ وحث عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من صمت نجا) (طب) وقال (الصمت حكم وقليل فاعله) أى حكمة وحزم . (حب) وروى عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال ، قلت يارسول الله اخبرنى عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال (قل آمنت بالله ثم استقم) قال قلت . فما اتقى ، فأومأ بيده إلى لسانه .

(ت) وقال عقبة بن عامر ، قلت يارسول الله ما النجاة . قال (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك) (ت) وقال عليه السلام (من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة) (خ) يعنى اللسان والفرج وبهما يهلك أكثر الخلق ، وقال معاذ بن جبل ، قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ، فقال (ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم) (ت) وقال عليه السلام (من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره) (ابن أبى الدنيا) وعن صفوان بن سليم قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ، الصمت وحسن الخلق) (ابن أبى الدنيا) وعن البراء بن عازب قال ، جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال (أطعم الجائع، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير) (ابن أبى الدنيا) ويروى أن عيسى عليه السلام — قال ، العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت ، وجزء فى الفرار من الناس ، فان قلت فما سبب هذا الفضل الكبير للصمت ، فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان ؛ من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش فى القول والمراء والجدال وتزكية النفس والخوض فى الباطل والفضول فى الكلام وإيذاء الخلق وهتك العورات حتى قولك أنا . ولى . وعندى . فهذه آفات كثيرة وهى سهلة على اللسان خفيفة عليه فى النطق ؛ ولكنها سلاسل تقود العبد إلى النار . فلنمسك اللسان بقدر الإمكان ، والله المستعان .

باب فى التكلم فى ما لا يعنى

إعلم أيها العبد أن أحسن أحوالك أن تحفظ لسانك من جميع الآفات التى ذكرناها ؛ وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا ، فإذا تكلمت بما أنت مستغن عنه فقد تكلمت بما لا يعنيك ، وبهذا قد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنك لو ذكرت الله تعالى لعاد ذلك عليك بالخير العظيم، فكم من كلمة واحدة يبنى بها قصر فى الجنة . فيا عجباً لابن آدم يقدر على كسب كنز من الكنوز

فيضيّعه ويأخذ مكانه حصاة لا ينتفع بها ، وبذلك تعظم خسارته ، وهذا حال من ترك ذكر الله واشتغل بمباح لا بغيبة ولا بنميمة فإنه وإن لم يأثم فقد خسر ، حيث فاته الربح العظيم لأن رأس مال العبد أوقاته فإذا صرفها فيما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله . قال عليه الصلاة والسلام (من حسن إسلام المرء ترك مالا يعنيه) (ه) وقال عمر رضى الله عنه — لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى ، وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال .

باب فى فضول الكلام

فضول الكلام هو أن تتكلم أكثر من الحاجة ، وهذا مذموم ، فان الأمر الذى يمكن أن تعبر عنه بكلمة واحدة ، وعبرت عنه بكلمتين فالثانية فضول ، قال الله تعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) وقال صلى الله عليه وسلم (طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله) (هب) .

باب فى الخوض فى الباطل

الخوض فى الباطل هو الكلام فى أمور المعاصى ، كأن تذكر أحوال النساء وصفاتهن وما يجرى فى محلات الفسق ونوادى شرب الخمر ، أو تبين للناس كيف ترتكب المعاصى ، فإن ذلك مالا يحل الخوض فيه وهو حرام . قال بلال بن الحارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) (ت) وقال عليه السلام (أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً فى الباطل) (طب) .

باب فى المراء والجدال

المراء والجدال هما من الآفات المهلكة ، ولا يسكنان إلا فى القلوب التى لم تستكمل حقيقة الإيمان — ولا يألف الجدال إلا رجل محب لنفسه يريد أن يظهر علمه وفضله على غيره . ولو كان يعلم للفضل معنى أو للعلم قدراً لما جادل أحداً . أما أصل هذه الآفة الخطيرة فهى أمراض فى القلب ، مثل الكبر والعجب وحب النفس . والمواظبة على الجدال تهيج الغضب ، ومتى هاج الغضب اشتد الشجار بين المتجادلين كما يشتد الهراش بين الكلبين . فالمتعمد للجدال والمراء هو والكلب سواء ، ومعنى المراء هو كل اعتراض على كلام الغير ، إما فى اللفظ وإما فى المعنى ، وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام المتكلم وتعجيزه وتنقيصه بالذم فى كلامه وتحقيره أمام الخلق ، وقد ورد فى ذم المراء والجدال كثير من الأخبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده وعداً فتخلفه) (ت) وقال عليه السلام (ما أضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدال) (ت) . وقال عمر رضى الله عنه — لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث — لا تتعلمه لتمارى به ولا لتباهى به ولا لترائى به ، ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضاً بالجهل منه . ونكتفى بذلك حيث أن ما ورد فى ذم المراء والجدال لا يحصى . فليتق الله محب الجدال ويكف لسانه عنه حتى لا يكون ممن أضلهم الله ، ولا يتبع وساوس الشيطان حين يقول له إن هذا من الشرع ، وليعلم أن صاحب التشريع صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك .

باب فى الخصومة

الخصومة هى لجاج فى الكلام وأخذ ورد ليستوفى به حق من الحقوق وهى مذمومة وقد ورد فى ذمها كثير وغير خاف ما تجره الخصومة من إيجاد العداوة والبغضاء فى القلوب مما لا يمكن إصلاحه ، وقد أصبحنا فى زمان نرى الشقاق فيه قد حل محل الوفاق بين الأفراد والجماعات ، وأصبح كل فرد متربصاً لأخيه يريد به الضرر فى بدنه وفى ماله فكثرت جرائم القتل، وعم الفساد فى الأرض ، وضاعت ثمرة الوعظ وكلت الوعاظ ، وما ذلك إلا لأن القلوب قد تحجرت وصارت ميادين للشياطين لخلوها من

التقوى فنسيت أوامر الدين ونواهيه ، وقد أمرنا بترك الخصومات ولين الكلام ومعاملة الناس بالحسنى قولا وفعلا . قالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) (خ) وقال عليه السلام (من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع) (ابن أبى الدنيا) وقال بشر ابن عبد الله والله ما رأيت أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع لِلذّة ولا أشغل للقلب من الخصومة . فاعلم أيها القارىء أن الخصومة والجدال واللجاج كلام مستنكر مؤذ للقلب منغص للعيش مهيج للغضب موغر للصدر فلنكف عنها كى نسلم من عواقبها .

باب فى الفحش والسب و بذاءة اللسان

كل هذا مذموم ومنهى عنه ومصدره خبث العبد ولؤمه . والفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فان لأهل الفساد عبارات فاحشة يستعملونها ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، فيكتفى فى ذلك بالإشارة أو العبارات المبهمة ، وكذلك لا يجوز أن تذكر ما يختص بنسائك وأهل بيتك ولا تذكر أسماءهن فى مجالس الرجال ، ويمكن التعبير عن ذلك بألطف الألفاظ — واعلم أن مَنْ به عيوب يستحى منها لا ينبغى لك أن تعبر عنها بصريح القول ، كالبرص والقراع والبواسير وغيره، وأيضاً الألفاظ التى يستعملها السوقة فى الشتم والمزاح فهى فحش ، ويجب النهى عنها . واليك بعض ما ورد فى ذم ذلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها) (ابن أبى الدنيا) وقال عليه السلام (إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح فى الأسواق) (طب) وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى ، فقال (عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشىء يعلمه فيك فلا تعيره بشىء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئاً) (طب) قال الأعرابى فما سببت شيئاً بعده . وقال عليه السلام (ملعون من سب والديه) قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه؟ قال (يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه) (طب) ألا فلنترحم أبوينا ونكف عن السباب .

باب فى اللعن

اللعن هو عبارة عن الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة مُبعدة عن الله عز وجل وهو الكفر والظلم والفسق والبدعة ، بأن تقول لعنة الله على الظالمين أو على الكافرين أو على الفسقة أو على المبتدعين ، وكل شخص ثبتت لعنته شرعا تجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله ، لأنه مات على الكفر لكن لا ينبغى لعن فاسق أو مبتدع بعينه قبل موته ، لأنه لا يعلم بماذا يختم له . كما لا يجوز أن ترمى مسلماً بفسق أو بدعة أو كفر من غير تحقيق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك) (ق) وقال عليه السلام (لا يكون المؤمن لعاناً) (ت) وقال عليه السلام (إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة) (م) واعلم أن لعن الحيوان أو الجماد مذموم ، قال عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ، فقال صلى الله عليه وسلم (خذوا ما عليها واعروها فإنها ملعونة) (م) قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لا يتعرض لها أحد .

وكذا سب الأموات منهى عنه . قال عليه الصلاة والسلام (لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) (خ) .

باب فى المزاح

المزاح مذموم منهى عنه شرعاً قال صلى الله عليه وسلم (لا تمار أخاك ولا تمازحه) (ت) فالإفراط فيه منهى عنه وكذا المداومة عليه . أما المدامة ، فلأنه اشتغال بالهزل عن ذكر الله . وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتسقط الهيبة والوقار ، قال صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً) (ق) وقال عليه السلام (إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً) (ق) نعم ما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم إلا حقاً أما غيره إذا مازح كان غرضه أن يضحك الناس فقط ، فإن قلت أيها القارىء ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

يمزح هو وأصحابه فكيف ينهى عنه فأقول : إن قدرت على ماقدرَ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلاحقاً ولاتؤذى قلباً فلاحرج عليك . ولكن من الغلط أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليها ، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . ألا فلنعلم أن هذا من غواية الشيطان ؛ وإليك مثل من مزاح النبى صلى الله عليه وسلم . قال الحسن أتت عجوز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه الصلاة والسلام (لا يدخل الجنة عجوز) فبكت فقال (إنك لست بعجوز يومئذ) قال الله تعالى (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً) هذا مثل من المزاح وهو الحق الصراح .

باب فى السخرية والاستهزاء

إعلم أن السخرية والإستهزاء بالناس محرم ؛ قال الله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن) ومعنى السخرية والإستهزاء ، الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب على وجه يضحك السامع منه ؛ وقد يكون بالتمثيل فى الفعل وفى القول وقديكون بالإشارة قال ابن عباس فى قوله تعالى (ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) إن الصغيرة التبسم بالإستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة بذلك وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . فوجب علينا أن نترك الإستهزاء بالناس وتعييرهم بما فيهم ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمَّ فيجيء بكربه وغمه ، فاذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيجيء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ، فما يزال كذلك حتى أن الرجل يفتح له الباب فيقال هلم هلم فلا يأتيه) (ابن أبى الدنيا) فلا تستهون عبارات الإستهزاء وتستصغرها كأن تضحك على كلام أخيك أو على أفعاله أو على مشيته أو على صنعته أو على صورته وخلقته لأن ذلك فى السخرية المنهى عنها .

باب فى إفشاء السر

إفشاء السر منهى عنه لما فيه من الخيانة والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة) (د) . وقال الحسن إن الخيانة أن تحدث بسر أخيك .

باب فى الوعد الكاذب

إعلم أن اللسان سباق إلى إعطاء الوعد وقد لاتفى به ، فيصير الوعد كاذباً وذلك من علامات النفاق . قال صلى الله عليه وسلم (ألو أى مثل الدَّين أو أفضل) (ابن أبى الدنيا) والو أى الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال تعالى (إنه كان صادق الوعد) . وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) (ق) فمن واعد وهو عازم على الخلف فهو منافق ، أما إذا عزم على الوفاء فطرأ عذر قهرى منعه لم يكن منافقاً ، ولكن عليه أن يحتاط لنفسه حتى لا يقع فى الأعذار .

باب فى الكذب فى القول وفى الحلف

الكذب فى القول والحلف من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال إسماعيل ابن واسط سمعتُ أبا بكر الصديق رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فقال — قام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال (إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار) (ق) وقال عليه الصلاة والسلام (كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب) (خ) وقال عليه السلام (إن التجار هم الفجار) فقيل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع قال (نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون) (ك) وقال عبدالله ابن جراد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله هل يزنى المؤمن ؟ قال (قد يكون ذلك) قلت يانبى الله هل يكذب المؤمن قال (لا) ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله)

(ابن عبد البر) . وقال عليه الصلاة والسلام وكان متكئاً (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين) ثم قعد وقال (ألا وقول الزور) (ق)

واعلم أن الكذب مباح فى بعض الأمور للضرورة . روى عن أم كلثوم قالت ماسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يرخِّص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث (الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدِّث امرأته والمرأة تحدث زوجها) (م) واعلم أن الكذب فى المنام منهى عنه . قال صلى الله عليه وسلم (من كذب فى حُلُم كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شَعيرتين وليس بعاقد بينهما أبداً) (خ) .

باب فى ذى اللسانين

ذو اللسانين هو الذى يتردَّد بين المتعاديَيْن بالكلام فيكلم كلَّ واحد منهما بكلام يوافقه وهذا هو عين النفاق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث) وفى لفظ آخر (هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) (ق) .

باب فى علامة حسن الخلق

كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أقل مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن أنه قد تهذب وحسن خلقه . لذلك رأينا أنه لابد من إيضاح علامة حسن الخلق ، لأن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . ولما كانت صفات المؤمنين هى ثمرة حسن الخلق ، وصفات المنافقين هى ثمرة سوء الخلق، فقد ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز ، وإليك بعض ماجاء به من علامات حسن الخلق . قال تعالى وهو أصدق القائلين (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) وقال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غَراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ،

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يَدْعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومَن يفعل ذلك يَلقَ أثاما ، يُضاعَف له العذاب يوم القيامة ويَخْلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُما وعُميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يُجْزون الغرفة بما صبروا ويلقَّون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنَتْ مستقراً ومقاما ، قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لِزاما) . فمن أشكل عليه حاله فليَعرض نفسه على هذه الآيات ، فان وجودَها جميعَها عند العبد علامة حسن الخلق ، وفقدها جميعها علامة سوء الخلق . ووجود البعض دون البعض يدل على البعض دون البعض ، وهكذا . فعلى العبد أن يشتغل بتحصيل مافقده من هذه الصفات ويحفظ ما وجده . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا) (ق) وقال بعض الصالحين علامة حسن الخلق هى — أن يكون كثيرَ الحياء قليلَ الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزَّلل قليلَ الفضول براً وَصولا وقوراً صَبورا شكوراً راضيا حليما رفيقا عفيفاً شفيقاً لا لعَّاناً ولا سبَّاباً ولا نمَّاماً ولا مغتاباً ولا عجولا ولا حقوداً ولا بخيلا ولا حسوداً بشاشاً هشاشاً يحبّ فى الله ويرضى فى الله ويَغضب فى الله . ولما كانت علامة حسن الخلق الصبر على الأذى ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قال حينما أكثرت قريش من إيذائه (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يَعلمون) (ق) . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ، فقال من قيس بن عاصم . قيل ومابلغ من حلمه ؟ قال بينما هو جالس فى داره إذ أتته جارية له بسفود (حديد يشوى عليها اللحم) عليها شِواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية ، فقال لها لا رَوع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى ، فهذه نفوس قد ذللت وقلوب قدتطهرت

فأثمرت الرضى بكل ماقدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق — أما منتهى سوء الخلق فهو أن يكره العبد فعل الله تعالى ولا يرضى به .

باب فى فضيلة حسن الخلق

اعلم أن الخلق الحسن هو صفة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وأفضل أعمال الصدِّيقين ، وهو على التحقيق شطر الدِّين وثمرة مجاهدة المتقين . قال الله تعالى لنبيه وحبيبه صلى الله عليه وسلم مثنياً عليه ومظهراً نعَمه لديه (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (ك) وقال عليه السلام (أثقل مايوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق) (دت) وقيل يارسول الله ما الشؤم . قال (سوء الخلق) (ق) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى . فقال (اتق الله حيث كنت) قال زدنى قال (أتبع السيئة الحسنة تمحها) قال زدنى قال (خالق الناس بخلق حسن) وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال (لاخير فيها هى من أهل النار) (ك) وقال عليه السلام (إن الله استخلص هذا الدِّين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ؛ ألا فزينوا دينكم بهما)(ق) وقال عليه الصلاة والسلام (إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً) (طب) وقال عليه السلام (ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله ؛ تقوى تحجزه عن معاصى الله ، أو حلم يكف به السفيه ، أو خلق يعيش به بين الناس) وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم (إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف فى العبادة) (طب) وقال عليه السلام (إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم) (طب) وقال عطاء ماارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق جعلنا الله منهم .

باب فى فضيلة القناعة وذم الحرص والطمع

يجب على العبد أن يكون قانعاً فلا يطمع فى الخلق ولا يلتفت إلى ما فى أيديهم ، وكذلك لا يكون حريصاً على اكتساب المال كيف ما كان ، ففى القناعة فضائل لا تحصى ، كما أن الحرص والطمع آفة مهلكة ولا يمكن للانسان أن يكون غير طامع وغير حريص إلا إذا قنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن وقصَّر أمله فى الحياة . ولكن قد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا يبغى لها ثالثاً ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) (ق) وقد أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم (طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به) (ت) وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال — أى عبادك أغنى — فقال — أقنعهم بما أعطيته — قال فأيهم أعدل . قال من أنصف من نفسه — وقال عليه السلام (كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا) (ه) . وقال عمر رضى الله عنه إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإن من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم . وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال ابن مسعود ما من يوم إلا وملك ينادى يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يُطغيك .

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها . قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج وقال ابن عطاء الله السكندرى أنت حر لما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع — ومعنى ذلك أن الطمع فى الشىء دليل على الحب له وذلك عبودية له ، كما أن اليأس من الشىء دليل على إفراغ القلب منه وغناه عنه وذلك حرية منه — فالطامع عبد والقانع حر .

ونذكر هنا مثالا لتعرف به كيف تكون الهمة السنية فى القناعة باليسير . قال بعض الصالحين خرجنا من المدينة حجاجا ، فلما كنا بالزاوية نزلنا ، فوقف بنا رجل

عليه ثياب رثة وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة ، فقال من يبغى خادماً من يبغى ساقياً ، فقلت دونك هذه القربة فأخذها وانطلق فلم يلبث إلا يسيراً حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طيناً وأثرت القربة فى كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك ، ثم قال ألكم غيرها قلنا لا ، وأطعمناه قرصاً بارداً فأخذه وحمد الله سبحانه وتعالى وشكره كثيراً ثم اعتزل وقعد يأكل أكل جائع ، فأدركتنى عليه الشفقة ، فقمت اليه بطعام طيب كان معنا وأكثرت له منه ، وقلت له قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام ، فنظر فى وجهى وتبسم وقال يا عبد الله ، إنما هى فورة جوع فلا أبالى بأى شىء رددتها عنى فرجعت عنه ، فقال لى رجل إلى جنبى أتعرفه قلنا لا قال إنه رجل من بنى هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب هذا ولد سليمان ابن جعفر المنصور كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها ففقد فما عرف له أثر ، فأعجبنى قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له يا فتى أنا رجل من إخوانك قد بلغنى موضعك فأحببت الاتصال بك فهل لك أن تعادلنى ، فإن معى فضلا من راحلتى ، فجزانى خيراً وقال لو أردت هذا لكان لى معدّا — ثم أنس إلى وجعل يحدّثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبر شديد وتجبر وبذخ وإنى أمرت خادمة لى أن تحشو لى فراشاً من حرير ومخدة من نثير الورد ، وبينما أنا نائم إذ بقمع وردة قد غفلت عنه الخادمة ، فقمت اليها وأوجعتها ضرباً ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة ، فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى ، وقال لى أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول :

ياخدُّ إنك إن توسَّد ليِّنا وسِّدتَ بعد الموت صمَّ الجندل
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به فلتندمن غداً إذا لم تفعل

قال فانتبهت فزعاً فخرجت من ساعتى إلى ربى هاربا . فهذا خبرى ، قال الحاج فلما فض حديثه هذا إنخنس عنى ومضى .

باب فى علاج الحرص والطمع

علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به القناعة مركب من ثلاثة أشياء

الصبر والعلم والعمل ، وتحت ذلك خمسة أمور ــ الأول ــ الاقتصاد فى المعيشة . قال النبى صلى الله عليه وسلم (من اقتصد أغناه الله ، ومن بذر أفقره الله ، ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله) (البزار) الأمر الثانى ــ أنه إذا تيسر له فى الحال مايكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، وليعلم بأن الرزق الذى قدر له لا بد أن يأتيه . قال الله تبارك وتعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) الأمر الثالث ــ أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء ، ومافى الحرص والطمع من الذل ، قال صلى الله عليه وسلم (عز المؤمن استغناؤه عن الناس) (طب) وقيل ــ استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ــ الأمر الرابع ــ أن يكثر تأمله فى تنعم أراذل الناس والحمق ومن لا دين لهم ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وسائر الصحابة والتابعين ، ويطالع أحوالهم ثم يخير عقله أيكون مثل أراذل الناس الذين ليس لهم حظ فى الآخرة أم يقتدى بمن هم أعز الخلق عند الله ، وليعلم أنه إن تنعم فى الأكل فالحمار أكثر أكلا منه ، وإن تنعم فى الوقاع فالخنزير أقوى حالا منه ، وإن تزين فى الملبس وركوب الخيل وسائر أنواع المركبات ففى اليهود والمجوس من هو أعلى زينة منه أما إذا قنع بالقليل ورضى به فلم يشاركه فى رتبته هذه إلا الأنبياء والأولياء والصالحون ــ الأمر الخامس ــ أن يعلم مافى جمع المال من الخطر على دينه . قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال عز وجل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) وقال عليه الصلاة والسلام (سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون اليها اتخذوها إلها من دون إلههم ورباً دون ربهم الى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون فعزيمة من محمد ابن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام) للطبرانى ، وقال عليه الصلاة والسلام (أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه

إلى قبض روحه ، والثانى إلى قبره ، والثالث إلى محشره ، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذى يتبعه الى محشره فهو عمله) (طب) وروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر أقعدونى فأقعدوه فقال ، أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهما فانى لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم ، وإنما ولدى أحد رجلين ، إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما عاص لله فلا أبالى على ما وقع ، وقال يحي بن معاذ مصيبتان لم يسمع الأولون والاخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته . قيل وماهما . قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله ، وقال صلى الله عليه وسلم (اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه) (ق) فبهذه الأمور يقدر على اكتساب القناعة ، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء فى انتظار الشفاء .

باب فى فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه فى الدنيا يقول الله تعالى أنظروا إلى عبدى أبليته بالطعام والشراب فى الدنيا فصبر وتركهما، اشهدوا يا ملائكتى ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات فى الجنة) (ابن عدى) .

وقال عليه السلام (ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) (ت) وقال عليه السلام (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش) (ابن أبى الدنيا) وقال عليه السلام (إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملآى وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة فى الجنة) (طب) وقال أبو هريرة ماشبع النبى صلى الله عليه وسلم

ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا) (م) وقال أنس جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ماهذه الكسرة) قالت قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة فقال عليه الصلاة والسلام (أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام) . (الحارث بن أبى أسامة) .

باب فى ذم الغنى ومدح الفقر

قد اختلف الناس فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل ، ولكننا ندل هنا على أن الفقر أفضل من الغنى على الجملة وأسلم للدين ، ونقتصر على ذكر بعض ما قاله الحارث المحاسبي رضى الله عنه للرد على بعض العلماء الأغنياء الذين احتجوا بأغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبدالرحمن بن عوف — والمحاسبى رحمه الله حبر الأمة فى علم المعاملة وإمام الباحثين عن عيوب النفس وأمراض القلوب وآفات الأعمال ومن كلامه فى الرد على علماء السوء قال — بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام قال — يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون مالا تعملون فياسوء ما تحكمون . تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته — ياعبيد الدنيا لاكعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم — ثم قال المحاسبى رحمه الله — إخوانى — فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله . ألا فراقبوا الله إخوانى ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه فتزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ويحك أيها المفتون إن

احتجاجك بمال الصحابة مكيدة من الشيطان يتعلق بها على لسانك فتهلك لأنك متى زعمت أن الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت محمدا والمرسلين ، ونسبتهم إلى قلة الرغبة فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك ونسبتهم إلى الجهل . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أفضل من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال (ابن عدى) وقد غشهم حينئذ ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رءوفاً . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال ، أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم بأن الفضل فى الجمع كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى ، إقلع عن جهلك أيها المفتون ، تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة . ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف ؛ وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت فى الدنيا إلا قوتاً .

وقد بلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها ماهذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن قالت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إنى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حبواً) فقال عبد الرحمن إن العير وما عليها فى سبيل الله وإن أرقاءها أحرار لعلى أن أدخلها معهم سعياً) (احمد) وفيه أقاويل كثيرة . ويحك أيها المفتون فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة أيضاً ؛ يوقف فى عرصات القيامة بسبب مال كسبه من حلال وأنفق منه قصداً وأعطى فى سبيل الله سمحاً كريماً منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو فى آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا . وبعد فالعجب كل العجب

لك يامفتون تتمرغ فى تخاليط الشبهات وتتكالب على أوساخ الناس وتتقلب فى الشهوات والزينة والمباهاة وتتقلب فى فتن الدنياثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة ولعمرى لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل فى سبيل الله، فكسبوا حلالا وأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً وقدموا فضلا ولم يمنعوا منها حقاً ولم يبخلوا بها لكنهم جادوا لله بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً فبالله أكذلك أنت — لا .

أما أنت فتدّخر المال وتجمعه خوفا من الفقر ؛ وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه وكفى بذلك إثما . وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم فربت عليه أجسامهم) (البزار) . نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة فى الدنيا . وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقى الله وهو عليه غضبان ؛ ويحك كن على يقين أن جمع المال حتى لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام ؛

وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام) (ق) أيها المغرور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر . فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله ويحك إن كنت كما تزعم بالغاً فى الورع فلا تتعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة وبلغنا أن بعض الصحابة قال ما سرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها فى طاعة الله ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة قالوا ولم ذاك رحمك الله . قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول : عبدى من أين اكتسبت وفى أى شىء أنفقت .

فهؤلاء المتقون كانوا فى جدّة الإسلام والحلال موجود لديهم تركوا المال خوفاً من الحساب وخوفاً من أن يقوم خير المال بشره ، والحلال فى زماننا مفقود ؛ ومع

ذلك تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك أين الحلال فتجمعه . وبعد فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك . وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أنقى من قلوب الصحابة فلا يزول ولا يتحول عن شيء من الحق فى أمرك وأحوالك ، لئن ظننت ذلك فقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء . ويحك إنى لك ناصح ، أرى لك أن تقنع باليسير ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب . قال عليه السلام (يدخل صعاليك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام) (ت) .

ولقد بلغنى أن أبا بكر رضى الله عنه عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العَبْرَة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له كل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه آحد فى البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول (اليكِ عنى) فقلت له فداك أبى وأمى ، ما أرى بين يديك أحداً فمن تخاطب . فقال (هذه الدنيا تطاولت إلىَّ بعنقها ورأسها فقالت يا محمد خذنى ، فقلت إليكِ عنى ، فقالت إن تنج منى يا محمد فإنه لا ينجو منى مَن بعدك) (ك) فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا قوم فهؤلاء الأخيار بكوا خوفا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ، ويحك يا أخى أنت فى أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات ولا تخش الانقطاع ، أفٍّ لك ما أعظم جهلك .

وبعد فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم ، واحتياطهم ،وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم دُهِينا وربِّ السماء بأمراض القلوب وأخطارها ، وآفات النفوس وأهوالها ؛ وعن قريب يكون الوُرود ، فياسعادة المقلين يوم النشور ، وحزن كبير لأهل التكاثر والادخار يوم العرض على الملك الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء) (أحمد) .

باب فى فضيلة الفقر

اعلم أن كل مخلوق فقير لله تعالى لأنه محتاج إلى دوام الوجود، ودوام وجوده مستمدٌ من فضل الله عز وجل، وإلى هذا أشار قوله تعالى (والله الغنىُّ وأنتم الفقراء) ولسنا نقصد هنا فقر العبد بالنسبة لحاجاته الدنيوية، فإن هذا لا يدخل تحت حصر. وإنما نعنى فقد المال، فكل من فقد المال فهو فقير بالنسبة للمال الذى فقده وهو محتاج اليه، كالجائع المحتاج إلى الخبز والعارى الفاقد للثوب. أما الزاهد فهو الذى يستوى عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذَّ إن فقده، كحال السيدة عائشة رضى الله عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها، فقالت خادمتها ما استطعتِ فيما فرقتِ اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه. فقالت لو فكرتنى لفعلتُ. فتسمى هذه الحالة حالة المستغنى لأنه يرى أن المال فى خزائن الله تعالى لا فى يده؛ بخلاف من يفرح بكثرة ماله فهذا فقير إلى بقاء المال فى يده لا غنى. وقد مدح الله تعالى الفقير فقال (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) وقال تعالى (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض) ساق سبحانه وتعالى الكلام فى موضع المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة واضحة على فضيلة الفقر. والأخبار الواردة فى مدح الفقر أكثر من أن تحصى، منها ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه (أى الناس خير) فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله. فقال (نعم الرجل هذا وليس به) قالوا فمن خير النـاس يا رسول الله، قال (فقير يعطى جهده) (أبو منصور) وقال عليه الصلاة والسلام (إلق الله فقيرا ولا تلقه غنياً) (ك).

وعن أبى رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر وقال (قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقاً إلى هلال رجب) قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال (أما والله إنى لأمين فى أهل السماء أمين فى أهل

الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت اليه ، اذهب بدرعى هذا اليه فارهنه) فلما خرجت نزلت هذه الآية (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) الآية (ق) وقال عليه الصلاة والسلام (من أصبح منكم معافى فى جسمه آمناً فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) (ق).

ولما قالت أغنياء العرب للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوماً ولهم يوماً ، يجيئون إليك ولا نجيء ، ونجيء إليك ولا يجيئون ؛ يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب وعمار وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين ، لأنهم شكوا اليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فتتصاعد منه الروائح فى شدة الحر وكره الأغنياء ذلك منهم الأقرع بن حابس وعيينة الفزارى وعباس بن مرداس وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم) يعنى الفقراء (تريد زينة الحياة الدنيا) يعنى الأغنياء (سلمان) واستأذن ابن أم مكتوم وكان أعمى على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يزكى أويذكر فتنفعه الذكرى) يعنى ابن أم مكتوم . (أما من استغنى فأنت له تصدى) يعنى هذا الشريف ، هاتان الحادثتان تدلاننا على عظيم حب الله تعالى للفقراء ، وقال عليه السلام (أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فان لهم دولة) قالوا يارسول الله وما دولتهم ؛ قال (اذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم أمضوا به الى الجنة) ، أرجو من القارىء المحب للنبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته رضوان الله عليهم ؛ أن يتأمل الحديث الآتى كى يقنع بحاله ويرضى عن ربه ، قال عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة فقال (ياعمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) قلت نعم بأبي أنتَ وأمى يارسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال (السلام عليكم أأدخل) فقالت أدخل يارسول الله قال

(أنا ومن معى) قالت ومن معك يارسول الله ؟ قال (عمران) فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعلىّ إلا عباءة ؛ قال (اصنعى بها كذا وكذا) وأشار بيده ؛ فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؛ فألقى اليها ملاءة كانت عليه قديمة خلقة فقال (شدى بها على رأسك) ثم أذنتْ له فدخل .

فقال (السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت) قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعاً على ما بى ، انى لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (لا تجزعى يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاماً منذ ثلاث ، وانى لأكرم على الله منك لو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها (أبشرى فوالله انك لسيدة نساء أهل الجنة) ، قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، قال (آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك ، أنكن فى بيوت من قصب ، لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب) ثم قال لها (اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً فى الدنيا سيدا فى الآخرة) (أحمد) و (طب) من حديث معقل بن يسار وفيه (اما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما) واسناده صحيح . وقال ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال (يا ابن عمر مالك لا تأكل) فقلت يارسول الله لا أشتهيه فقال (لكنى أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ولم أجده ولو سألت ربى لأعطانى ملك قيصر وكسرى ، فكيف بك يا ابن عمر إذا أبقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فى قلوبهم) قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبىء رزقاً لغد) (ق) فتأمل ماكان عليه نبيك صلى الله عليه وسلم . وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها فقال لها (إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه) (ت)

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم ، أتريد أن أمحو إسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبداً . وقال بعض الحكماء تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان . وقال سفيان رحمه الله تعالى اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب .

وفى هذا القدر كفاية لأولى الألباب ــ أغنانا الله وإياكم بالقناعة

باب فى آداب الفقير فى فقره

إعلم أن للفقير آداباً فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى عليه أن يراعيها ؛ فأما أدب باطنه فلا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى وإن كان كارهاً للفقر ذاته ، وهذه أقل الدرجات وهو الواجب على كل عبد ، وغير ذلك حرام ومحبط لثواب الفقر ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم (يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا) (أبو منصور الديلمى) وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر نفسه بل يكون راضياً به . أما الدرجة العليا فهى أن يكون العبد طالباً للفقر وفرحا به لعلمه بمضار الغنى وبفضيلة الفقر ، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم اجعل قوت أهل محمد كفافاً) (م) وقال عليه السلام (طوبى لمن هُدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا ورضى به) (م)

فينبغى على العبد متى عرف ذلك أن يكون قانعاً بفقره ومتأدباً فى حالة الفقر ، قال على كرم الله وجهه إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ، فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسُن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله سبحانه وتعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء . وهذا يدل على أن الفقر لا يكون محموداً إلا إذا لم يتسخط صاحبه ويرضى ويفرح به لعلمه بثمرته ــ أما أدب ظاهر

الفقير فينبغى أن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى بل يستر فقره أمام الناس قال الله تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال) (ه) وأما أدبه فى المعاملة فلا يتواضع لغنى لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل . وأما أدبه فى أفعاله فانه لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع أن يتصدق بقليل ما يفضل عنده فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة يتصدق بها الغنى . روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم) قيل وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال (أخرج رجل من عرَض ماله ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف) (ن) وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر حاجته ويخرج الباقى والله أعلم .

باب فى فوائد المال

كلنا نعرف أن المال له فوائد وهذه الفوائد تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها لأنها معروفة للجميع . وأما الدينية فتنحصر فى ثلاث أنواع الأول — أن ينفقه على نفسه فى عبادة الله تعالى أو فى الإستعانة على العبادة . مثل أداء فريضة الحج والإنفاق فى المطعم والملبس والمسكن والزواج وباقى ضروريات الحياة لأن هذه الأشياء إذا لم تتيسر للعبد كان قلبه مشغولا بها فلا يتفرغ للعبادة ، لذلك شدّد على الأغنياء لتيسر أسباب المعيشة لديهم . الثانى — ما يصرفه على الناس وهو أربعة أقسام . الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام . أما الصدقة فلا يخفى ثوابها ويدخل فيها ما ينفقه الرجل على أولاده وأهل بيته . وأما المروءة فهى صرف المال إلى غير الفقراء وهى الضيافة والهدايا التى تقدم إلى الأحباب والأقارب والعظماء وغيرهم وكذا الأعانات التى تبذل فى أمور تعود فائدتها على غير الفقراء ، فهذا كله من الفوائد الدينية ، ويعظم ثوابه عند الله تعالى — وأما وقاية

العرض فنعنى بها إعطاء المال لدفع هجو الشعراء واتقاء ألسنة السفهاء ودفع شرهم وهذا أيضاً من الفوائد الدينية ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ماوُقى به المرء عرضه كتب له به صدقة) (أبو يعلى) . وأما انفاق المال فى أجور الاستخدام فهو حلال لأن العبد محتاج إلى من يهىء له أسباب معيشته ؛ إذ لو تولاها بنفسه لتعذر عليه أداء الفرائض فى أوقاتها — ولكن الذى لا مال عنده يضطر لخدمة نفسه بنفسه (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . الثالث — إنفاق المال فى الخيرات العامة التى لا تقتصر فائدتها على شخص معين ؛ كبناء المساجد وتعميرها ؛ وتمهيد الطرق وإنشاء القناطر وبناء المستشفيات ودور التعليم ودور تحفيظ القرآن والملاجىء والانفاق عليها ؛ وغير ذلك من الأوقاف المخصَّصة للخيرات والمنافع العامة — هذه هى فوائد المال لمن تأمل واستبصر.

أما صرف المال فى بناء الدور للزينة والتفاخر فاليك بيانه :

باب فيما ورد عن بناء الدور من الأخبار

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله فى البنيان) (طب) . وعن أبى العالية أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه بنى غرفة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (إهدمها) فقال أهدمها أو أتصدق بثمنها ؟ قال (إهدمها) (د و طب) . وعن جابر قال . قال رسوالله صلى الله عليه وسلم (كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على أهله كتب له صدقة ، وما وُقى به المرء عرَضه كتب له به صدقة ، وما أنفق المؤمن من نفقة فان خلفها على الله والله ضامن ، إلا ما كان فى بنيان أو معصية) (ك) وقال عليه السلام (النفقة كلها فى سبيل الله إلا البناء فلا خير فيه) (ت) وقال عليه السلام (يؤجر الرجل فى نفقته كلها إلا فى التراب) أو قال (فى البناء) (ت) . وستقرأ أن تطاول البناء من أمارات الساعة .

باب فى حكمة خلق الدراهم

اعلم أن لكل شىء فى الوجود غرضاً خُلق من أجله على أن لا يستعمل فى غيره . فقد خلق الله سبحانه وتعالى الدنيا وما فيها كى يستعين الخلق بها على الوصول اليه

تعالى ، ولا وصول اليه إلا بالعبادة والذكر ، ولا تحصل العبادة والذكر إلا بدوام صحة البدن ؛ ولا يبقى البدن صحيحاً إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلقِ سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً ؛ فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية القلب ، والقلب هو المطالَب أمام الله تعالى بحسن العبادة ودوام الذكر . فلذلك قال الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فكل من استعمل شيئاً من متاع الدنيا فى غير طاعة الله تعالى فقد كفر نعمة الله فيه .

ومن نعم الله تعالى أن خلق الدراهم والدنانير وهما حجران لا منفعة فى ذاتهما ولكن يحتاج الخلق اليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أشياء كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، ولا يتأتى وجود جميع ما يحتاجه الإنسان عنده ؛ بل لا بد أن يحتاج إلى أشياء فى الوقت الذى يملك فيه أشياء غير محتاج إليها ؛ كمثل من يملك الغلال وهو محتاج إلى جمل ؛ أو يملك الجمل ويحتاج إلى كسوة ؛ فلإمكان حصول الإنسان على ما يحتاجه واستغنائه عما هو غير محتاج اليه ؛ لابدّ من وجود حَكم يحكم بين جميع الأشياء بالعدل ؛ ويضع لكل منهما رتبة ويبيِّن قيمته ؛ لأن صاحب الجمل لا يستغنى عن جمله بمقدار من الغلال ، لذلك خلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمَين ومتوسطَين بين سائر الأشياء ، فيقال هذا الجمل يساوى خمسين ديناراً ؛ وهذا القدر من الغلال يساوى عشرين ديناراً ؛ فيأخذ صاحب الجمل كمية الغلال وثلاثين ديناراً من صاحبها ؛ وبذا تتم المعاوضة بينهما . وهكذا فى سائر الأشياء ؛ وعلى ذلك فكل من استعملهما فى غير هذا فقد خالف حكمة خلقهما وكان كافراً بنعمة الله فيهما ؛ ومن كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما ؛ لأنهما لم يخلقا لزيد من الناس خاصة حتى يحجزهما تحت يده . ولذلك نهى الله تعالى عن كنزهما وقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) وكذا من اتخذ من الذهب والفضة آنية فقد كفر النعمة أيضاً ، وكان أسوأ حالا ممن كنز ؛ لأن أنواع الخزف والنحاس وغيرهما يمكن استعمالها فى صنف الأوانى ولكن لا تستعمل فى غرض التداول وانتظام التعامل كما سبق ، فمن رآى بعين البصيرة وتأمل إلى هذه الحكم البالغة وجد أن من يشرب فى آنية منْ ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه

نار جهنم كما فى الحديث ، وأيضاً كل من أخذ الربا فقد كفر النعمة فى الدراهم والدنانير وظلمهما لأنه قد اتخذهما تجارة يتَّجر فى ذاتهما وهو مخالف للحكمة الإلهية التى خُلقا لها وهذا حرام .

باب فى عقوبة استعمال أوانى الذهب والفضة

عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الذى يشرب فى آنية الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم) رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية لمسلم (إن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم) وقال عليه السلام (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة) (ق) وقال عليه السلام (من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربه فى الآخرة ومن شرب فى آنية الذهب والفضة لم يشرب بها فى الآخرة) ثم قال (لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة) (ك) .

باب فى فوائد العزلة وآدابها

فوائد العزلة تنقسم إلى قسمين دينية ودنيوية ؛ فالدينية عبارة عن التمكن من القيام بالطاعات والمواظبة على العبادات . وأما الدنيوية فهى تمكن الانسان من القيام بعمله — والذى يهمنا هو الفوائد الدينية . قال ابن عطاء الله السكندرى — ما نفع القلبَ مثل عزلة يدخل فيها ميدان فكرة . ومعنى ذلك أن العزلة هى انفراد القلب بالله تعالى ؛ ويراد بها الخلوة التى هى انفراد الجسم عن الناس ؛ لأنه لا ينفرد القلب إلا إذا انفرد الجسم : نقول لا شىء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة لأن العزلة كالحمية والفكرة كالدواء فلا ينفع الدواء من غير حمية ، ولا فائدة فى الحمية من غير دواء ، فكذلك لا خير فى عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها . فالمقصود من العزلة هو تفرّغ القلب من المشاغل الدنيوية والمقصود ؛ من التفرغ هو جَوَلان القلب فى الفكر وتحصيل العلم وتمكنه من القلب ؛ وفى هذا دواؤه وفيه شفاؤه وغاية صحته ، وهو الذى سماه الله القلب السليم ؛ قال الله تعالى فى شأن القيامة (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) فالقلب مثل

المعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا تنفعها إلا الحمية ، وهى منع وصول المواد اليها ، وكذلك القلب إذا تراكمت عليه الخواطر واستحوذت عليه الشهوات مرض وربما مات ، ولا ينفعه فى هذه الحالة إلا الحمية وهى العزلة والفرار من مواطن الشهوات . واعلم أن فى العزلة فوائد — منها السلامة من آفات اللسان ، فإن الإنسان إذا كان وحده لا يجد من يتكلم معه ، وحفظ البصر والسلامة من آفات النظر ، وحفظ القلب وصيانته عن الرياء والمداهنة وغيرهما ، قال بعض الحكماء — من خالط الناس فقد داراهم ، ومن داراهم فقد راءآهم ومن راءآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا — والسلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال ، لأن فى مخالطتهم فسادا عظيما وخطرا جسيما والتفرغ للعبادة والذكر ، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ للعبادة وتمكن من الاطلاع على الكتب الدينية وتحصيل ما ينفعه منها وهذا لا يتأتى فى الخلطة .

والتمكن أيضاً من التفكر فى خلق السموات والأرض وهو المقصود الأعظم من الخلوة ، لأن التفكر هذا خير العبادات فهذه بعض فوائد العزلة . ونوصى بها إخواننا المسلمين ففيها الخير كله خصوصاً فى هذا الزمن الذى لا يجد الانسان فيه على الخير أعواناً . أما آداب العزلة فهو أن ينوى بها كف أذاه عن الناس وطلب السلامة من شر الأشرار والتجرد بكل همته لعبادة الله ، وليعمل على عدم إكثار زيارة الناس له حتى لا يضيع وقته فى مقابلتهم ، وليكف عن السؤال عن أخبار الخلق ولا يصغى إلى أراجيف البلد ما دام لا يعنيه من هذه الأخبار شىء ، فإن كل ذلك ينغرس فى القلب فينبعث أثناء الصلاة ، وأهم شىء للمعتزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله ، والأخبار التى يوردها عليك الزائرون ينابيع الوساوس وأصولها ، وليتحمّل أذى جيرانه ولا يصغى لما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة ، وليكن له زوجة صالحة أو جليس صالح يستريح إليه ويأنس به فى عزلته .

باب فى فوائد المخالطة

قد بينا فى الباب السابق بعض فوائد العزلة وآدابها ، ونبين هنا إن شاء الله تعالى فوائد المخالطة .

إعلم أن من الأغراض الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ؛ وكل ما تتحصل عليه بالمخالطة يضيع بالعزلة ، وعلى ذلك فالمخالطة أيضاً لها فوائد .

منها — التعليم والتعلم — وهما أعظم العبادات فى الدنيا فالمحتاج إلى التعلُّم ليصحح عبادته عاص بالعزلة ، أما إذا تعلم الفرض واشتغل بالعبادة إذا لم يقدر على التبحر فى تحصيل علوم الشرع فالعزلة خير له . أما إذا استطاع التبحر فى العلوم واقتصر على تعلم الفرائض ، فالعزلة فى حقه غاية الخسران . وعلى ذلك فالجهّال والعوامّ الذين يحسنون العبادة ولا يعرفون جميع ما يلزمهم فيها فلا خير فى اعتزالهم ، فكما أن المريض يحتاج إلى طبيب يعالجه ويلطف ألمه ، كذلك القلب المريض بجهله إذا خلا بنفسه واستغنى عن العالِم يزداد لا محالة مرضه .

أما التعليم ففيه ثواب عظيم متى صحت نية المعلم والمتعلم .

ومنها النفع — والانتفاع — أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة ، ولا يتأتى ذلك إلا بالمخالطة ، والمحتاج إلى قوته مضطر لترك العزلة . أما إذا كان لديه ما يغنيه عن الناس وقنع به فالعزلة أفضل ؛ لا سيما إذا رأى أن المكاسب لا تتأتى إلا من طرق المعاصى والخروج عن حدود الشرع — وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه ، فيقوم بحاجاتهم لأن السعى فى قضاء حوائج المسلمين له ثواب عظيم ، وهو أفضل من العزلة ، بل ومن الاشتغال بالنوافل . أما من فتح الله عليه بدوام ذكر أو فكر فالعزلة أفضل ، لأن مثل هذه العبادات لا يعدُلها شيء البتة .

ومنها — التأديب والتأدب — ونعنى بالتأدب رياضة النفس فى تحمل أذى الخلق وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة وهى أفضل من العزلة فى حق الذين لم تتهذب أخلاقهم ولم تذعن لحدود الشرع نفوسهم . أما التأديب فهو أن يروّض غيره ، وهو حال الشيخ الصادق مع مريديه ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بالمخالطة فحاله كحال المعلم والطبيب والواعظ .

ومنها — نيل الثواب وإنالته — أما النّيل فبحضور الجنائز وعيادة المرضى . وأما إنالته فهو أن يفتح باب داره لتعوده الناس وخاصة إذا كان من العلماء فينتفعوا بزيارته ؛ ولكن ينبغى أن تقارن ثواب هذه المخالطة بآفاتها . فقد حكى عن جماعة

من السلف أمثال مالك وغيرهم أنهم تركوا إجابة الدعوات وعيادة المرضى وحضور الجنائز وتواروا فى بيوتهم لايخرجون منها إلا لصلاة الجمعة أو زيارة القبور للاعتبار، وهذا ما يجب أن يتمسك به كل مسلم يحافظ على دينه ، لأن أهل هذا الزمن لايعينون على الخير .

ومنها — التجارب فلا تستفاد إلا من مخالطة الخلق والنظر إلى أحوالهم ؛ لأن العقل الغريزى ليس كاف فى تفهم مصالح الدين والدنيا ؛ وإنما تفيده التجربة والممارسة. ولا خير فى عزلة مَن لم تحنكه التجارب ؛ فالصبى إذا اعتزل بقى طول حياته جاهلا . فنعمت العزلة إذا كانت وليدة التجارب ، ونعمت التجارب إذا أنتجت العزلة ؛ وهذه حالتنا والحمد لله فقد هُدينا للعزلة بعد طول التجارب نسأل الله السلامة فيها .

وعلى كل ففوائد العزلة أو ضررها وفوائد المخالطة أو ضررها لا يمكن الحكم عليه حكماً قاطعاً ، بل ينبغى أن يُنظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث إلى مخالطته ، وكل إنسان أدرى بنفسه، فإن فاتته فائدة بالعزلة خرج للاستفادة، وإن ضيعت عليه المخالطة وقتاً كان هو أحوج اليه ليقضيه فى العبادة أو فى أى أمر يتعلق بالدين كانت العزلة أفضل . وقول الإمام الشافعى رضى الله عنه فى ذلك هو فصل الخطاب إذ قال — يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط — ولذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة بحيث تكون المخالطة فى مرضاة الله تعالى والاستفادة، لا للهو واللعب. فإننا لم نخلق لذلك ، وتكون العزلة لاكتساب الوقت للفكر والعبادة ودراسة العلم وهو ما خلقنا له ، وعلى الجملة فتفضيل أحد الأمرين يتوقف على المرء نفسه بعد أن عرف ذلك ، وهل تفيده العزلة أو المخالطة أو هما معاً بحسب ما غلب على قلبه .

باب فى معنى الأخوة فى الله تعالى

إعلم أن الحب فى الله غامض ، ولكشف ذلك نقول ، الصحبة تنقسم الى ما يقع مصادفة ، كالصحبة بسبب الجوار والاجتماع فى مكتب أو فى مدرسة أو فى سفر أو فى سوق وغير ذلك ، والى ما يقع اختيارا وبقصد وهو الذى نريد بيانه ، لأن الحب

فى الله يقع فى هذا القسم ، والحب اما أن يكون لذات المحبوب أو لغرض الوصول الى مقصود آخر ؛ وهذا المقصود إماأن يكون غرض من أغراض الدنيا ، وإما أن يكون متعلقا بالله . فهذه أربعة أقسام :

القسم الأول – وهو الحب لذات الشخص ، إما أن يكون لذات الصورة الظاهرة أعنى جمال الخلقة ، وإما أن يكون للصورة الباطنة ، أعنى حسن الخلق وكمال العقل ؛ بل إن فى ائتلاف القلوب أمرا أغمض من هذا لأنه قد تستحكم المودة بين شخصين لا لجمال الصورة ولا لحسن الخلق ، ولكن لمناسبة باطنية ، لأن شبه الشيء منجذب اليه طبعاً ، وقد عبر عن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) (م) وقوله عليه السلام (إن أراح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رآى أحدهما صاحبه قط) (احمد) .

القسم الثانى – وهو أن يحب الشخص ليتوصل بهذا الحب إلى غرض آخر ؛ فان كان هذا الغرض خاص بالدنيا لم يكن حبه لله وهذا لا يكون إلا من شخص إيمانه ضعيف لأن هذا الحب مذموم .

القسم الثالث – وهو أن يحب الشخص ليتوصل إلى غرض آخر أيضاً ولكن هذا الغرض يرجع إلى حظوظه فى الآخرة فهو حب لله تعالى وهو محمود .

القسم الرابع – هو أن يحب الشخص لله وفى الله لا لينال به غرضا من الأغراض وهذا أدق ضروب المحبة وأعلاها وهو من الإيمان بالله عز وجل .

واعلم أن الألفة والمحبة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق ، فحسن الخلق يثمر التحاب والتآلف والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتخاذل ، وليس هذا من صفاة المؤمنين ، قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن آلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألَفُ ولا يُؤلَف) (احمد وطب) وقال عليه السلام (من آخى أخا فى الله رفعه الله درجة فى الجنة لا ينالها بشيء من عمله) (ابن أبى الدنيا) وقال عليه السلام (ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فقيل من هم يارسول الله : قال (هم المتحابون فى الله تعالى) (احمدوك) .

وقال عليه السلام (ما تحابا اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه) (حب و ك) وقال عليه السلام (إن الله تعالى يقول) (حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ؛ وحقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى) (أحمد) وقال عليه السلام (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله) (ق) وذكر منهم (رجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه) وقال عليه السلام (إن رجلا زار أخاً فى الله فأرصد الله لهملكا ؛ فقال أين تريد ؛ قال أريد أن أزور أخى فلاناً ؛ فقال لحاجة لك عنده ؛ قال لا ؛ قال لقرابة بينك وبينه ؛ قال لا ؛ قال فبنعمة له عندك ، قال لا ؛ قال فيمَ ؛ قال أحبه فى الله . قال فإن الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة) (م) وروى أن عيسى عليه السلام قال — تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصى ، وتقربوا إليه بالتباعد منهم ؛ والتمسوا رضا الله بسخطهم — قالوا يا روح الله فمن نجالس ، قال — جالسوا من تذكركم الله رؤيتُـه ، ومن يزد فى أعمالكم كلامه ؛ ومن يرغبكم فى الآخرة عملُـه — وقال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه — لا تصحب من لا ينهضك حاله ؛ ولا يدلك على الله مقاله — وعلى الجملة فكل من أحب عالماً لينتفع بعلمه أو عابداً للاقتداء به فى العبادة أو لينال على يديه خيراً يقربه من الله تعالى فحبه لله وله فيه أجر . والله أعلم .

باب فى حقوق الاخوة والصحبة

إعلم أن عقد الأخوة بين الإخوان ؛ كعقد النكاح بين الأزواج . وكما للنكاح حقوق ؛ كذلك للأخوة حقوق . ويجمعها سبعة حقوق .

الحق الأول — هو أن الأخوة لا تتم إلا إذا توافقا فى مقصد واحد ؛ وعلامة هذا ، المساهمة فى السراء والضراء ، والمشاركة فى المال والحال — والمشاركة فى المال ثلاث مراتب . الأولى وهى الأدنى أن تجعله كتابع لك فتقوم بحاجته هو وعياله من فضلة مالك قبل أن يسألك . الثانية أن تنزله منزلة نفسك وتسمح له بمشاركتك فى مالك دون غضاضة ولا ضجر . الثالثة وهى العليا أن تفضله عن نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهى رتبة الصديقين ، ومنتهى درجة المحبين . وإذا لم تصادف نفسك حالة

من هذه الحالات مع أخيك ، فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد فى الباطن ، وإن كان بينكما مخالطة فى الظاهر لا وقع لها فى الدين . واليك بعض أمثلة للسلف فى الأخوة . قال سليمان الدارانى لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من أخوانى لاستقللتها له . وقال أيضاً إنى لألقم أخا من إخوانى لقمة فأجد طعمها فى حلقى . ولما كان الانفاق على الأخوان أفضل من الصدقات على الفقراء . قال على رضى الله عنه لعشرون درهما أعطيها أخى فى الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضا لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه إخوانى فى الله أحب إلى من أن أعتق رقبة .

الحق الثانى — أن يعين صاحبه ويسعى فى قضاء مصالحه بشخصه قبل أن يسأله ويقدمها على حاجته الخاصة مع إظهار البشاشة والسرور .

الحق الثالث — أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته ويتجاهل عن ذلك ولا يناقشه ولا يجادله ولا يتجسس عن أحواله ، ولا يذم أحبابه وأهله وأقاربه ولا يتكلم معه إلا إذا كان لأمر بمعروف أو نهى عن منكر .

الحق الرابع — أن يعفو عن الهفوات والزلات التى تقع منه . وهفوة الصديق إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية أو فى حقك بتقصيره فى الأخوة ، أما ما يكون فى الدين بارتكاب معصية والاصرار عليها فعليك أن تنصحه بلطف بما يصلح حاله . وتقبل عذره إذا اعتذر اليك . قال عليه الصلاة والسلام (من اعتذر اليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب المكس) (ه) .

الحق الخامس — الدعاء للأخ فى حياته وبعد مماته بكل ما تحبه لنفسك ولاهلك ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك بالتحقيق . قال عليه السلام (إذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب ، قال الملك ولك مثل ذلك) (م) .

الحق السادس — الثبات على الحب ودوامه إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال (إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرَم العهد من الدين) (ك) .

الحق السابع — عدم التكليف بأن يكلف أخاه ما يشق عليه سواء فى مال أو فى

جاه بأن يكلفه التواضع له . وعلى الجملة فواجب الأخوة أن تكون لله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلقائه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته . قيل فى المثل — من سقطت كلفته دامت ألفته . ومن خفت مؤنته دامت مودته . والله أعلم .

باب فى فضيلة الحلم

الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن تكلف الحلم ؛ ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعوّده مدة من الزمن صار ذلك اعتياداً ؛ فلا يهيج الغيظ عنده وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب ؛ وهذا هو الحلم الطبيعى ؛ وهو دلالة على كمال العقل وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل قال عليه السلام (خمسٌ من سُنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر) (ت) وقال عليه السلام (إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل ، فيقوم ناس وهم يسير ؛ فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم إنا نراكم سراعاً إلى الجنة ؛ فيقولون نحن أهل الفضل ؛ فيقولون لهم ما كان فضلكم ؛ فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا ؛ وإذا أسيء إلينا غَفرنا ، وإذا جُهِل علينا حلمنا ، فيقال لهم أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) (هب) وقال على كرم الله وجهه ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظم حلمك وأن لاتباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى .

باب فى فضيلة العفو

العفو هو أن العبد يستحق حقاً عند آخر فيسقطه ويبرأ عنه وهو غير الحلم وكظم الغيظ قال الله تعالى (خُذ العفوَ وأمُرْ بالعُرفِ وأعْرضْ عن الجاهلين) وقال عز وجل (وأن تعفو أقربُ للتقوى) وقال عليه الصلاة والسلام (ثلاث والذى نفسى بيده إن كنت لحالفاً عليهن ، مانقص مال من صدقة فتصدّقوا ، ولاعفا رجل عن مظلمته يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولافتح

رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر) (ت) وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء ، وزوّج من الحوار العين حيث شاء ، من أدّى دَيناً خفياً ، وقرأ دبرَ كل صلاةٍ قل هو الله أحد عشر مرات ، وعفا عن قاتله) (طب) قال أبو بكر أو إحداهن يارسول الله ، قال (أو إحداهن) (طب) .

باب فى فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود وضده العنف والحدة . فالعنف نتيجة الغضب والرفق نتيجة حسن الخلق ؛ ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وحفظهما على حد الإعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه ، فقال (ياعائشة إن من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة) (احمد) وفى الصحيحين (ياعائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله) . وقال عليه السلام (أيما والٍ ولىّ ورفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة) (م) وقالت عائشة رضى الله عنها إنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يميناً وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ياعائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه) (م) .

فضيلة الشفقة والرحمة والترغيب فيهما

قال عليه الصلاة السلام (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) (ق) وقال عليه السلام (لن تؤمنوا حتى تراحموا) قالوا يارسول الله كلنا رحيم . قال (إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة) (طب) .

وقال عليه السلام (ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر) (احمد و ت) وقال عليه السلام (لاتنزع الرحمة إلا من شقىّ)(د) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال (إن رحمتها رحمك الله) (ك) وقال عليه السلام (من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله

يوم القيامة يقول يارب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة) (ن و حب) وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى قرية نمل قد حرقناها فقال (من حرق هذه) قلنا نحن قال (إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار) (د) وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم فأسرّ إلىّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس ؛ وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وَسلم لحاجته هدفاً أو حايش نخل فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت فقال (من رب هذا الجمل ، لمن هذا الجمل) فجاء فتى من الأنصار فقال لى يارسول الله ، فقال (أفلا تتق الله فى هذه البهيمة التى ملـّكك الله إياها فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتدئبه) (احمد و د) ـــ تُدئبه ـــ أى تتبعه بكثرة العمل .

وقال عليه السلام (عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض) (خ وغيره) خشاش الأرض أى حشرات الأرض . وقال عليه السلام (ماخفّفت عن خادمك فى عمله كان لك أجراً فى موازينك) (حب) وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن خادمى يسىء ويظلم أفأضربه ، قال (تعفو عنه كل يوم سبعين مرة) (ت) وقال عليه السلام (من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة) (طب والبزار) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسم فى الوجه والضرب فى الوجه (طب) فانظر إلى رحمة نبيك صلى الله عليه وسلم وشفقته بالمخلوقات ، فعلينا أن نتبع تعاليمه لنكون فى زمرته .

باب فى بيان السبب المانع للخلق عن معرفة الله عز وجل

إعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ؛ وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ؛ ولـكنك ترى الأمر بضد ذلك ؛ للأسباب التى تراها فيما بعد . وحيث أننا لا نفهم معنى أن الله تعالى أظهر

الموجودات وأجلاها إلا بمثال يقرب إلى الأذهان فهم هذا المعنى . فهو أننا إذا رأينا إنساناً يكتب مثلا فوجدوه عندنا ظاهر واضح بسبب قدرته وفعله للكتابة التى نراه يكتبها ، فليس أمامنا دليل على حياة هذا الكاتب وصفاته الظاهرة إلا ما يكتبه فعلا فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سوى هذه الكتابة لم نستدل على وجود الكاتب ، فحينئذ ليس على وجوده دليل إلا هذا الدليل الواحد فقط .

أما وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته ، فيشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة ؛ من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وغير ذلك ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا ، وأوصافنا وتغير أحوالنا وتقلب قلوبنا وتفاوت عقولنا وحركاتنا وسكناتنا ؛ وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ؛ ثم ما نحسه بالحواس الخمس ؛ ثم ما ندركه بالعقل والبصر . وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ، وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصورها ومحركها ، ودالة على علمه تعالى وقدرته ولطفه وحكمته .

وعلى الجملة فالموجودات المدركة لا حصر لها . فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو حركة يده فكيف لا يظهر عندنا من كانت الموجودات كلها شاهدة عليه وعلى عظمته وجلاله إذ كل ذرة فانها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وإنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أجزائنا الظاهرة والباطنة فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها .

ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء محسوس ومعقول ، وحاضر وغائب ، إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه ، ولذلك سببان ، أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه ، والآخر ما يتناهى وضوحه ، ومثال هذا كالخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهور النور مع

ضعف بصر الخفاش سبباً لامتناع أبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف . فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والإستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره .

فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، فلو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدمت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره ، لأدركت الفرق بين الشيئين فى الدلالة . ولكن دلالة عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء . فهذا هو السبب فى قصور الافهام . وأما من قويت بصيرته فلا يرى إلا الله تعالى ، ولا يعرف غيره ، فلا ينظر فى شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وشمس وقمر وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق — فكل العالم صنع الله تعالى ، فمن نظر فيه من حيث أنه فعل الله ، وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله ، لم يكن ناظراً إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محباً إلا لله ، وكان هو الموحد الحق ، بل لاينظر إلى نفسه من حيث نفسه ، بل من حيث أنه عبد الله ، فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد عن نفسه ، فهذه أمور معلومة عند أولى البصائر أشكلت علينا لضعف الأفهام عن دركها ، وتقصير العلماء فى إيضاحها وبيانها بعبارة سهلة موصلة للغرض ، فهذا هو السبب أيضاً فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى .

واعلم أن الذى سد على الخلق سبل الإستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة ، هو انهماكهم فى الشهوات ، وعدم التبصر والتفكر فى عجائب المخلوقات .

باب فى كيفية التفكر فى خلق الله تعالى

إعلم أن كلِ مافى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعلُ الله وخلقُه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرَض وصفة وموصوف ، ففيها عجائب وغرائب تظهر

بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته — وإحصاء ذلك غير ممكن ، إلا أننا نقول ، إن الموجودات المخلوقة تنقسم إلى ما لا يعرف أصلها ولا نعلمها فلا يمكننا التفكر فيها . قال الله تعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) . وإلى ما يعرف أصلها ولا يعرف تفصيلها ، فهذه يمكننا أن نتفكر فيها ، وهى منقسمة الى ما أدركناه بالبصر . والى ما لا ندركه بالبصر . أما الذى لا ندركه بالبصر ، مثل الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ، فليس للفكر فيه مجال .

أما الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بالبصر ،فهى السموات والأرض وما بينهما . فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها . والأرض مشاهدة بما فيها من جبال ومعادن وبحار وأنهار وحيوان ونبات . وما بين السماء والأرض وهو الجو فاننا ندركه بالغيوم والأمطار والثلوج والرعد والبرق والصواعق والشهب وعواصف الرياح — فهذه هى الأجناس التى نشاهدها من السموات والأرض وما بينهما وكل هذا للفكر فيه مجال ، فلا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها . وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشرة أو ألف حكمة أو أكثر أو أقل ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه . بل هذه هى الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وقال تعالى (ومن آياته) فى كثير من القرآن إظهاراً لنعمه على العباد ، وحثاً على التفكر فيها . والآن نذكر كيفية التفكر فى بعض الآيات — (فمن آياته) الانسان المخلوق من النطفة ، وأقرب شيء إليك نفسك . وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه. قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال تعالى (قتل الإنسان ما أكفره ، من أىّ شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره) ثم ذكر أطوار النطفة فقال تعالى (ولقد خلقنا

الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر) فاعلم أن تكرير ذكر النطفة فى كتاب الله تعالى ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير فى معناه ، كلا . فاصغ الآن إلى ما نقول ، وانظر إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة لضربها الهواء وفسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب . ثم خلق المولود وغذاه حتى نما وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم ، وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ، ومقدار مخصوص ، لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضاء بأقسام متعددة ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها لعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى نصف ما فى واحدة من هذه الاعضاء من العجائب والآيات لا نقضى فيه الأعمار . ثم نظر إلى العظام وهى أجسام صلبة قوية ، كيف خلقها الله من نطفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدّرها بمقادير وأشكال مختلفة ، فمنه صغير وكبير ، وطويل وقصير ، ومستدير ومجوّف ، وعريض ودقيق .

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة فى جميع حاجاته لم يجعل الله تعالى عظمه عظما واحداً ، بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار ، أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقها بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه ، وفى الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع

عليه ، فألف شكر لله تعالى على عطفه وكرمه . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وقد ركبها من خمس وخمسين عظمة مختلفة الشكل والصورة ، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به استدارة الرأس كما تراه ، فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للّحى الأعلى ، واثنان للحى الأسفل ، والبقية هى الأسنان ، بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهى الأنياب والأضراس والثنايا . ثم جعل الرقبة عماداً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، ينطبق بعضها على بعض ، ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص ، وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ، ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين. فلا نطول بذكر عدد ذلك ، بل نقول إن مجموع عدد العظام فى جسم الإنسان مائتان وثمانية وأربعون عظمة ، سوى العظام الصغيرة التى حشى بها بين المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة رقيقة ، وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن تعرف عددها فإن هذا علم يعرفه الأطباء والمشرحون، وإنما الغرض أن تنظر فيها من حيث مدبرها وخالقها وأنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص ولو زاد عليها واحداً لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعلم وجه العلاج فى جبرها وأهل الدين ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلال خالقها ومصورها فشتان بين النظرين . ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات ، فخلق فى بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ، وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ، فأربع وعشرون عضلة خاصة لتحريك حدقة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة منها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص ، وأمر الأعصاب والعروق والشرايين ومنابتها وتشعبها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فللفكر مجال واسع فى آحاد هذه الأجزاء ، ثم فى آحاد هذه الأعضاء

ثم فى جملة البدن فكله عجائب . أما عجائب المعانى والصفات التى لا تدرك بالحواس فهى أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الانسان و باطنه و إلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب ، وكل ذلك صنع الله تعالى فى قطرة ماء قذرة ، فالذى صنع هذا فى قطرة ماء ، فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها ، وماحكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها ، واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هى أحكم خلقاً وأتقن صنعاً ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لانسبة لجميع ما فى الأرض من الموجودات إلى عجائب السموات ، ولذلك قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) فارجع الآن إلى النطفة كانت معدومة فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدّرها فأحسن تقديرها ، وصوّرها فأحسن تصويرها ، وقسم أجزاءها الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام وحسن أشكال الأعضاء وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة ، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتدفع الأذى عنها ، ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها بالنظر اليها ، ثم شق الأذنين وأودع فيها ماء مراً ليحفظ سمعهما ويدفع الهوام عنهما ، وحوطهما بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخهما ، وجعل فيهما اعوجاجات لتكبر حركة الصوت ، ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق الهواء تغذية لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودع فيه اللسان ناطقاً ومترجماً ومعبراً عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان فأحكم وضعها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب . وخلق الشفتين وحسن لونهما وشكلهما لتنطبقا على الفم فتسد

منفذه ، وليتم بها حروف الكلام . وخلق اللسان وجعله قادراً على تقطيع الصوت فتختلف الحروف وينتظم طريق النطق مع كثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة ، حتى اختلفت بذلك الأصوات ، فلا يتشابه صوتان بل جعل بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع صاحب الصوت بمجرد سماعه ثم زين الرأس بالشعر ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر وتقويس الشكل ، وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لهضم الغذاء والكبد لتحويل الغذاء إلى الدم وسخر الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد . ثم خلق اليدين وطولهما لتقضى بهما حاجتك وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس بثلاث أنامل ، ووضع أربعة منها فى جانب والإبهام وحده فى جانب ، لتدور الإبهام على الجميع ، ووالله لو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر فى وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه ، من حيث بُعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع فى الطول ونظمها فى صف واحد لم يقدروا عليه فسبحان المبدع العظيم . ثم خلق الأظفار على أطرافها زينة للأصابع وعماداً لها من ورائها ، حتى لا تتقطع الأصابع وليحك بها بدنه عندما يريد ، فتأمل فى الظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان واحتاج إلى حك بدنه لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ثم أنظر كيف هدى الله اليد إلى موضع الحك فتمتد اليه ولو فى النوم من غير حاجة إلى مرشد ودليل ثم خلق هذا كله من النطفة وهى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء الخارجى والغشاء الداخلى وامتد البصر إلى مكان النطفة لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فهل رأيت مصوراً أو فاعلا يصنع شيئاً من غير أن يمس آلة التصوير ، ومن غير أن يمس نفس المصنوع ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه . ثم أنظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فانه لما ضاق الرحم على الصبى حين كبر ، كيف هداه إلى طريق الخروج فتنكس وتحرك ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير . ثم لما خرج من ذلك المضيق واحتاج إلى الغذاء ، كيف هداه إلى التقام الثدى، ولما كان بدنه ضعيفاً لا يحتمل الأغذية الثقيلة . كيف من عليه وخلق له اللبن اللطيف

واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر فم الصبى ، ثم فتح فى حلمة الثدى ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً وبقدر الحاجة ، ثم انظر كيف هداه وعلمه الامتصاص ، حتى يستخرج من ذلك الثقب الضيق لبناً يكفيه . ثم انظر إلى عطف ربك ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الرضاعة فاذا كبر احتاج إلى الطعام والطعام يحتاج إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند اللزوم لا قبله ولا بعده ، فسبحانه جلت قدرته كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثة اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه ليقوما بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً فيه على تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل والهداية تدريجيا ، حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلا ثم شيخاً ، إما كفوراً وإما شكوراً ، مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً ، تصديقاً لقوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) فانظر إلى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب من ابن آدم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره ، فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته ، (إن الإنسان لظلوم كفار) فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن حصرها ، وهى أقرب مجال لتفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك . وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل ، وتشبع فتنام ، وتشتهى فتواقع وتغضب فتقاتل ، والبهائم تشاركك فى ذلك كله ، وانما خاصية الانسان التى امتاز بها عن البهائم والتى لا تشاركه فيها ، هى معرفة الله تعالى ، ومعرفته لا تكون إلا بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق ، وما أودعه فى الأنفس من السرائر إذ بهذه المعرفة يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ، ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين ، مقرباً من رب العالمين وإذا عرفت أيها الإنسان طريق الفكر فى نفسك ، فتفكر فى الأرض التى هى مقرك ، ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

أما الأرض — فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً ، وسلك فيها سبلا فجاجا ، وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها ، وجعلها قارة لاتتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تتحرك ثم أوسع أرجاءها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم . قال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون) وقال عز وجل (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها) وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الأرض لنتفكر فى عجائبها . فظهرها مقر الأحياء ، وبطنها مرقد الأموات ، قال تعالى (ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً) ثم انظر إلى الأرض وهى ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت ، وأنبتت عجائب النبات ، كيف أودع الماء تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافيا زلالا وجعل منه كل شىء حى ، فأخرج به الزرع وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم يفضل بعضها على بعض فى الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . ثم انظر إلى أرض البساتين تراها تراباً فإذا نزل عليها الماء أنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم ، ولون ورائحة وشكل يخالف الآخر ، بل تجد فى الزهرة الواحدة عدة ألوان منسقة تنسيقاً بديعاً يعجز الانس والجن عن تقديره ، ثم انظر إلى اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى فى العقاقير المنافع الغريبة منه ، فهذا النبات يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يضعف ، وهذا يحيى ، وهذا يقتل ، وهذا يسخن وهذا يصفى الدم ، وهذا يصير دماً ، وهذا يفرح ، وهذا ينوم . فلا تنبت من الارض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقدر البشر على الوقوف على كنهها ، بل لو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام فى وصف ذلك ، فيكفيك هذه النبذة اليسيرة لتدلك على الفكر فى عجائب النبات

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن المستخرجة من الأرض — وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت منه بلدة لهلك أهلها ، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى مسبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء

الصافى من المطر فيتحول ملحاً ، وإنما خصص إلى إصلاح طعامك إذا أكلته فيهنأ عيشك ، فما من جماد ولا حيوان ولا نبات ، إلا وفيه حكمة وحكم ، فما خلق الله شيئاً عبثاً ولا لعباً ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغى ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ورحمته . لذلك قال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) .

ومن آياته أصناف الحيوانات ، وانقسامها إلى ما يطير ، وإلى ما يمشى ، وانقسام ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والطباع ، والأخلاق ، فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى البهائم الأليفة ، ترى فيها من العجائب ما لا تشك فى عظمة خالقها ، وقدرة مقدرها . واعلم أنه لا يمكن استقصاء ذلك ، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت ، وهى من صغار الحيوانات فى جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى مهارتها فى هندسة بناء بيتها ، وفى هدايتها إلى حاجاتها ، لم نقدر على ذلك ، فالبصير يرى فى هذه الحيوانات الصغيرة وأمثالها من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ، ما تتحير فيه الألباب والعقول ، فضلا عن سائر الحيوانات ، وهذا الباب أيضاً لا حصر له ، فان الحيوانات فى أشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما ضاع تعجب القلوب منها لكثرة المشاهدة لها .

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، حيث أن جميع المكشوف من البوادى والجبال بالنسبة للماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم . وقد عرفت مما تقدم عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن إلى عجائب البحر ، فان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما تحسبها جزيرة عند ظهورها ، وليس ببعيد عن الأذهان خبر العثور على عظام حيوان فى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وهو نوع من السمك يبلغ طوله عشرون متراً وارتفاعه أربعة عشر متراً ، وكذلك فى بوغاز مدينة رشيد فى يوم ٢٢ من شهر ابريل سنة ١٩٣٦

سمكة يبلغ طولها سبعة عشر متراً وعرضها ثمانية أمتار وارتفاعها متران ونصف المتر ، وفمها يسع لدخول الرجل وخروجه إلى جوفها ، فهل رأيت حيواناً بريا بهذا الحجم . واعلم أنه ما من نوع من أنواع حيوانات البر من خيل أو بقر أو طير أو إنسان ، إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يرى لها نظير فى البر . ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من الصخور الصم تحت الماء أيضا فهو نبات على شجر ينبت تحت الماء ؛ ثم تأمل ما عدا ذلك من العنبر وأنواع النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء لتحمل الاثقال ثم أرسل الرياح لتسوقها ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ، وعلى الجملة فلا يمكن حصر عجائب صنع الله فى البحر ، ولا تسع وصفها مجلدات . واعجب من ذلك كله ما هو اظهر من كل ظاهر ، وهو الماء ، فهو جسم رقيق لطيف سيال شفاف ، متصل الاجزاء كأنه شىء واحد ، لطيف التركيب ، سريع التقطيع ، فهو قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الارض ، من حيوان ونبات . فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض فى تحصيلها ، ثم لو شربها ومنع من اخراجها من جسمه لبذل جميع خزائن الارض فى إخراجها . فالعجب من ابن آدم كيف يستعظم الدنيا والدرهم ونفائس الجواهر ، ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء ، إذا احتاج إلى شربها واستفراغها بذل جميع ما يملك فيها ، فتأمل أيها العبد المسكين بعقله الضعيف بشخصه فى عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ، ففيها متسع للفكر ، ومجال للتأمل ، وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته .

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض — لا يُدرَك هذا الهواء بحاسة اللمس ولا يُرى شخصه بالعين ، وهو مثل البحر المتصل ماؤه فترى الطيور محلقة فى جوّ السماء سبّاحة فيه بأجنحتها ، كما تَسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح ، كما تضطرب أمواج البحر . فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابّة فان شاء جعله بشرى بين يدى رحمته ، كما قال

تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتحيا وتنمو ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خلقه ، كما قال تعالى (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً في يوم نحس مُستمر تَنْزِع الناس كأنهم أعجاز نخل مُنْقَعر) ثم أنظر إلى لطف الهواء وشدّته وقوته ، فإنك إذا أتيت بجلد منفوخ وتحاملت عليه بقوتك لتغمسه فى الماء لعجزت عن ذلك بينما الحديد الصّلب تضعه على وجه الماء فيرسب فى الحال فانظر كيف ينقبض الهواء فى الماء بقوته مع رقته ولطافته ، وبهذه الحكمة أمسك الله السفن على وجه الماء .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ، فهذه كلها عجائب مابين السماء والأرض قال تعالى (والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض) وقد ذكر عن الرعد والبرق والسحاب والمطر فى كلامه العزيز كثيراً وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه ، إذ لامطمع فى استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوّ صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ، ومتى شاء ، وإلى ماشاء ، وهو برخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جوّ السماء ، الى أن يأذن الله تعالى فى ارسال الماء ، فتقطّع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى ، وعلى الشكل الذى شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات منفصلة لاتلحق قطرة منها قطرة أخرى ، ولا تتصل واحدة بالأخرى ، بل تنزل كل قطرة فى الطريق الذى رُسم لها لاتتحول عنه ، فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصل الى الأرض قطرة قطرة مع ارتفاع المسافة ارتفاعاً لايعلم مقداره الا الله سبحانه وتعالى ، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ماينزل منها فى بلدة واحدة أوقرية واحدة ، أو ما ينزل فى ساعة واحدة أو فى دقيقة واحدة . لعجز حساب الجن والإنس عن معرفة ذلك ، فلا يعرف عددها الا الذى أوجدها . واعلم أن كل قطرة منها خُصِّصت لجزء من الأرض وخُصِّصت لكل حيوان فيها من طير ووحش وحشرات ودواب ، ومكتوب على كل قطرة بخط الهىّ لايشاهد بالبصر الظاهر ، إنها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل اليها عند عطشها فى الوقت

الفلانى ؛ كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ؛ ما لأحد فيه من الخلائق مشاركة ولا مدخل ؛ فليس للمؤمنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ؛ وليس للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ؛ ثم انظر الى ارتفاع الماء داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لايرى ولا يشاهد ؛ حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق فى أعلى الشجرة ؛ فيغذى كل جزء من كل ورقة ؛ ويجرى فيها داخل تجاويف عروق صغيرة منتشرة من عرق كبير ممدود فى وسط الورقة ؛ فكأن الكبير نهر ، ومانشعب منه جداول ، ثم يتشعب من الجداول جداول أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر ، فتنبسط فى جميع عرض الورقة ، فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك يفعل الماء فى سائر الفواكه . ومن آياته ملكوت السموات وما فيها من الكواكب — وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً — فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالنسبة إلى السموات قطرة فى بحر ، بل أصغر ، ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من سورة إلا وتشمل على تفخيمها ، وكم من قسم فى القرآن بها ، كقوله تعالى (والسماء ذات البروج . والسماء والطارق . والسماءِ ذات الحُبُك . والسماء وما بناها) وكقوله تعالى (والشمس وضحاها والقمرِ إذا تلاها) وقوله تعالى (فلا أقسم بالخنّس الجوار الكُنس)وقوله عزوجل (والنجم اذاهوى) وقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة وصنع الله تعالى فيها عجز عن معرفته الأولون والآخرون وما أقسم الله بها ، فماظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه ، فقال تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون) وأثنى على المتفكرين فيه فقال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) وذمّ المعرضين عنها فقال تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) وقد خلق الله سبع سموات وورد أن بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، (ت) فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السموات ، وهى صلابة شداد محفوظات عن التغيير الى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماها الله تعالى محفوظاً كما فى الآية السابقة وقال تعالى (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) وقال

(أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سَمْكها فسوّاها) فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العزّ والجبروت ، ولا تظنّن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمدّ البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب ، فإن البهائم تشاركك فى هذا النظر ، فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله (وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) فاعلم أن كل ما يُرى بحاسة البصر فالقرآن يُعبّر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت . ولا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء ، وهو عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — فتأمل أيها العاقل بفكرك فى الملكوت فعسى تفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها الى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال — رآى قلبى ربّى — وهذا هو بلوغ الأقصى — وبلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى ، وأدنى شىء اليك نفسك ، ثم الأرض التى هى مقرك ، ثم الهواء المحيط بك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو ، وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسىّ ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش ، وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما فتأمل ما هو أمامك من المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت لم تعرف شيئاً عن القبة القريبة منك وهى ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدّعى معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خَلْقَه ، ففيماذا تفكر والى ماذا تتطلع ، فارفع الآن رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، واستمرارها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ، ومن غير تغيّر أو اعوجاج فى سيرها ، بل تجرى كلها فى منازل مرتبة لحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتب . وتأمل عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى ، ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على

صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، واعلم أنه ما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء ، ثم انظر الى مسير الشمس فى فلكها مدة سنة ثم هى تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها جلت قدرته ، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت ، ولصار الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لايتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة . فانظر الى رحمة ربك كيف جعل الليل لباساً والنوم سباتاً ، أى انقطاعاً عن الحركة ، وجعل النهار معاشاً ، ثم انظر الى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وإدخال الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر أنه تعالى أمال مسير الشمس عن وسط السماء حتى تبين بسبب ذلك الصيف من الشتاء والربيع من الخريف فاذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان ، وعجائب السماء لا مطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها ، وإن ما ذكرناه هو على سبيل التنبيه فقط ، ليتفكر الإنسان فيه .

ولكنك قد شغلت بشهواتك وملذاتك وجاهك وسلطانك عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك فى هذا ، إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى زاوية من زوايا قصر عظيم من قصور الملك ، رفيع البنيان حصين الأركان . مزين بالألوان وأنواع النفائس والذخائر ، فإن النملة إذا خرجت من هذا الجحر ولقيت صاحبتها فى زوايا هذا القصر العظيم ، لم تتحدث ، إذا قدرت على النطق ، إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها . أما حال القصر وعظمة الملك الذى يسكن القصر ، فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، فكما غفلت النملة مع إقامتها فى القصر عن القصر وعن أرضه وسقفه ، وحيطانه وسائر زخارفه وبنيانه ، وغفلت عن إدراك عظمة سكانه ، فكذلك أنت غافل عن بيت الله تعالى المسقوف بالسماء ومزين بالكواكب وعن ملائكته الذين هم سكان السموات ، فلا تعرف يامسكين من السماء إلا ماتعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف ملائكة السموات إلا ماتعرفه النملة منك ومن سكان

بيتك ، ولكن عذراً للنملة فليس لها قدرة على التفكر فى عجائب قصرك وبدائع صنع الصانع فيه ، ولم تُعطَ من الإدراك مايساعدها على تعرُّف أمرك وأمر قومك الذين هم سكان القصر . أما أنت فليس لك عذر فى غفلتك فقد أعطيتَ قدرة بالعقل الذى مُنحته على أن تجول فى الملكوت وتعرف عجائبه ولكن الخلق حقيقة غافلون، لانطيل بالقارىء فى هذا المجال فليس له آخر ولو قطنا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ماتفضّل الله على العلماء والأولياء بمعرفته فى عجائب خلقه ، بل إن ماعرفه العلماء والأولياء قليل نزر حقير ، بالنسبة إلى ماعرفه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ماعرفوه الانبياء قليل بالنسبة لماعرفه سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما عرفه الانبياء جميعهم قليل بالنسبة لما عرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبرائيل وغيرهما ، ثم إن جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيفت إلى علم الله سبحانه وتعالى لم تستحق أن تسمى علماً ، بل هى أقرب أن تسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً ، فسبحان من عرّف عباده ماعرف ؛ ثم خاطب جميعهم فقال تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فهذا بيان إجمالى وجيز جداً عن المخلوقات التى يجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر فى ذات الله عز وجل ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجائب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم وأقرب . واعلم أن النظر والتأمل والتفكر فى مخلوقات الله تعالى وفى صنعه وبدائعه لا تتناهى أبداً ، ولكن لكل عبد منا حظ بقدر مارُزق من التَّبصرة ، فالمولى سبحانه وتعالى قد أنعم علينا أولاً بالوجود ، وثانياً بما يديم علينا هذا الوجود ، وفضلنا على سائر مخلوقاته ، بما منحه إيانا من العقل وأمامنا عجائب مخلوقاته ، فمن نظر اليها نظر الطبيعيين المغترين فهذا سبب هلاكه ، ودوام شقاوته ، ومن نظر اليها ليرى فيها جلال الله تعالى وقدرته ، فهذا يكون سبب هدايته ودوام سعادته ، ومامن ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدى بها من يشاء ، نعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله ورحمته .

باب فى بيان مجارى الفكر

نقول إن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين أو فى غير الدين ، ويعنينا الأمر الأول وهو أمر الدين ، أى المعاملة التى بين العبد وبين ربه تعالى :

إعلم أن فكر العبد من الوجهة الدينية ينحصر فى أربعة أنواع ، الطاعات ؛ والمعاصى ؛ والصفات المهلكات ؛ والصفات المنجيات ؛ وسنذكر لكل نوع منها مثالا ليقيس به العبد على جميعها وينفتح له باب الفكر ؛ ويتسع عليه طريقه إن شاء الله تعالى .

النوع الأول — وهو الطاعات ؛ فيجب على العبد أن ينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه كيف يؤديها وكيف يحرسها من النقصان والتقصير ؛ أو كيف يجبر نقصانها ؛ ثم يفتش كل عضو على حدة ليرى ما إذا كان العضو يقوم بما يحبه الله تعالى ؛ فيقول مثلا إن العين خُلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض للاعتبار ؛ وكذلك لتستعمل فى الطاعات وأنا قادر على أن أنظر بها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلماذا لا أفعل ، وكذلك يقول فى سمعه إنى قادر على استماع كلام مباح أو حكمة أو قراءة فما لى أعطّله وقد أنعم الله علىَّ به ومنحنى إياه لأشكره فمالى أكفر نعمة الله علىَّ فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول إنى قادر على أن أتقرَّب إلى الله تعالى بالذكر والعبادة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وعلى الجملة فإن كل كلمة طيبة صدقة ؛ وكذلك يفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بجزء منه ؛ ومتى احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ؛ وإن كنت محتاجاً الآن إلى المال فأنا غداً إلى ثواب الآخرة أحوج . وهكذا يفتش جميع أعضائه وسائر بدنه وأمواله وقس على هذا سائر الطاعات .

النوع الثانى — وهو المعاصى فنقول ينبغى أن يفتش الإنسان فى صبيحة كل يوم جميع أعضائه ؛ فإن مرتكباً ومباشراً لمعصية فى الحال فيتركها ؛ أو كان قد ارتكبها فعلا بالأمس فيتداركها بالترك وعدم العودة والندم ، أو كان متعرضاً لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؛ مثال ذلك ينظر فى لسانه ويقول إنه متعرض للوقوع فى الغيبة والكذب والاستهزاء بالغير والجدال والمزاح والخوض فى أعراض الناس وغير ذلك من المكاره ؛ فينبغى عليه أن يقرر أولا فى نفسه أن كل هذه الأمور

مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر فى شواهد القرآن والسنّة على شدة العذاب فيها كما سبق بيانه ، ثم يتفكر ثانياً فى كيفية الاحتراز من الوقوع فيها ، وليعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو لا يجالس إلا رجلا صالحاً عُرف بالتقوى فينهاه عن التكلم فيما يكرهه الله تعالى . ثم يتفكر فى سمعه كيف أنه يصغى به إلى استماع الغيبة وفضول الكلام ، وإن ذلك إنما يسمعه من زيد ومن عمرو . فينبغى أن يحترز من هذا الإثم بالاعتزال وعدم التعرض فى الطرقات والأسواق للخلق ؛ فيسمع من هذا ويتحدث مع هذا فكله وبال وخسران ؛ ولا تظن أن أحداً يجلس بالطرقات أو فى الأسواق أو على المقاهى ولا يقع فى هذه الآثام ؛ لأن الإنسان لا يضمن النجاة وهو فى داخل بيته ، فكيف يضمنه وهو متعرض للخلق على اختلاف مذاهبهم وطباعهم هيهات هيهات . وليتفكر فى بطنه أنه يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومكسبه ، ويبحث عن طريق الحلال فيكتسب منه ويحترز من الحرام ، ويقرر فى نفسه أن عبادته كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وليعلم أن أكل الحلال هو أساس العبادات جميعها . وهكذا يتفكر فى باقى أعضائه ويشتغل بمراقبتها حتى يحفظها طول نهاره .

النوع الثالث — وهو الصفات المهلكات التى محلها القلب ؛ يعرفها القارىء مما ذكرناه فى أبواب الكبر والعجب والرياء والغضب والحسد والبخل والغرور وخطرات اللسان وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه كل هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيفكر فى امتحانه فإن ادّعت النفس التواضع والبراءة من الكبر مثلا ، فينبغى أن تمتحن بتكليفها بمثال شىء لم يسبق لها شيله والمرور به فى السوق أما إذا ادعت الحلم فيتعرض لغضب يناله من شخص سفيه ، ثم يجرّبها فى كظم الغيظ .

وكذلك فى سائر الصفات التى تبعده عن ربه عز وجل وجب عليه أن يتفكر فى طريق العلاج لإزالتها واحدة واحدة ؛ كما هو مبين فى تلك الأبواب من هذا الكتاب .

النوع الرابع — وهو الصفات المنجيات ، فهى التوبة والندّم على الذنوب ؛ والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف والرجاء والزهد والإخلاص

والصدق فى الطاعات ، ومحبة الله تعالى وتعظيمه ، والرضى بأفعاله والشوق إلى لقائه ، والخشوع والتواضع له ، فواجب على العبد أن يتفكر كل يوم فى قلبه ويتفقد هذه الصفات فيه ، وليعلم أنها هى التى تقربه من مولاه فإذا أراد مثلا أن يكتسب لنفسه صفة التوبة والندم ، فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها ، ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى جاء به المشرع لمثل هذه الذنوب ، وليتحقق أنه متعرض لمقت الله تعالى وغضبه وإذا أراد أن يكتسب فضيلة الشكر مثلا ، فلينظر فى إحسان الله تعالى إليه ومننه عليه من يوم أن صوره جنيناً ووهبه الحياة ورزقه وهو عاجز عن أسباب الرزق باحسانه وفضله ، ثم من عليه بسائر النعم ومنحه الستر الجميل . فالعبد بذلك مطالب بالشكر لله تعالى على هذه النعم . وهكذا ينبغى على العبد أن يتفكر دائماً فيما يكسبه الأحوال المحبوبة ويبعده عن الصفات المذمومة . واعلم أنه لا يوجد أنفع للفكر من قراءة القرآن بتفكر وتدبر ، فانه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين . فينبغى أن يقرأ العبد ويردد الآية التى هو محتاج للتفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية واحدة بتفكر وفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وفهم وليتأمل فى معنى الآية كثيراً ولو طول الليل فإن تحت كل كلمة من القرآن أسرار لا تنحصر ولا يقف الإنسان على هذه الأسرار إلا بدقيق الفكر بعد صفاء القلب وصدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم ، فكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العبد حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . فشرح مفردات الآيات والأخبار يطول ، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم (إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزىّ به) (ق) فان هذه الكلمات جامعة لحكم الأولين والآخرين وهى كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية .

فهذا طريق الفكر من حيث العلوم ، وصفات العبد من حيث أنها محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . فالعبد الذى يريد الدخول فى طريق العبادة والتكفير عن

سيئاته الماضية . يجب عليه أن يستغرق الوقت فى هذه الأفكار ، حتى ينزع عن قلبه ما غطاه من المعاصى ويعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ، وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا أفضل من سائر العبادات .

أما الفكر فى جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه ففيه مقامان .

المقام الأول — وهو المقام الأعلى ، الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه وهذا الفكر ممنوع حيث قيل — تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله . وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا تطيق مد البصر إليه، لأن أبصار سائر الخلق بالنسبة إلى جلال الله تعالى ، كحال بصر الخفاش بالنسبة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه البتة ، بل يختفى فى أثنائه فالنظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ، فالصواب إذاً أن لا يتعرض الإنسان لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته والقدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء ، هو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه — لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون — ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته خطر من هذه الوجهة اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق ، أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه .

المقام الثانى — وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه مما شرحناه فى الباب السابق ، فإن ذلك يدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، ويدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته ، فينبغى النظر إلى صفاته من آثار صفاته ، لأننا لا نطيق النظر إلى صفاته ، وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، إذ قوام وجودها بذاته وهو القيوم بنفسه تبارك وتعالى .

باب فى بيان حقيقة الشكر

اعلم أن الشكر مقام من مقامات الموحدين ، وهو يتكون من علم وحال وعمل .

فالعلم هو أن تعرف أن النعم كلها من المنعم سبحانه وتعالى . والحال هو الفرح الذى يحصل للعبد وقت النعمة . أما العمل فهو القيام بما يجب عليك للمنعم ويتعلق ذلك بالقلب وبالجوارح وباللسان . ومجموع هذا هو حقيقة الشكر .

ولما كانت معرفة العبد بأن النعم جميعها من الله تعالى ، وأن الوسائط مسخرون ، هى عين الحمد وهى الرتبة الثالثة من الإيمان ، وجب عليه قبل هذه المعرفة أن يؤمن بالرتبة الأولى من الإيمان وهى التقديس ، وبالرتبة الثانية وهى التوحيد . أما التقديس أن يعلم أن لا مقدّس إلا ذات الواحد الأحد وما عداه غير مقدّس . وأما التوحيد هو أن يؤمن بأن كل مافى العالم خالقه واحد لاشريك له وهو الله سبحانه وتعالى . وقد عبر عن هذه الرتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة) (ق) ولكن لا تظنن أن هذه الحسنات تعطى بمجرد تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب فسبحان الله كلمة تدل على تقديس وتنزيه الذات العلية . ولا إله إلا الله تدل على الإقرار بالوحدانية . والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق . فالحسنات تمنح بعد معرفة ذلك وتصديق القلب بها ، فاذا كانت النعمة قد وصلت إليك على يد أحد من الخلق ؛ فاعلم أن الله عز وجل هو الذى سخر هذا العبد وجعله واسطة فى إيصالها فاذا عرفت ذلك فقد عرفت الله سبحانه وتعالى وكنتَ موحداً به وقدرت على شكره ؛ بل كنت بمجرد هذه المعرفة شاكراً . قال موسى عليه السلام فى مناجاته إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك — فقال الله عز وجل — علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكراً — فحينئذ لا يكون الشكر إلا بعد معرفة أن كل نعمة منه فان حصل عندك ريب فى هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم تعالى .

أما الحال وهو الفرح الذى يحصل للعبد وقت النعمة فيجب أن يكون فرحه قاصراً على أن الله تعالى منحه هذه النعمة عناية به وشفقة منه عليه ، على أن لا يفرح بشىء من الدنيا إلا بما يوصّله للآخرة ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله .

وأما العمل فهو يتعلق بالقلب وبالجوارح وباللسان كما قلنا أما بالقلب فقصد الخير لكافة الخلق ، وأما بالجوارح وهى نعم الله تعالى على عبده ، فاستعمالها فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، فشكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، وهكذا ، وأما الشكر باللسان هو أن تُظهر الرضى عن الله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، قال صلى الله عليه وسلم لرجل (كيف أصبحت) قال بخير ، فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال ، حتى قال الرجل فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره ، فقال عليه السلام (هذا الذى أردت منك) (طب) واعلم أن الشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شىء إلى عبد مملوك لا يقدر على شىء فالاولى بالعبد إن كان لا يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلى وهو القادر على إزالة البلاء .

قلنا إن الجوارح نعمة من الله تعالى على العباد ؛ ولإيضاح ذلك نقول إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم ، ولكنهم لا يحسنون استعمالها ، فيبعدون بذلك عن حضرة خالقهم ولما كانت سعادتهم فى القرب منه أعدّ لهم من النعم مايقدرون على استعمالها فى نيل درجة القرب ؛ وقد عبر تعالى عن قربهم وبعدهم بقوله (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون) فإذاً الجوارح نعم لأنها آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين وقد خلقها الله تعالى لأجل أن ينال العبد بها درجة القرب فى حال أنه سبحانه وتعالى غنىٌّ عن العبد بَعُدَ أم قرُبَ . فالعبد إما أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لاكتسابه محبة مولاه ، وإما أن يستعملها فى معصية فيكون قد كفر ، لارتكابه مايكرهه مولاه ولا يرضاه له ، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها لا فى طاعة ولا فى معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع .

وقد يسأل القارىء كيف يكون للعبد قدرة على تحريك أعضائه إما فى طاعة وإما فى معصية ؛ والأمر كله بيد الله تعالى وقضائه وقدره ؛ فأقول ؛ نعم إن الطاعة

والمعصية تشملها مشيئة الله تعالى ، ولكن لا تشملها المحبة جميعاً ، والكراهة جميعاً ؛ فالطاعة مراد « محبوب » والمعصية مراد « مكروه » . قال الشيخ عبد الكريم الجيلانى فى (الإنسان الكامل) وأشهد أن الله يريد الخير والشر ، وبيده الكسر والجبر ، فالخير بإرادته وقدرته ورضاه وقضاه ، والشر بإرادته وقدرته وقضائه لا برضاه . الحسنة بتأييده وهداه ، والسيئة مع قضائه بشؤم العبد واغتواه ، ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، قل كل من عند الله . انتهى . ووراء بيان هذا الأمر الدقيق سرّ القدر الذى مُنع من إفشائه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (القدرُ سرُّ الله فلا تفشوه) (حل) ولا يعلم تكييف ذلك إلا علام الغيوب . فإن قلت فلمَ قال الله تعالى — اعملوا وإلا فأنتم معاقبون على العصيان . فى حالة أن المعصية والطاعة تشملها مشيئته تعالى ، فاعلم أن هذا القول من الله تعالى يُسبب حصول الاعتقاد فينا ، والاعتقاد يُسبب هيجان الخوف ، وهيجان الخوف يسبب ترك الشهوات والتجافى عن الدنيا — ومن ترك الشهوات وتجافى عن الدنيا ، فقد تقرَّب إلى الله ، والله تعالى فى كل ذلك مسبِّب الأسباب ومرتِّبها ، فمن سبق له فى الأزل السعادة يُسِّر له هذه الأسباب ، حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويعبر عن ذلك معنى قوله عليه الصلاة والسلام (اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له) (ق) ومن لم يسبق له من الله الحسنى بَعُدَ عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء والوعّاظ ، فإذا لم يسمع العبد لم يعلم ، وإذا لم يعلم لم يخف ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا ، بقى فى حزب الشيطان (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) . فما مِنْ ناج إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الطاعات ، وهى تسليط العلم والخوف عليه ، وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل المعاصى ، وهى تسليط الغفلة والأمن عليه . فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار — فنصيحتى لك أيها المسلم أن تشكر مولاك على نعمة الاسلام وأن تتقيه ما استطعت ولا تعصيه ثم تقول هذا مقدَّر على ، وإنى غير موفق ، والواقع أن هذا الاعتقاد من عمل الشيطان ، ولا تجادل كثيراً أو قليلا فى كيفية تقدير الله على عباده ، بأن خلق بعضهم

للجنة وخلق بعضهم للنار ، لأن البحث فى ذلك ، بل مجرد التحدث به من غواية ابليس للعبد ليضله ، وكيف نحاول أن نفهم سر الله فى تقدير مصير خلقه ، وتدبير شئونهم ونحن عاجزون عن فهم شىء من سرّ أنفسنا وتدبير شئوننا . فالأولى بنـا عدم الخوض فى ذلك قطعاً . ونسأل الله أن لايجعلنا من الغافلين الذين إذا ماتوا وانكشف الغطاء عن أعينهم شاهدوا الأمر على حقيقته ، وسمعوا عند ذلك نداء المنادى (لمن الملك اليوم) فيقولون (لِله الواحد القهار) ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولـكن الغافلين عموا وصموا ، فلا يسمعون هذا النداء اليوم . ولتعلم دائماً أنه لا جزاء إلا على عمل ، وكلام الله تعالى من أوله إلى آخره يحض على الطاعة وينهى عن المعصية ، ولم نقرأ ما يجعلنا نعصى الله ارتكاناً على عفوه ومغفرته . نعوذ بالله من الجهل فإنه أصل أسباب الهلاك .

باب فى السبب المانع للخلق عن الشكر وعلاج ذلك

لم يمنع الخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، لأنهما يمنعان العبد عن معرفة حقيقة النعم ، ولا يتم شكر النعم إلا بعد معرفتها كما سبق ، ثم إن الجهّال إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يُقال باللسان (الحمد لله الشكر لله) ولم يعرفوا أن معنى الشكر ، أن تستعمل النعمة فى الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل ، فما من نعمة أنعم الله بها على عبده إلا لغرض استعمالها فى الطاعة ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هذه المعرفه إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان على العبد ، أما الغفلة فلهـا أسباب ، وأحد هذه الأسباب هو أن الناس لايعدون مايعم الخلق من نعمه ، ولذلك لا يشكرون على النعم العامة لأنها ممنوحة للجميع — فمثلا لا تجد أحداً يشكر الله تعالى على نعمة الهواء ، ولو منع عن الخلق لحظة لاختنقوا وماتوا جميعاً ، ولو وضعوا فى بئر فاسد الهواء لماتوا غماً ، ولـكن إذا ابتلى الإنسان بذلك ثم نجا فهو يَعد نجاته نعمة ويشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، لأن شكره صار موقوفاً على أن تُسلب منه النعم ثم ترد إليه ثانية ، وكان الواجب أن تشكر النعمة فى مجموعها بدلا من أن تشكر فى بعضها ، ومثلا لا ترى البصير يشكر الله على صحة بصره الذى خلق به ، ولـكنه

إذا عميت عينه ثم أعيد عليه بصرها شكر الله وعدّ ذلك نعمة عظيمة ، ولما كان فضل الله عميماً فقد عمّ جميع الخلق بنعمه وهذا غاية الجود وأقصى السخاء ولكن الجاهل لا يرى هذا الفضل نعمة ومثله فى ذلك مثل العبد السوء الذى يضرب به سيده دائماً فلو منع الضرب عنه ساعة عدّ ذلك منّة من سيده وفضلاً . والعجيب أننا لا نشكر إلا على وجود المال فقط ، هذا إن شكرنا ، وقد نسينا أن كل ما نشاهده وما نحس به وما نستعمله فى حياتنا نعمة من نعم الله علينا . حكى أن بعضهم شكا فقره إلى بعض العارفين فقال له تقبل أن تكون أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا . قال تقبل أن تكون أخرساً ولك عشرة آلاف درهم فقال لا . قال تقبل أن تقطع رجليك ويديك ولك عشرون ألف درهم فقال لا . قال تقبل أن تكون مجنوناً ولك عشرة آلاف درهم فقال لا . فقال له أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك نعم لا تقبل التنازل عنها بخمسين ألف درهم ، فاقتنع الفقير وحمد الله على نعمه .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اعتبار النعمة الخاصة نعمة دون النعمة العامة ، كما أسلفنا ، وجب أن نشير إلى النعم الخاصة بإشارة وجيزة فنقول : ما من عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله لرأى أن لله تعالى عليه نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد مطلقاً ، يعترف بها كل عبد فى ثلاثة أمور — فى العقل والخُلُق وخواطر الفكر — أما العقل فما من عبد إلا وهو راض عن الله فى عقله ، ويعتقد أنه أعقل الناس وقلما يسأل الله العقل كما يسأله باقى حاجاته . فواجب عليه أن يشكر الله على هذا الاعتقاد وأما الخُلُق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمّها وإنما يذمها لأنه بريئاً عنها وليست فيه إذا كان كذلك وجب عليه أن يشكر الله تعالى إذْ مَنّ عليه بحسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيّء . وأما خواطر الفكر فما من عبد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح .

فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل واحد وهناك طبقات أخرى أعم من هذه قليلا ، فما من عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو صفاته أو أهله أو ولده

أو رِزْقِهِ أو فى سائر ما يحبُّه آموراً لو سلبت منه وأعطيت لغيره لكان لا يرضى مثال ذلك — أن جعله الله مؤمناً لا كافراً — وانساناً لا بهيمة ، وسليما لا مريضاً ، وذا مال لا فقيراً ، وصاحب حرفة لا عاطلا — فهذه نعم أنعمها الله على عبده خاصة ، ولكن لجهله لا يشعر بها ولا يقدّرها ، بسبب أنه دائماً ينظر لمن هو أعلى منه ، فيستحقر نعم الله عليه ، ولو نظر إلى من هو أقل منه لاستعظمها وشكر الله عليها — ويا ليته يساوى بين دينه ودنياه ، فينظر فى أمور دينه إلى من هو أعلى منه فيقلده ، بل بالعكس يرتكب الذّنب ثم يقول إن أكثر الناس مرتكبون ما هو أعظم ، فمثلا إذا كان يشرب الخمر يقول إن فلاناً يشرب الخمر ويزنى ، وأنا أحسن منه ، والذى يشرب الخمر ويزنى يقول إن فلاناً يشرب الخمر ويزنى ويسرق وأنا أحسن منه ، وهكذا فيجعل النظر دائماً إلى من هو أشد منه معصية ليعزّى نفسه على ارتكاب الذنوب ، ويا ليته ينظر الى من هو أشد منه تديناً فيقتدى به ويجاهد نفسه فى تقليده . قال سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (مَنْ نظرَ فى الدنيا الى مَنْ هو دُونه ونظرَ فى الدّين الى مَنْ هو فوقَه كتَبَه اللهُ صابرا وشاكرا ومَنْ نظرَ فى الدنيا الى مَنْ هو فَوقَه وفى الدين الى مَنْ هو دُونه لم يَكتبْه الله صابرا ولا شاكرا) (ت) — فاعلم هدانا وهداك الله أن من تبصّر فى حال نفسه وجد لله تعالى فى نفسه نعما كثيرة ، لا سيما من أنعم الله عليه بنعمة التوحيد والإيمان ورزقه الأمن والعافية واليقين وغير ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كفى باليقين غنى) (طب) ، وقال عليه السلام (مَنْ أصبحَ آمناً فى سِربه مُعافى فى بَدَنِه عِنْدَهُ قوتُ يومِه فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها) (ت) ولكن الناس يشكون ويتألمون لجهلهم بحقيقة هذه النعم ولا يشكرون الله عليها ، فإن قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة عن الشكر حتى تستشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . فأقول القلوب فى ذلك اثنان : قلوب بصيرة وعلاجها التأمل فيما أشرنا اليه من أنواع النعم العامة التى بسببها تعيش الخلق وتحيا — وقلوب بليدة لا تعتبر النعمة نعمة الا اذا خصتها بالذات ، وهذه القلوب يجب على أصحابها أن ينظروا دائماً إلى من دونهم من الخلق فيستريحون ويقنعون بما هم فيه ، وقد كان بعض الصالحين يتوجه الى دار المرضى ليشاهد أنواع

الأمراض ؛ وما ابتلى الله به عباده من أنواع البلاء ، ثم يتأمل فى صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة ويشكر الله تعالى عليها ؛ ويشاهد أيضاً المجرمين والأشرار الذين يقتلون النفس فيسجنون ويعذبون فى سجنهم بأنواع العذاب ، فيشكر الله الذى عصمه من ارتكاب مثل هذه الجنايات ، فإذا عرف الإنسان ذلك طلب من الله تعالى أن يهيئه لأن يصرف بقيـــة العمر فيما خلق العمر لأجله ؛ وهو التزود من الدنيا للآخرة . فهذا علاج القلوب الغافلة ، ومما ينبغى أيضاً أن تعالج به القـلوب البعيدة عن الشكر ؛ أن تعـرف أن النعم اذا لم تشكر زالت ولم تعُـد . وفقنا الله وإياكم لشكره .

باب فى فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه العزيز ؛ فقال عزوجل (فاذكرونى أذكركم واشكرولى ولا تكفرون) وقال تعالى (ما يفعل الله بعـذابكم إن شكرتم وآمنتم) ولعلو رتبة الشكر طعن إبليس فى الخلق فقال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر فقال (لئن شكرتم لأزيدنكم) واعلم أن الشكر خُلُق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى(والله شكور حليم) وجعل الله الشكر مفتاح أهل الجنة ؛ فقال تعالى (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) وقال (وآخر دعواهم أن الحمـــد لله رب العالمين) وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) (ت) وروى عن عطاء أنه قال دخلتُ على عائشة رضى الله عنها فقلت اخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت — وأى شأنه لم يكن عجباً ؛ إنا فى ليلة فدخل معى فى فراشى أو قالت فى لحافى حتى مس جلدى جلده ؛ ثم قال (يا إبنةَ أبى بكر ذرينى أتعبد لربى) قالت قلت إنى أحب قربك ؛ ولـكنى أوثر هواك فأذنت له فقـام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ؛ ثم ركع فبكى ؛ ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ؛ فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ؛ فقلت يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ قال

(أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولم أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علىّ (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم) (حب) وقال عليه السلام (يُنادَى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة) قيل ومن الحمادون قال (الذين يشكرون الله تعالى على كلّ حال) وفى لفظ آخر (الذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء) (طب) ولما نزل فى كنز المال مانزل فى القرآن قال سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ، أىّ المال نتخذ ، فقال عليه السلام (ليتّخذ أحدُكم لساناً ذاكرا وقلباً شاكرا وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته) (ت) فهذا خير وأبقى .

باب فى حقيقة الزهد وفضيلته

إعلم أن الزهد مقام شريف من مقامات الصالحين ، وهو أن يزهد العبد فى الدنيا فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعة فيه ، على أن تشتغل العين واليد وسائر الجوارح فى الطاعات . وليس من زهد فى التراب والحجر بزاهد ، بل الزاهد الذى يترك الدّرهم والدينار — لأن الحجر والتراب لاتهواهما النفس . فالزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها فيتركها خوفاً من أن يركن اليها ويأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله أو يتركها طمعاً فى ثواب الآخرة فيترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً فى أشربة الجنة ويترك التمتع بالنساء طمعاً فى الحور العين ويترك التنزه فى البساتين طمعاً فى بساتين الجنة ويترك المطاعم اللذيذة طمعاً فى فواكه الجنة فيفضل ما وعد به فى دار النعيم على ملاذ الدنيا فحقيقة الزهد هو ترك كل شهوة وكل حظ فى الدنيا طلباً للآخرة ، فينبغى على العبد الزاهد أن يعلم أن الدار الآخرة خير له من الدار الفانية ، حتى يبيع دنياه بآخرته بعد علمه بأفضلية الآخرة على الدنيا ، ومتى قوى يقينه فى ذلك كان زاهدا حقاً — كما قال الله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنينَ أنفسهم وأموالـَهُم بأن لهم الجنةَ) ثم بين أن صفقتهم رابحة بهذا البيع فقال تعالى (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) .

وأما الأخبار فما ورد منها فى ذم الدنيا كثير ، ونحن الآن نقتصر على ذكر بعض

ماورد فى فضيلة بغض الدنيا وهو عين الزهد – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ أصبح وهمهُ الدنيا شتت الله عليه أمرَه وفرق عليه ضَيْعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومَنْ أصبح وهمهُ الآخرة جمعَ الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة) (ه) وقال عليه السلام (إذا رأيتمُ العبدَ وقد أعطى صَمتاً وزهداً فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقّنُ الحكمةَ) (ه) ولذلك قيل من زهد فى الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وانطلق بها لسانه . وقال عليه الصلاة والسلام (إن أردت أن يحبّك الله فازهدْ فى الدنيا) (ه) فجعل الزهد سبباً فى المحبة ، ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أصبحت مؤمناً بالله حقا – فقال له (انظر ماتقولُ فإن لكلّ قول حقيقة فما حقيقة إيمانك) فقال يارسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا ، أى أدبرت وهربت ، فأسهرتُ ليلى ، وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها . فقال عليه السلام (أبصرتَ فالزمْ ، عبدٌ نوّر الله الإيمـانَ فى قلبهِ) (طب) فانظر ياعبد الله – هدانا وهداك الله – كيف بدأ اظهار حقيقة الإيمان بزهد النفس فى الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما سئل عليه السلام عن معنى قوله تعالى (فمَنْ يُردِ الله أن يهديَه يَشرح صدره للإسلامِ) قال (إن النور اذا دَخل القلبَ انشرح له الصدرْ وانفسح) قيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ، قال نعم التجافى عن دارِ الغرور ، والإنابةُ الى دار الخلود ، والاستعدادُ للموت قبل نزولهِ) (ك) فجعل الزهد شرطا للإسلام وهو التجافى عن دار الغرور .

وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيتُ لما رأيتُ به من الجوع فقال (يا عائشة والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ، ولكنى اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض

لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا ، والصبر على محبوبها ثم لم يرض لى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله) (أبو منصور الديلمى) فتأمل أيها المسلم فى زهد نبيك صلى الله عليه وسلم فى الدنيا واتبع سنته مادمت قد اتبعت شريعته ، وقال عليه السلام (إزهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس (ق) . والأخبار الوارده فى مدح الزهد وذم الدنيا كثيرة فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما ذكر كفاية للمستبصر .

باب فى حقيقة الرضا

الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين ، وحقيقته غامضة على الكثير من الخلق لما يدخل عليه من التشابه والابهام ، فلا تنكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفقهه فى الدين ، وقد حرر حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فى هذا الباب من الإحياء ما نلخصه فيما يأتى :

إعلم أن من أحب إنساناً رضى بما يفعله لأن الحب يورث الرضا بأفعال المحبوب ولهذا سببان — أحدهما أن الحب يبطل إحساس المحب بالألم ، فإذا أصابه ما يؤلمه لم يحس به ، مثال ذلك الرجل المحارب فإنه فى حال غضبه قد تصيبه طعنة فلا يحس بها إلا إذا رأى الدم يسيل منه ، لأن القلب متى كان مشغولا بشىء ومستغرقاً فيه لا يشعر بما عداه ، هذا إن كان ما يشغله من غير حبيبه ، فكيف إذا كان الشاغل للقلب من جهة المحبوب فلا شك أن يكون انشغاله أكبر ، نقول ذلك فيمن يحب أو يعشق إنساناً لجمال صورته أو لحسن طباعه أو لفرط آدابه ، أو لأية فضيلة فيه ، أما من يكون عشقه ومحبته لجمال حضرة الربوبية وجلالها فلا شك أن عشقه لا يوصف ومحبته لا تتناهى ، لأن من ينكشف له شىء من جمال الحضرة الربانية وجلال الهيبة الإلهية ، قد يدهش فلا يحس بما يقع له — أما السبب الثانى — فانه يحس بالألم ويكون راضياً به بل راغباً فيه ، كمن يطلب من الحجام أن يحجمه فهو يشعر بألم الحجامة

لكنه راض عن فعل الحجام ، بل يعطيه أجراً على فعله ، فهذا حال الراضى عن الألم مع شعوره به ، فمن باب أولى أن من تصيبه بلية من الله تعالى وكان عنده يقين بأن ثوابه المدخر له أعظم مما ناله من المصائب والبليات ، رضى بها ورغب فيها وأحب الله وشكره عليها — هذا إن كان لنيل الثواب والإحسان — وهناك درجة أعلى وهى أن يغلب الحب على قلبه فيكون رضاه بالمصيبات كونها من فعل محبوبه ، وهو الله سبحانه وتعالى ويرى بأن رضاء مولاه غاية مطلوبة . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلنى على أعبد أهل الأرض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره ، فسمعه وهو يقول إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت وسلبتنى ما شئت أنت وأبقيت لى فيك الأمل يا برّ يا وصول . وقيل لأحد العارفين بالله هل نلت غاية الرضى عنه فقال أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضى قد نلت ، لو جعلنى جسراً على جهنم يَعبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملأ بى جهنم تَحِلّة لقسمه وبدلاً من خليقته لأحْبَبت ذلك من حكمه ورضيت به من قَسَمِه . وكان عمران بن حصين قد مرض بالاستسقى فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، فدخل عليه مطرف وأخيه العلاء فجعل مطرف يبكى لما يراه من حاله ، فقال لم تبكى ، قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة . قال عمران لا تبك فإن أحبّه إلى الله تعالى أحبّه إلىّ ، ثم قال ، أحدثك شيئاً لعلّ الله أن ينفعك به واكتم علىّ حتى أموت . إن الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلّم على فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لا يكون راضياً به .

فلا نطيل على القارىء لأن أمثال هذه الوقائع كثيرة مما كان يحصل لعباد الله الراضين بقضائه وقدره . فإذا قلتَ إن هؤلاء قوم لهم عزمهم وقدرتهم على احتمال مثل هذا البلاء . فاعلم أن العزم موجود عند كل إنسان ولكن تنقصه الهمة والإرادة القوية ؛ وهذا يأتى تدريجيًا بعد إيقاظ القلب من غفلته ؛ وشفائه من علته ؛ ليعرف حقيقة أفعال الله سبحانه وتعالى ومحبته للعبد ؛ وما يريده له من الخير فى الدنيا والآخرة بالابتلاء. ولكن من لم يذق طعم الحبّ لم يعرف عجائبه ، فللمحبين

عجائب أعظم مما وصفنا . ومن يداخله الشك فى تصديق ذلك مثاله مثال من فقد بصره فأنكر جمال الصورة ومن فقد سمعه فأنكر لذيذَ الألحان ومن فقد قلبه لا بد وأن ينكر هذه اللذات التى لا محل لها سوى القلب .

باب فى فضيلة الرضا

قال الله تعالى (رضى الله عنهم ورَضُوا عنه) وقال عز وجل (ومساكنَ طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبر) فكما أن ذكر الله فى الصلاة أكبر من الصلاة ، فكذلك رضوان رب الجنة أعلى من الجنة ، بل هو غاية مطلب سكان الجنان . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك) (طب) فسؤالهم الرضا بعد النظر إلى وجهه تعالى لما علموا أنه سبب دوام رفع الحجاب . قال الله تعالى (ولدينا مزيد) قال بعض المفسرين يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف عن عند رب العالمين ، إحداها هديَّة من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها ، فذلك قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك عن الهدية فضلا ، وهو قوله تعالى (سلام قولا من ربّ رحيم) والثالثة يقول الله تعالى — إنى عنكم راض — فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى (ورضوانٌ من الله أكبر) أى أكبر من النعيم الذى هم فيه . وأما الأخبار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سأل طائفة من أصحابه (ما أنتم) فقالوا مؤمنون ؛ فقال (ماعلامة إيمانكم) فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال عليه السلام (مؤمنون وربِّ الكعبة) (ق) وقال عليه السلام (مَنْ رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل) (أبو منصور الديلمى) صاحب الفردوس وقال عليه السلام (من أحبّ أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى يُنزل العبد منه حيث أنزله

العبد من نفسه) (ك) وروى فى الإسرائيليات أن عابداً عبدَ الله دهراً طويلافرآى فى المنام قائلا يقول له فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ، فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثة أيام لينظر إلى عملها فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ، ويظلّ صائما وتظل مفطرة ، فقال أما لك عمل غير مارأيت ، فقالت ماهو والله إلا مارأيتَ لاأعرف غيره ، فلم يزل يقول تذكرى ، حتى قالت خصيلة واحدةهى فىّ ، إن كنتُ فى شدةلم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمنّ أن أكون فى صحة ، وإن كنتُ فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خُصيلة هذه والله خصلةٌ عظيمة يعجز عنها العباد . قد قرأت أيها المؤمن ماجاء فى فضل الرضا بقضاء الله وقدره وعلمت أن رضاء الله تعالى عن العبد أعظم من جنات عدن ، ولا ينال العبد هذه الدرجة إلا برضائه هو عن فعل ربه . نسألك التوفيق لنيل رضاك يارب العالمين .

باب فى حقيقة الصبر

اعلم هدانا وهداك الله أن الصبر مقام عظيم من مقامات الدّين ، ومنزل من منازل السالكين ، فمقامات الدّين تنتظم دائما من ثلاثة أمور ، معارف ، وأحوال ، وأعمال فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر الأعمال ، وقد يطلق اسم الإيمان على كل ذلك ، فالصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وهو خاصية الإنس فلا يكون الصبر فى البهائم والملائكة — أما البهائم فلنقصانها ، وأما الملائكة فلكمالها ، ولبيان ذلك نقول إن البهائم قد سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فى البهائم قوة تصادم الشهوة وتردها ولا معرفة لها أيضاً بعواقب الأمور ولا هداية لها إلى أمر دون الآخر . وأما الملائكة عليهم الصلاة والسلام فانهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها فلا تسلط عليهم شهوة تصدهم عن حضرة ذى الجلال حتى تحتاج إلى مقاومة — أما الإنسان فإنه خلق فى ابتداء الصبى ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم تخلق

فيه شهوة النكاح وغيره ؛ وهو بطبيعته ليس له قوة الصبر البتة ؛ لأن الصبر عبارة عن ثبات جند ضد جند آخر ؛ وليس فى الصبى إلا جند الهوى ؛ ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم واختصهم بصفتين إحداهما معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم . والثانية معرفة عواقب الأمور ؛ وكل ذلك بواسطة الملك الموكل بالهداية والتعريف ؛ فصار الانسان يعرف بنور الهداية أن اتباع الشهوات له عواقب مكروهة ؛ ولكن هذه الهداية لم تكن كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . ثم وكل الله تعالى بالإنسان ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم يرها ؛ وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوات ؛ فتارة يضعف وتارة يقوى ؛ وذلك بحسب إمداد الله تعالى للعبد وتأييده ، فعلى ذلك يسمى قمع الشهوات وقهرها باعث الدين ؛ واتباع الشهوات يسمى باعث الهوى . فالقتال بين باعث الدين وباعث الهوى مستمر ؛ والملائكة الناصرين لحزب الله تعالى تمدّ باعث الدين ، كما أن الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى تمد باعث الهوى . فالصبر هنا عبارة عن ثبات باعث الدين أمام باعث الشهوة ؛ فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ؛ وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها ، التحق بأتباع الشياطين . وللصبر أقسام وحالات نذكرها فيما يأتى :

باب فى حاجة العبد إلى الصبر

اعلم أن جميع ما يلاقيه العبد فى هذه الحياة نوعان — أحدهما ما يوافق هواه ؛ والآخر ما لا يوافقه . والعبد محتاج إلى الصبر فى كلتا الحالتين . فالنوع الأول الذى يوافق هوى الإنسان هو الصحة والمال والحياة وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وجميع ملاذ الدنيا ؛ والعبد محتاج إلى الصبر على هذه الأمور ، فإن لم يضبط نفسه عن الانهماك فى ملاذّها المباحة ، أخرجه ذلك الانهماك إلى البطر والطغيان . فإن الانسان ليطغى أن رآه استغنى .

فالرجل هو الذى يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها ، ويعلم

أن كل ذلك مستودع عنده — والنوع الثانى — ما لا يوافق الهوى وهاك بيانه : أولا — الصبر على الطاعة — ثانياً — ملازمة الصبر فى حالة العمل — ثالثاً — الصبر عند الانتهاء من العمل ، وهو الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، كما قال تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله — رابعاً — الصبر على المعاصى فما أحوج العبد إلى الصبر عنها . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وقال صلى الله عليه وسلم (المهاجر من هجر السوء والمجاهدَ من جاهد هواه) (هـ ن) فالمعاصى هى بواعث الهوى وأشدّ أنواع الصبر الصبر على المعاصى التى أصبحت ، ويا للأسف مألوفة بالعادة — خامساً — الصبر على أمور كثيرة لا تدخل تحت حصر ، كالمصائب مثل موت الأحبة ، وضياع الأموال ، وزوال الصحة ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء ، وبالجملة سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما ، الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه ، صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة لأن الصبر على بلاء الله تعالى لا يقدر عليه إلا الصديقون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — (أسألك من اليقين ما تهون به علىّ مصائب الدنيا (ت) .

وقال عليه الصلاة والسلام (ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى — إنا لله وإنا اليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك) (م) وقال داود عليه السلام يا رب ما جزاء الحزين الذى يصبر المصائب ابتغاء مرضاتك — قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً — وقال داود لسليمان عليهما السلام — يُستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات — واعلم أن درجة الصبر فى المصائب لا تنال إلا بترك الجزع وشق الجيوب ولطم الخدود ، وترك المبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة ، فهذه الأمور داخلة تحت

اختيار العبد ، فينبغى أن يتجنبها جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويستمر على عادته ، ويعتقد أن ما فقد منه كانت وديعة عنه واسترْجعت ، ويجب عليه أيضاً تنفيذ ذلك فى أهل بيته وكل من فى طاعته . روى عن الرميصاء أم سليم أنها قالت : توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب ، فقمت فزجّيته فى ناحية البيت ثم هيأت لزوجى إفطاراً فجعل يأكل ، فقال كيف الصبى ، قلت بأحسن حال بحمد الله ومَنه ، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنَّعت له أحسن ما كنت أتصنع له من قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته فقلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم . قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا . فقال بئس ما صنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قبضه اليه ، فحمد الله واسترجع . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه الصلاة والسلام (اللهم بارك لها فى ليلتهما) (طب) قال راوى الحديث فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن . واعلم أن من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصيبات .

باب فى فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف شريفة ، وذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال عز وجل (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمَّا صبروا) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) كما وعد الصابرين بأنه تعالى معهم فقال (واصبروا إن الله مع الصابرين) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فالصلوات والرحمة والهدى للصابرين . واعلم أن استقصاء جميع الآيات الواردة فى مقام الصبر وفضيلته يطول . أما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم (الصبر نصف الإيمان) (حل) .

وروى جابر أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال (الصبر والسماحة)

(أبو منصور الديلمى) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال (أمؤمنون أنتم) فسكتوا ، فقال عمر رضى الله عنه نعم يا رسول الله ، قال (وما علامة إيمانكم) قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء . فقال عليه الصلاة والسلام (مؤمنون ورب الكعبة) (طب) وقال عيسى عليه السلام (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاث مقامات ، أولها ترك الشهوات وهذه درجة التائبين ، والثانية الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين ، والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين .

باب فى حقيقة الصدق

اعلم أن الصدق ركن من أركان الدّين العظيمة ، وهو يستعمل فى ستة أمور . صدق فى القول ، وصدق فى النيّة ، والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صدّيق . ومن اتصف بالصدق فى شىء من ذلك فهو صادق بالنسبة لما صَدَقَ فيه . وبياناً لذلك نقول .

ـ الصدق الأول ـ وهو الصدق فى القول أى صدق اللسان ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه ولم يخبر عن الشىء إلا بحقيقته فهو صادق وقد رخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع . من أصلح بين إثنين ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب . فالصدق هنا يتحوّل إلى النيّة فمتى صحّ قصده وصدقت نيته وإرادته للخير كان صادقاً ـ ومن باب أولى يجب على العبد أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله فى الصلاة (اياك نعبد) وقوله أنا عبد الله ، فإنه اذا لم يتّصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن صادقاً فى قوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعس عبد الدنيا وتعس عبد الدرهم وعبد الحلّة وعبد الخميصة) (خ) فقد سمى كل من تقيد بشىء عبداً له .

ـ الصدق الثانى ـ الصدق فى النية والإرادة ، ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث فى قلبه فى حركاته وسكناته إلا الله تعالى ، فان خالطه شىء من حظوظ النفس بطل صدق النية . قال الله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقد قالوا إنك لرسول وهذا صدق ولكن كذبهم من حيث ضمير القلب ونياتهم .

ـ الصدق الثالث ـ وهو صدق العزم ، فإن الإنسان يقدّم العزم على العمل فيقول فى نفسه إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد يصادفها قوة وتأكيد من نفسه ، فتكون جازمة صادقة ، وقد يصادفها تردّد وضعف فيبطل الصدق فى العزيمة .

ـ الصدق الرابع ـ وهو الصدق فى الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم إذ لا مشقة فيه ، ولكن عند تحقيق الفعل تبخل وتغلب الشهوة ولم يتم الوفاء بالعزم ، وهذا ينافى الصدق فيه .

ـ الصدق الخامس ـ الصدق فى الأعمال ، وهو أن يكون باطنه مثل ظاهره أى يصدّق باطنه مايعمله بالظاهر لا كمن يقوم فى صلاته خاشعا بين يدى الله فتراه تحسبه خاشعاً ولكنه فى الباطن قائم فى السوق مفكر فى شهوة من شهوات الدنيا فهو غير صادق فى عمله لأن سريرته غير مصدقة لعلانيته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتى واجعل علانيتى صالحة) فاعلم أن مساواة السريرة للعلانية أهم أنواع الصدق (ق)

ـ الصدق السادس ـ وهو أعلى الدرجات وأعزها ، وهو الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء ، وتعظيم الله تعالى ، والزهد والرضا والتوكل والحب ، فإن هذه الأمور فضلا عن ظواهرها فإن لها حقائق . فالصادق المحقق من نال حقيقة بواطنها ، لأن الشىء إذا غلب على العبد وتمت حقيقته عنده ، سمى صاحبه صادقا فيه . قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقال تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه

ذوى القربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا) — وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الإيمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية . فتحقيق هذه الأمور عزيز جداً ولكن لكل عبد حظ فى خوفه بحسب حالته ، إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً فيه . فهذه درجات الصدق وحقيقته .

باب فى فضيلة الصدق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الصدق يهدى إلى البرّ والبرّ يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) (ق) ويكفى فى فضيلة الصدق ماقرأته فى الباب السابق من آيات القرآن الكريم . ويكفى أيضاً أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء . فقال عز وجل (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) وقال الثورى فى قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) قال هم الذين ادّعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . . وهذا أمر على خطر عظيم ، فمن تأمل ذلك رأى أن الصدق درجة كبيرة من درجات الإيمان . وقبل أن أختم هذا الباب أذكر للقارىء ما رأيته فى بعض الكتب عن وهب ابن منبه ، وهو عبارة عن اثنين وعشرين حكمة آية فى البلاغة بقصد الإنتفاع بها . قال رحمه الله تعالى — وجدت على حاشية التوراة إثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بنى إسرائيل يجتمعون فيقرأونها ويتدارسونها — (لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب . ولا قرين أزين من العمل . ولا رفيق أشين من الجهل . ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى . ولا عمل أفضل من الفكر . ولا حسنة أعلى من

الصبر . ولا سيئة أخزى من الكبر . ولا دواء ألين من الرفق . ولا داء أوجع من الخرق . ولا رسول أعدل من الحق . ولا دليل أنصح من الصدق . ولا فقر أذل من الطمع . ولا غنى أشقى من الجمع . ولا حياة أطيب من الصحة . ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت) انتهى . جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

باب فى حقيقة الاخلاص

قال سهل رحمه الله تعالى — الإخلاص هو أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى ، وقال ابراهيم ابن أدهم الإخلاص هو صدق النية مع الله تعالى — وقال آخر الإخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً فى الدارين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس والتطلع اليها آفة سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . فالعابد الذى يعبد الله لأجل أن يتنعم بالشهوات فى الجنة فعبادته معلولة ، لأن حقيقة العمل أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، لا طلباً للجنة . ولا خوفاً من النار . وهذا إخلاص الصدّيقين . أما من يعمل لهذا أو ذاك فهو مخلص أيضاً ؛ ولكن بالنسبة للعمل الذى أخلص فيه ، ولكن إذا تصدق العبد وكانت نيته الرياء كان مخلصاً بالنسبة لفعل التصدّق فقط ، ولم يكن مخلصاً فى نيته . أما إذا كانت نيته ابتغاء وجه الله تعالى ، كان مخلصاً فى العمل وفى النية . وعلى ذلك ، فحقيقة الإخلاص العمل الذى لا يقصد به إلا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته ، وما عدا ذلك فلا يسمى إخلاصاً . وإليك بعض الأمثلة عن الأعمال التى يقوم بها العبد يقصد بها التقرب إلى الله تعالى ، وإنما يتطرق إلى هذا القصد شىء من شهوات النفس أو حظ من حظوظ الدنيا ؛ كمن يصوم لينتفع بالحمية التى تحصل من عدم الأكل وهو مع ذلك يقصد التقرب إلى الله تعالى بالصوم ومن يحج ليصحّ جسمه بحركة السفر بتغير الهواء أو يحج ماشياً ليوفر عن نفسه نفقات السفر ومن يصلى بالليل ليدفع عن نفسه النوم ليقوم بمراقبة أهله وحراسة مزرعته أو ماله أو يتعلم العلم ليسهل عليه الحصول على المال أو ليكون

محترماً بين قومه أو يكتب مصحفاً بخطه ليحسِّن خطه أو يتوضأ لينظف أعضاءه أو ليتبرّد بالماء أو يروى الحديث ويعظ الناس ليقال أنه عالم أو يتصدق على السائل ليقطع تردّدَه عليه أو يعود مريضاً ليعوده الناس إذا مرض أو يشيِّع جنازة لتشيع الناس جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير عند الناس وينظروا اليه بعين الصلاح والوقار. فمتى كان الباعث على العمل التقرّب إلى الله تعالى فهو الإخلاص بعينه ، أما إذا أضيف اليه سبب من الأسباب التى ذكرناها فقد خرج عمله عن حدِّ الإخلاص وتطرّق اليه الشرك الخفى الذى يحبط الأعمال ولذلك قيل مَن سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا . وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب من الشوائب نسأل الله أن يطهر قلوبنا منها .

باب فى طريقة الحصول على الاخلاص فى العمل

الطريقة التى يتحصل بها العبد على الإخلاص فى عمله ؛ هى كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ؛ بحيث يغلب ذلك على القلب ؛ فعندها يتيسر الاخلاص ، لأنه لا يرى أمامه إلا الله تعالى وما سواه فهو باطل ؛ فيخلصُ وتخلصُ أعماله ؛ فكم من أعمال يتعب فيها العبد ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً ، لأنه لا يرى طريق الآفة فيها ؛ كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيتُ صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول ؛ وقد تأخرت يوماً لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى ؛ فعرفت أنى كنت مسروراً بنظر الناس إلىّ ، وأنا فى الصف الأول ، وكان قلبى يستريح لذلك من حيث لا أشعر ، وبذلك ضاع ثواب الثلاثين عاماً . فاعلم أن هذه آفة غامضة قلما تسلم أعمال العبادة من أمثالها ، والقليل من يتنبه لها ، وهو من وفقه الله تعالى . فالغافلون عنها يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات ، وهم المرادون بقوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) وبقوله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) . فتأمل أيها المؤمن الذى يريد وجه الله فى خطورة هذه الحالة ،

حينما تذهب حسنات العبد وتنقلب عليه سيئات لدخول الآفات عليها . فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الكثير إلا النادر ، وهو المستثنى فى قوله تعالى (إلا عبادك منهم المخلَصِين) فنصيحتى لك أيها المسلم (ويا ليتنى كنت ناصحاً لنفسى) أن تكون شديد النقد والمراقبة لهذه الدقائق ، والله فى عون العباد .

باب فى فضيلة الإخلاص

أما فضيلة الإخلاص فقد قال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين) وقال جل شأنه (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) وقال مُصعب بن سعد عن أبيه قال النبى صلى الله عليه وسلم (إنما نصر الله عز وجلّ هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاص صلاتهم) (ن) وقال على كرم الله وجهه — لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل (أخلص العمل يجزك منه القليل) (أبو منصور) وقال (أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة ، رجل أتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعتَ فيما علمت ، فيقول يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبتَ وتقول الملائكة كذبتَ — بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل أتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمتُ عليك فماذا صنعتَ ، فيقول يا رب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى كذبتَ وتقول الملائكة كذبتَ ، بل أردت أن يقال فلان جوّاد ألا فقد قيل ذلك ، ورجل قُتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعتَ ، فيقول يا رب أمرتَ بالجهاد فقاتلتُ حتى قتلتُ ، فيقول الله تعالى كذبتَ وتقول الملائكة كذبت ، أردتَ أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك) قال أبو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى ، وقال (يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة) فدخل راوى الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله العظيم ، إذ قال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) (م)

وقال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر رضى الله عنه (يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق ، وخذ الزاد كاملا فإن السفر بعيد ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فان الناقد بصير) أو كما قال .

وقال يحي بن معاذ الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم .

وقال بعض الصالحين إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً . أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم . وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال محمد بن سعيد المروزى الأمر كله يرجع إلى أصلين . فعل من الله بك ، وفعل منك له ، فترضى مما فعل بك ، وتخلص فيما تعمل له ، فإذا أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين .

باب فى حقيقة النية

إعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات بمعنى واحد ، وهى حالات للقلب تتكون من أمرين : علم وعمل . فالعلم فى النية هو الأصل ، والعمل يتبعه . ولإيضاح ذلك نقول ، أن كل حركة وسكون اختيارى لا يتم إلا بثلاث أمور — علم وإرادة وقدرة (نقول اختيارى مع أن العبد ليس له اختيار ، ولكننا نعبر بكلمة اختيارى هنا عن الحركه التى يعملها الإنسان بنفسه دون أن يجبر عليها من الغير ، كأن يقوم ويمشى ويجلس وينام وهكذا) هذه الحركة وهذا السكون لا يتم إلا بعلم أولا ، وإرادة ثانياً ، وقدرة ثالثاً ، أعنى أن الإنسان يعلم أولا بالشىء ومتى كان موافقاً حصلت الإرادة ثم تنبعث من هذه الإرادة القدرة على العمل ، فيحصل العمل بعد ذلك .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات) أى أن الأعمال تابعة للنية وليس للأعمال حكم فى نفسها وإنما الحكم للنية .

قلنا إن النية حالات للقلب ، أما الأعمال فتقوم بها الجوارح ، وبذلك يكون القلب هو الأصل ، والأعضاء آلات موصلة للمقصود ، وفى الحديث (إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد) (ق) والمضغة هى القلب فمن ذلك كانت النية وهى عمل من أعمال الجوارح ، وفى الحديث (نية المؤمن خير من عمله) (طب) وذلك لأن النية لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى ، ولا يطلع عليها الخلق فلا

يتسرب اليها الرياء بخلاف العمل لأنه ربما عند حصوله يقصد به نوعا من الرياء أو السمعة أو التعظيم فيحبط العمل بل يزداد شراً باكتساب صفة الرياء أو انشغال القلب وقت العمل بمشاغل الدنيا مثال ذلك أنه إذا نوى الرجل الصلاة فالنية فى نفسها صادقة ولكن أثناء الصلاة شعر بتطلع الناس اليه فأعجبه ذلك وُسرّ منه أو كان أثناء سجوده مشغولا بالدنيا فلم يشعر بالسجود ولم يكن له أثر فى قلبه فاذا حصل ذلك تسرب الرياء للعمل أولا ثم ضاعت فائدة السجود ثانياً لأن فائدة السجود هى أن يشعر القلب بوضع الجبهة على الأرض فيحصل له التواضع لعظمة الله عز وجل — وعلى هذا فان العبادات التى يقوم بها الإنسان من غير نية حاصلة فى القلب باطلة . والأعمال المتعلقة بالعبد فى حياته على اختلاف أنواعها تنقسم إلى ثلاثة أقسام — معاصى وطاعات ومباحات — فالمعاصى لا تتغير عن أنها معاصى بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من معنى قوله عليه الصلاة والسلام (إنما الأعمال بالنّيات) فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يسرق نعجة فيذبحها ويتصدق بلحومها على الفقراء أو يبنى مسجداً من مال حرام فهذا مخالف للدّين فإن فعله وهو عالم به فهو معاند للشرع وإن كان جاهلا فهو عاص بجهله لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم وعلى هذا فكل مَن نوى فعل خير بمعصية وكان جاهلا فهو غير معذور فقد قال الله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال صلى الله عليه وسلم (لا يعذر الجاهل على الجهل) فلا يحل للجاهل حينئذ أن يسكت على جهله ويرضى به فليسأل العلماء ليصحح عبادته ، كما أنه لا يحل للعالم أن يكتم علمه أما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات) فيختص بالطاعات والمباحات فقط ، ولا يختص بالمعاصى ومعنى ذلك أن الطاعة تنقلب معصية بالنية والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالنية — أما المعصية فلا تنقلب طاعة بالنية أصلا .

أما الطاعات فهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها ، وفى تضاعف فضلها ، لأن الأصل فى الطاعات أن ينوى بها عبادة الله تعالى لاغير ، فان نوى الرياء صارت معصية ، أما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، ثم يضاعف ذلك إلى ما شاء الله .

مثال ذلك القعود فى المسجد فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ، ويبلغ به درجات المقربين كأن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون كأنه فى صلاة . وإن يكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات ، وعن استماع الغيبة والنظر إلى ما لا يحل النظر اليه والتجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره ، أو للتذكر به ، وغير ذلك . فهذا طريق تكثير النيات وقسْ على ذلك فى سائر الطاعات والمباحات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ، ولكن هذه النيات تحضر فى قلب الرجل المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتفكّره فيه .

وأما المباحات فما من شىء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات فما أعظم خسران من يغفل عنها وتمر على قلبه كما تمر على قلب البهائم المهملة فلا ينبغى حينئذ أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات واللحظات ، فكل ذلك يُسأل عنه يوم القيامة ، يقال له لماذا فعلت هذا وما الذى قصدتَه به . فاستيقظ أيها العبد وانتبه من غفلتك فغداً تسأل عن مباح محض قال عليه السلام (من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة) (أبو الوليد) فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية ، ونية التطيب إما أن تكون بقصد التلذّذ والتنعم ، فهذا ليس بمعصية . وإما أن تكون بقصد إظهار التفاخر بين الأقران أو بقصد الرياء ليعظمه الناس ويحترموه ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء وغير ذلك ، فكل هذا يجعل الطيب معصية .

واعلم أن المباحات كثيرة لا يمكن إحصاؤها كما لا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا المثل على ما سواه . وعلى ذلك ينبغى أن يكون لكل عمل نية ، مثل الأكل والشرب والوقاع وغير ذلك على شرط أن يقصد بالنية وجهَ الله تعالى . فمثلا عند الأكل تنوى أنه للتقوى على العبادة ، وعند الوقاع تنوى أنه لتحصين دينك وتطييب قلب أهل بيتك . والتوصل به إلى ذرية صالحة تعبد الله بعدك . فيجب على العبد أن يُحسن نيته فى كل شىء حتى عند ضياع ماله فيقول هو فى سبيل الله . فإياك إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك ، فاحذر غرورها وشرورها ولتستعد للإجابة عن كل عمل أو قول يوم السؤال ، فإن الله سبحانه وتعالى مطلع عليك وشهيد .

باب فى فضيلة النية

قال الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) والمراد بتلك الإرادة هى النية . وقال عز وجل (إن يريدا إصلاحا يوفق اللهُ بينهما) فجعل النية سبب التوفيق ، وقال صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمالُ بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرتهُ إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه) (ق) وقال عليه السلام (إن الله تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (م) وإنما نظر إلى القلوب لأنها محل النية . وقال عليه السلام (إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة فتلق بين يدى الله تعالى ، فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهى ، ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون ياربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك ؛ فيقول الله تعالى إنه نواه) (الدارقطنى) وفى حديث أنس ابن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال (إن فى المدينة أقواماً ماقطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ، ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة ؛ إلا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة) قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا ؛ قال (حَبَسهم العذرُ فشركوا بحسن النية) (خ) وفى حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما (ومن كانت الدنيا نيتّه جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ؛ ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها) (ه) وفى حديث الأحنف عن ابن بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار) قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال (لأنه أراد قتل صاحبه) (ق) وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من تزوج على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ؛ ومن أداه دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق) (أحمد) . قد علمنا مما ذكر فى هذا الباب أن عماد الأعمال النيات ، فالعمل محتاج إلى النية ليكون بها صالحا وخيراً . والنية فى نفسها خير إن تعذّر العمل بعائق — فما علينا إلا أن ننوى خيراً فى جميع أقوالنا وأعمالنا حتى نرجو الأجر والثواب .

باب فى حقيقة التوكل ومراتب التوحيد

إعلم أن أصل التوكل الإيمان ، وأصل الإيمان التوحيد ، والتوحيد هو قولك — لا إله إلا الله وحده لا شريك له — وكذلك إيمانك بقدرة الله تعالى ، وهو قولك — له الملك — وإيمانك بجوده تعالى الذى يدل عليه قولك — وله الحمد — فإذاً مَن قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير — تمّ له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، على شرط أن يكون معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه — فالتوحيد هو الأصل وهو البحر المحيط الذى لا ساحل له والقول فيه لا نهاية له . ولكن نقول إن التوحيد أربع مراتب ؛ فالرتبة الأولى من التوحيد ؛ هى أن يقول الانسان بلسانه — لا إله إلا الله — وقلبه منكر له ؛ كتوحيد المنافقين . والرتبة الثانية ؛ أن يصدق قلبه بمعنى اللفظ كما صدّق به عموم المسلمين وهو توحيد العوام ، والرتبة الثالثة ؛ أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بوساطة نور الحق ، وهو مقام المقرّبين ، وذلك بأن يرى الأشياء الكثيرة على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرتبة الرابعة أنه لا يرى فى الوجود إلا واحداً وهو الله تعالى ، فلا يرى نفسه أيضاً لكونه مُستغرقاً فى التوحيد ففنى عن نفسه فى توحيده — فصاحب الرتبة الأولى موحّد بمجرد اللسان ، وهذا التوحيد يحمى صاحبه فى الدنيا عن القتل فقط ، كما كان يفعل المنافقون ويفارقه عند الموت ، وصاحب الرتبة الثانية موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه ما يلفظه لسانه . ولكن هذا التوحيد ليس فيه انشراح وانفساح فى القلب ، غير أنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقيدته ، والثالث موحّد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحداً فى الكون ، لأن الحق انكشف له كما هو عليه . فلا يرى فاعلا بالحقيقة الا الله تعالى . والرابع موحد بمعنى أنه لم يرَ فى شهوده غير الله تعالى ، فلا يرى الكون ولا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل يراه من حيث أنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد . فأن قلت كيف يتصور أنه لا يشاهد الا واحداً فقط وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً — فاعلم أن هذه الغاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب فما على العبد إلا أن

يترك الإنكار والجحود لمقام لم يبلغه ويؤمن به فيكون له بهذا الإيمان نصيب وذلك كإيمانك بالنبوة وأنت لست بنبي فإن لك نصيباً فى إيمانك بالنبوة بقدر قوة الايمان وضعفه عندك ولكى نفهم كيفية ابتناء التوكل على التوحيد أقول . أما المرتبة الرابعة المشار اليها فلا يجوز الخوض فى بيانها ، وليس التوكل مبنياً عليها أيضاً ، بل يحصل حال التوكل بالمرتبة الثالثة ، لأن الأولى كما توضح هى النفاق ، والثانية موجودة فى جميع المسلمين وطريق تأكيدها عنـــدهم باللفظ – أما المرتبة الثالثة وهى التى يبنى عليها التوكل ؛ وهو أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر وصحة وسقم وقوة وضعف وغير ذلك مما ينطلق عليه اسم فى الكون ، فالمنفرد بإبداعه واختراعه وخلقه هو الله عز وجل لا شريك له فيه . ومتى انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك واليك رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فانه سبحانه وتعالى الفاعل على الانفراد ، فاذا انفتحت عين بصيرتك اتضح لك هذا وضوحا أتم من المشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فيتطرق إلى قلبك الشرك فيه بسببين – أحدهما . الالتفات إلى فعل الجمادات ، والثانى الالتفات إلى أفعال الخلق ، فالالتفات إلى فعل الجمادات مثل اعتقادك أن الماء هو الذى يخرج الزرع – وأن الغيم هو سبب نزول المطر ، وأن الريح هو الذى يسير السفينة ، فهذا كله شرك فى التوحيد ولذلك قال الله تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون) قيل معناه أنهم يقولون بعد أن ينجيهم الله تعالى لولا اعتدال الريح لما نجونا ومن انكشف له أمر العالم على حقيقته علم أن الريح لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وهو الله سبحانه وتعالى فمتى علمت وتحققت أن كل مافى السموات وما فى الأرض ؛ مسخَّر فى قبضة القدر كتسخير القلم فى يد الكاتب ، انصرف عنك الشيطان خائباً ويئس عن خلط توحيدك بهذا الشرك – أما التفاتك إلى أفعال الانسان فإن الشيطان يحدثك بقوله ، كيف ترى أن الكل من الله وفلان هو الذى يعطيك رزقك باختياره ، إن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الحاكم هو الذى يحكم بإعدام القاتل إن شاء حكم وإن شاء

عفا ، فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه . فاعلم أن هذا الإعتقاد هو اعتقاد ضعفاء العقول ، وهو كاعتقاد النملة حينما تدبُّ فوق الورق الذى يكتبه الكاتب ، فترى أن الذى يسوِّد الورق هو رأس القلم لقصر نظرها وضعف حدقته ، فلا ترى إلا راس القلم ، ولا ترى يد الكاتب التى تحرك القلم ، ولا ترى الكاتب نفسه الذى يحرك اليد فكذلك من لم ينشرح صدره للإسلام بنور الله تعالى ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، فلم يفهم أن الله قاهر وراء الكل ، وهو سبحانه مسخر للكل فوقف فى الطريق كما وقفت النملة عند رؤية رأس القلم ، وهذا جهل محض ، ولكن أرباب القلوب السليمة قد أنطق الله سبحانه وتعالى لهم كلَّ ذرة فى السموات والأرض ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله الواحد القهار ، وتقريرها وحدانيته جل شأنه . فكما أن حال التوكل الحقيقى لا يتم إلا بالثقة بالوكيل ، وطمأنينة القلب إلى حسن تصرفه وعظيم حكمته ، كذلك وجب على العبد الطالب لمقام التوكل أن يعتقد اعتقاداً قاطعاً لاريب فيه ويصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد عليهم مثل عددهم علماً وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكمة لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر أن يزاد فيما دبر الله سبحانه وتعالى الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منه جناح بعوضة ولا أن يُرفع منه ذرة ولا أن يخفض منه ذرة ولا أن يدفع مرض عن مريض أو فقر عن فقير أو يمنع عيب ونقص أو ضر عن أحد من البشر إذا أراده الله ولا أن يزيل صحة أو كمالا أو غنى أو نفعاً عمن أنعم الله به عليه بل كل ماخلق الله تعالى من السموات والأرض أن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيهما من تفاوت ولا خلل فسبحان المبدىء والمعيد . واعلم هدانا وهداك الله أن كل ماقسم الله تعالى بين عباده ، من رزق وأجل وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وغنى وفقر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ،

وصحة وسقم ، فكله عدل محض لاجور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب والنظام الواجب الحق ، على ماينبغى ، وكما ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ، ولا أكمل ، فلو كان هناك كمال وادخره الله مع القدرة عليه ولم يتفضل بفعله ، لكان بخلا يناقض الجود ، وظلماً يناقض العدل ، وعجزاً يناقض القدرة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فتيقن أيها العبد ليخلص إيمانك ويتم توكلك ، أن كل فقر وضرر فى الدنيا ، فهو نقصان فى الدنيا وزيادة فى الآخرة ، هكذا اقتضت الارادة الإلهية . واعلم أن هذا بحر عظيم العمق واسع الأطراف ، مضطرب الأمواج ، فيه غرق الكثير من القاصدين . ولم يعلموا أن ذلك غامض لايعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى منع من إفشائه . قال عليه الصلاة والسلام (إذ ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا) (طب) فالواجب على العبد أن يعلم علم اليقين بلا ريب ولا تشكيك ، أن الخير والشر مقضى بهما ، وأن ماقضى الله به وشاءه واجب الحصول ، فلا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، وأمره سبحانه وتعالى بين كل كبيرة وصغيرة مستطر ، ووقوعه بقدر معلوم منتظر ، فما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . فهذه كلها رموز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل . والله تعالى أعلم .

باب فى بيان حال التوكل

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال وكل أمره إلى فلان أى فوضه اليه واعتمد عليه ، ويسمى الموكول اليه وكيلا ، ولا يحصل ذلك إلا إذا اطمأنت نفس الموكل إلى الوكيل ، ووثق به ولم يتهمه بتقصير فى مصلحته ، ولم يعتقد فيه عجزاً أو ضعفاً فالتوكيل حينئذ عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ، والتفويض إليه فى كل الأمور ، ومتى ثبت فى نفسك باعتقاد جازم أنه لافاعل إلا الله كما تبين فى الباب السابق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية مولاك بالخلق ، ثم تحققت تمام العطف والعناية والرحمة بالعباد جملة وأفراداً ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته

قدرة . ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، أى لا حركة ولا قدرة لمخلوق فى السكون إلا بأمر الله تعالى . فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين — إما ضعف اليقين بصفات الله تعالى — وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين معاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . واعلم أن الطمأنينة فى القلب شىء واليقين شىء آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه . كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام (أولم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى) فالتمس من ربه أن يشاهد إحياء الميت ، مع أنه موقن تمام اليقين بقدرة الله تعالى على إحياء الميت . وكذلك كم من مطمئن لا يقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب الأخرى ، فإن قلوبهم مطمئنة إلى مذاهبهم ولكن لا يقين لهم أصلا .

واعلم أن حالة التوكل لها فى القوة والضعف ثلاث درجات — الدرجة الأولى — وهى الأقل — هو أن يكون حال العبد فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته تامة كحاله فى الثقة بالوكيل الذى يفوض اليه أمور مصالحه — الدرجة الثانية — وهى أقوى بحيث يكون حال العبد مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، لأنه وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها فمن كان باله متعلقاً بالله سبحانه وتعالى ونظره اليه واعتماده عليه ، شغل به كما يشغل الطفل بأمه ، وكان متوكلا حقاً — الدرجة الثالثة — وهى أعلاها . أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل فى حركاته وسكناته ، مثل الميت بين يدى الغاسل ، فلا يرى نفسه إلا ميتاً تحركه القدرة الأزلية ، كما تحرك يد الغاسل الميت ، فهذا هو الذى قوى يقينه وعلم أنه فقط مجرى للحركة والقدرة والإرادة . وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال من العبد لمولاه ثقة منه بعلمه به ، وكرمه وعنايته ، وأنه يعطيه قبل السؤال والدعاء ، وفيه مقام آخر لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غير الله تعالى فقط . سئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال خلع الأرباب وقطع الأسباب . وخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب

إشارة إلى الأعمال ، فقيل له زدنا — فقال إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة . وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى فى كل حال . فقال السائل زدنى . فقال ترك كل سبب يوصل إلى سبب ، حتى يكون الحق هو المتولى لذلك . فالأول عام للمقامات الثلاثة والثانى إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، إذ قال له جبريل عليه السلام حينما أرادوا أن يلقوه فى النار — ألك حاجة — فقال الخليل عليه السلام — أما إليك فلا — إذ كان سؤاله سبباً يفضى إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لنجاته . وللسادة العارفين أقاويل كثيرة نكتفى منها بما ذكر .

باب فى أعمال التوكل

قد يظن العبد أن معنى التوكل هو ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والنوم على الأرض ، كلاّ فهذا ظن الجهال ، وهو حرام ، لأن الشرع قد أثنى على المتوكلين ، ولا يتأتى أن يثنى الشرع إلا على أعمال يحلها الدين ويجيزها . واعلم أن سعى العبد باختياره إما أن يكون لجلب نافع مثال الكسب للمعيشة ، أو لحفظ نافع كادخاره الشيء ، أو لدفع أمر مضر يتوقع نزوله كردالسارق أو الوحوش ، أو لإزالة أمر مضر قد نزل به فعلا ، مثال التداوى من المرض ، فجملة حركات العبد لا تتعدى هذه الأمور الأربعة . جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار ، أو قطعه . وكلها لا تنقض التوكل — ولبيان ذلك نقول :

اعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الشيء وخلق له سببه ، فإذا ترك العبدُ الأسباب التى ارتبطت المسببات بها ارتباطاً طبيعياً ، مثل الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع ، ولكنك لا تمد اليه يدك ارتكاناً على أنك متوكل ، وتقول شرط التوكل ترك السعى ومدّ اليد سعى ، وكذلك مضغ الطعام بالأسنان حركة ، وابتلاعه حركة ، فترك هذه الحركات جنون محض ؛ وليس من التوكل فى شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعاً من غير الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة توصله إلى فمك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلتَ سنة الله تعالى

فى نظام الكون وسيره . وأمثال هذا لايمكن حصرها ، فما عليك فى توكلك إلا أن تعلم بأن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة ؛ فى حال أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى ، لا على اليد والطعام . إذ كيف تعتمد على يدك وربما تشل فى الحال ، أو كيف تعوّل على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال مايزيل عقلك ويبطل حركتك . فحينئذ التباعد عن الأسباب كلها مخالف للحكمة والشرع ، وجهل بسنة الله تعالى . فالعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال عليه عز وجل لا يناقض التوكل بل هو المطلوب .

واعلم أن للمتوكلين ثلاث مقامات المقام الأول مقام الخواص ومثاله الذى يسير فى البوادى بغير زاد ثقة منه بفضل الله تعالى وتقويته على الصبر ، أو يثبته على الرضى بالموت ، إن لم يتيسر له شىء يأكله — المقام الثانى — أن يقعد فى بيته أو فى المسجد بعلم من الخلق ، فهذا متوكل أيضاً لأنه تاركا للكسب معولا على فضل الله تعالى فى تدبير أموره ، وهو فى هذه الحالة ناظر إلى الله سبحانه وموقن بأنه هو الذى يسخر له سكان القرى لإيصال رزقه اليه — المقام الثالث — أن يخرج ويكتسب ، وهذا لا ينافى التوكل أيضاً ، بشرط أن لا يكون مطمئناً إلى نفسه ولا إلى مقدرته وكفاءته وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك كله قد يهلكه الله فى لحظة ، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق الذى يحفظ له نفسه ، ويديم له مقدرته ، وينمى له تجارته . فيرى أن مكسبه وبضاعته وكفاءته من فضل الله عليه وقدرته — أما الكسب بطريق التحايل ، واستنباط الحيل الدقيقة لجلب الرزق ، فهذا يعد حرصاً ويخرج صاحبه من مقامات التوكل .

وقد ذكر فى الإحياء كثير من حكايات المتوكلين نذكر منها ما نراه مفيداً فى كتابنا :

روى أن حذيفة المرعشى ، وقد كان خادماً لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ، فقيل له ما أعجب ما رأيت منه ، فقال بقينا فى طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلىّ ابراهيم وقال — ياحذيفة أرى بك الجوع . فقلت هو مارأى الشيخ ، فقال على بدواة وقرطاس ، فجئت به فكتب : بسم الله الرحمن الرحمن

أنت المقصود اليه بكل حال ، والمشار اليه بكل معنى . وكتب شعراً :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى

هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا بارى

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة وقال ، إخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال — مافعل صاحب هذه الرقعة — فقلت هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيتُ رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصرانى ، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لاتمسها فإنه يجيء الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم على يديه .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فاذا هو بقائل يقول — ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى — اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر . فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاء عمر فقال له — إنى قد اشتقت اليك فما الذى شغلك عنى ، فقال إنى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر ، فقال عمر رحمك الله فما الذى وجدت فيه . فقال وجدت فيه (وفى السماء رزقكم وما توعدون) فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض . فبكى عمر وقال صدقت ، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس اليه .

وأمثال هذه الوقائع كثيرة . وليعلم العبد أنه إذا قوى الإيمان وانضم اليه القدرة على الجوع مدة أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوى إيمانه بأنه إذا لم يأت اليه رزق فى مدة أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ، لأنه حبس عنه الرزق ، فبهذه الاعتقادات يتم التوكل ، ومن عرف حقيقة الأمر علم أن الله تعالى قدر الأرزاق وقسمها بين خلقه ، فلا يفوت العبد رزقه وإن ترك هو الأسباب المجلبة للرزق ، فإن العاجز عن مباشرة الأسباب لم يفته رزقه أما ترى الجنين فى بطن أمه نظراً لعجزه عن الطلب كيف وصل الله تعالى سرته بالأم ، حتى تصل اليه فضلات غذاء

الأم بواسطة السرة ، ولم يكن ذلك بحيلة من الجنين ولا فى قدرته أن يفعله ، ثم لما انفصل وخرج من بطن أمه سلط الرحيم الرحمن الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من الله تعالى اليه ؛ بما أشعل فى قلبها من نار الحب الذى يجعلها دائماً متعلقة بطفلها . فهو إذا كان فى مكان بعيد عنها واحتاج إلى الرضاع حن قلبها إليه وشعرت هى بذلك فتطلبه وترضعه ، وكل هذا من وضع مولاك وعطفه ، ثم قبل أن يكون له أسنان يمضغ بها الطعام ، جعل رزقه من اللبن الذى لا يحتاج إلى المضغ فأجراه فى ثديها ، فتأمل أيها العبد ، الجاحد بنعمة ربك ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ، كلا ، بل هو محض رحمة من الله عز وجل ، وفضل منه .

ماقلناه هنا هو حال العبد المنفرد بشخصه فى الحياة — أما من له عيال فحكمه فى التوكل يخالف ذلك . لأنه لا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ؛ ولا يمكن أن يجعلهم يقروا بالإيمان بالتوحيد كما أسلفنا ؛ فحينئذ لا يمكن فى حق العيال إلا توكل المكتسب ؛ كتوكل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب ، أما القعود عن الكسب وترك العيال بلا طعام أو عدم الإهتمام بمصالحهم ، فهذا حرام فتوكل صاحب العيال ليس انقطاعه عن الأسباب التى هيأها الله تعالى له للحصول على رزقه مع التوكل عليه فى كل حركة وسكون .

قد علمنا من كل ذلك ، أن من عمر قلبه بالتقوى ولم يضعف بسوء الظن خاطره وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى له ، كان مطمئن النفس أبداً واثقا بالله عز وجل ، والواقع أن الاهتمام بالرزق فوق المطلوب ، أو استنباط الحيل لجلب شىء من حطام الدنيا غير الأسباب التى هيأها المولى تعالى للعبد ، قبيح بأرباب الدين وهو بالعلماء أقبح .

ومن أراد أن يريح نفسه من التدبير فلينظر إلى مجارى سنة الله تعالى ليعلم أن الرزق ليس على قدر السعى والاجتهاد . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم ؛ فقال أراد الصانع تعالى أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق ، لظن العاقل أن العقل هو الذى يرزقه . فلما رأوا هذا الخلاف ، علموا أن الرازق هو الله الخالق ، وليس للعقل ولا للحماقة دخل . فسبحان مقسم الأرزاق بين خلقه . مؤمن وكافر وبر وفاجر . فلم يعط طائفة ويحرم أخرى جل الكريم المتعال .

باب فى فضيلة التوكل

قال الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقال عز وجل (إن الله يحب المتوكلين) فهذا مقام أحبّ الله صاحبه ، فهو حسبه وكافيه ومحبّه وراعيه ، وقد فاز الفوز العظيم . فان المحبوب لا يعذَّب ولا يبعد ولا يحجب . وقال جل شأنه (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) أى عزيز لا يذلّ من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه . وحكيم لا يقصّر على تدبير من توكل على تدبيره . وقد ورد فى الأخبار عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (رأيت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم ، فقيل لى أرضيت ، قلت نعم ، قيل ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب) قيل ومن هم يارسول الله ، قال (الذين لا يكتوون ولا يطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة وقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم (اللهم اجعله منهم) فقام آخر فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال صلى الله عليه وسلم (سبقك بها عكاشة) (ق) وقال عليه الصلاة والسلام (من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله اليها) (طب) وقال عليه السلام (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً) (ت) .

وقرأ الخواص قوله تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) إلى آخر الآية وقال ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق على المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . نسأل الله أن يهبنا حسن التوكل عليه .

باب فى التداوى وهل يناقض التوكل

اعلم أن التداوى بالأسباب الظاهرة عند الأطباء لا يناقض التوكل ؛ كما أن تركه ليس محظوراً . ويدلنا على أن التداوى لا يناقض التوكل ، فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وأمره ، فقد قال عليه الصلاة والسلام (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء) (هخ) وقال صلى الله عليه وسلم (تداووا عباد الله فان الله خلق الداء

والدواء) (ت) وسئل صلى الله عليه وسلم عن الدواء والرقى ، هل ترد من قدر الله شيئاً قال (هى من قدر الله) وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لاطفائها ودفع ضررها ، وهذه سنة الله تعالى . وقد أمر صلى الله عليه وسلم كثيراً من أصحابه بالتداوى (ت) وتداوى هو صلى الله عليه وسلم من العقرب وغيرها (طب) . وذكر بعض العلماء فى الاسرائليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال لا أتداوى حتى يعافينى هو من غير دواء ، فطالت علته ، فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإنا نتداوى به فنبرأ فقال — لا أتداوى — وأقامت علته فأوحى الله تعالى اليه — وعزتى وجلالى لا أبرأنك حتى تتداوى بما ذكروه لك — فقال لهم داوونى بما ذكرتم . فداووه فبرىء . فأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه — (أردتَ أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى) فمن ذلك تبين أن الله سبحانه وتعالى أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة . والأدوية ما هى إلا أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب فلا يضر المتوكل استعمالها بشرط أن ينظر إلى مسبب الأسباب لا إلى الطبيب والدواء وروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال — يارب ممن الداء والدواء — فقال تعالى — منى — قال — فما صنع الأطباء — قال (يأكلون أرزاقهم ويطيّبون نفوس عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى) .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى . (خ)

باب فى حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء مقام من مقامات العاملين ، وحال من أحوال المؤمنين ، ولبيانه نقول :

إن كل ما يلاقيك فى حياتك ينقسم حصوله إلى ثلاثة أزمنة ، إما حصل فى زمن قد مضى ، وإما موجود فى الحال ، وإما منتظر حصوله فى المستقبل . فإذا كان قد مضى يسمى ذكراً أو تذكاراً ، وإن كان موجوداً فى الحال يسمى وجداً وإدراكاً ،

وإن كان قد خطر ببالك حصول شيء فى المستقبل فيسمى انتظاراً وتوقعاً . فان كان الشيء المنتظر مكروهاً حصل من هذا الانتظار ألم فى القلب ، وهذا الألم يسمى خوفا وإن كان الشيء المنتظر محبوباً حصل لك من انتظاره لذة فى القلب وارتياح ، فهذا الارتياح يسمى رجاء ، فالرجاء فى هذه الحالة هو ارتياح القلب لانتظاره وقوع أمر محبوب عنده ، بشرط أن يكون العبد قد مهّد له جميع الأسباب الموصلة اليه ، وقد علمت أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فالقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر ، والطاعات عبارة عن حرث الأرض وتطهيرها ، وحفر المساقى وإرسال المياه اليها ، أما القلب المتعلق بالدنيا المستغرق بها فهو كالأرض المسبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد إلا ما زرع ، فيمكننا أن نقيس رجاء العبد للمغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من وجد أرضاً طيبة ورمى فيها بذراً جيدا ليس به عطب ، ثم أمده بما يحتاج اليه من المواد التى تنمى الزرع وتكثر المحصول ، وأجرى تنقية الأرض من المواد الغريبة ،وسقاها فى المواعيد المناسبة بدون إقلال ولا إكثار ، ثم قعد منتظراً من فضل الله تعالى دفع الآفات الجوية أو الحشرة المضرة بالمحصول إلى أن يتم الزرع وينضج ، سمى انتظاره هذا رجاء ، وإن وضع البذر فى أرض مسبخة مرتفعة لا تصل اليها الماء ، ولم يشتغل بتنقية الأرض ، ولم يقم بما تحتاج اليه الزراعة من الخدمة ، ثم قعد ينتظر الحصاد وجودة المحصول ، سمى انتظاره هذا حمقاً وغرورا ، وعلى ذلك يكون الرجاء الحقيقى هو انتظار أمر محبوب قد مهد العبد جميع أسبابه الداخلة تحت اختياره والواقعة فى استطاعته ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بأن يصرف عنه المفسدات ، فالعبد إذا غرس بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، ومنحه حسن الخاتمة المؤدية إلى المغفرة ، وكان انتظاره هذا رجاء حقيقياً محمودا فى نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بما يقتضيه إيمانه من الطاعات ، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا غير ملتفت للعبادة ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره عين الحمق ومحض الغرور . قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هاجروا

وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، ولكن لم يرد بهذا تخصيص وجود الرجاء لهؤلاء فقط ، لأن غير هؤلاء أيضاً قد يرجو ، وإنما خصص بالذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله استحقاق الرجاء لهم ، لأنهم أولى من غيرهم بأن يرجو من الله الرحمة لما قدموه من صالح الأعمال وعظيم الطاعات بعد إيمانهم . أما من انهمك فيما يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ؛ بل يرتكب المنكر وهو فرح مسرور ؛ كالزانى وشارب الخمر ، والطاعن فى أعراض الناس ، ولاعب الميسر المسرور باجتماع أقران السوء حوله ، ولا يعزم على التوبة ولا ينوى الرجوع عن المعاصى ، فإن رجاءه المغفرة حمق وغرور — — قال يحي بن معاذ — من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

ونتيجة ذلك أنه بقدر تعبك فى خدمة زرعك تكون نتيجة المحصول ، وبقدر ما تقدم من الطاعات يكون الرجاء فى القبول .

نكتفى بهذا الشرح ونذكر القارىء بالقول الفصل فى هذا الباب وهو قول رب العالمين جل شأنه (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ، أى لا رجاء فى لقاء الله عز وجل لقاء رضىً وقبول إلا بالعمل الصالح مع التوحيد .

باب فى دواء الرجال والسبيل الموصلة اليه

أما دواء الرجال فلا يحتاج اليه إلا أحد رجلين ، إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف ، فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وعياله ، وهذان رجلان مائلان عن حد الاعتدال . الأول إلى طرف التفريط ، والثانى إلى طرف الإفراط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ، أما العاصى المغرور المتمنى المغفرة مع ترك العبادة فأدوية الرجاء تنقلب سموماً

مهلكة بالنسبة له ، ولا ينفعه الا استعمال أدوية الخوف والأسباب المهيجة له فى قلبه . ولهذا يجب أن يكون الواعظ الذى يقوم بوعظ الخلق ، أو العالم الطبيب الذى يريد أن يعالج أمراض الدين ، ناظرا الى مواقع العلل ؛ كى يعالج كل علة بما ينفعها . فإن المطلوب من أحوال الخلق هو الاعتدال فى الصفات والاخلاق كلها ، فإذا جاوز العبد فى عمله الوسط الى أحد الطرفين المتقدم ذكرهما ، عولج بما يرده الى الوسط — وهذا الزمان زمان لاينبغى فيه أن يذكر للخلق أسباب الرجاء ؛ لأن هذا يشجعهم على ترك الطاعات وعدم القيام بها حق القيام ، لاسيما وقد أعرضوا هم أنفسهم عن العبادات واستثقلتها طباعهم — فحال الرجاء بالنسبة له يحصل بأمرين . الأمر الأول الاعتبار بعجائب المخلوقات ، والأمر الثانى قراءة الآيات والأخبار وآثار الصالحين . أما الاعتبار فهو أن يتأمل فى جميع ماذكرناه من أصناف النعم فى باب الشكر وباب التفكر فى خلق الله تعالى ، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا ، وعجائب حكمه التى راعاها فى خلق الإنسان وفطرته ، حتى أعد له فى الدنيا كل ما هو ضرورى له فى دوام الوجود ، كآلة الغذاء والهضم وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظافر وماهو زينة له كتقويس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ، فالعناية الإلهية لم تمنع إذاً عن جميع الخلق على اختلاف عقائدهم أمثال هذه الأمور الدقيقة حتى أنه سبحانه وتعالى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايا فى الزينة والتجمل والحاجة . فكيف يرضى بسوقهم إلى الهلاك المؤبد بدخول النار . فإذا تأمل الإنسان فى هذه المنن حق التأمل قوى به أسباب الرجاء وبعد عنه اليأس والقنوط . وأما قراءة الآيات والأخبار فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر . منها قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) وقال عز وجل (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) وقال جل وعز (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام (إنى أجعل حساب أمتك إليك قال يا رب أنت خير لهم منى ، فقال إذاً لا نخزيك فيهم) (ابن أبى الدنيا) وقال عليه الصلاة والسلام (حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فاسنّ لكم

السنن وأشرّع لكم الشرائع ، وأما موتى فإن أعمالكم تعرض عليّ فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، وما رأيت سيئاً استغفرت الله تعالى لكم) (البزار) وفى الخبر (إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته أنظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له ربّاً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له) (ق) وفى الخبر أيضاً (لو أذنب العبد حتى بلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرنى ورجانى) (ت) .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما خلق الله شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه) (حب) وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) (طب) ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (د) ومن لقى الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار (ق) ولا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) (أحمد) .

ومما جاء فى الآثار ، قال على كرم الله وجهه من أذنب ذنباً فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره فى الآخرة ، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه فى الدنيا فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة . وروى أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة ، قال فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يا رب ما كان فى الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين ، فيقول الله سبحانه وتعالى — إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العليا ، وأنت كنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبد سؤله .

هذه هى الأسباب التى يُجلب بها روح الرجاء عند العبد المطيع الخائف ، وكذا العبد الآيس — أما العبد الأحمق المغرور العاصى ، التارك للعبادة فلا ينبغى أن يسمع شيئاً من ذلك ولا يصح له إلا ما سنذكره فى باب الخوف إن شاء الله تعالى ، فإن أكثر الناس لا يصلح حالهم إلا على الخوف ، كالعبد السوء لا يستقيم الا بالعصا .

باب فى فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء فى عفو الله تعالى أعلى مقاماً من العمل على الخوف من عذابه ، وذلك لأن أقرب العباد الى الله تعالى أحبُّهم له ، والحب يقوى بالرجاء . ويعبَّر عن ذلك بملكين أحدهما تخدمه رعيته خوفاً من عذابه ، والثانى

تخدمه رعيته رجاء لنواله ، فلا شك أن الحالة الثانيـة أفضل . وقد ورد فى فضيلة الرجاء وحسن الظن بالله عز وجل كثير ، لا سيما فى وقت الموت . قال الله تعالى (لا تقنطوا من رحمة الله) فحرم بذلك أصل اليأس ، وقال صلى الله عليه وسلم (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) (م) وقال عليه السلام (يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء) (ق) ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال (كيف تجدك) فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمـة ربى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام (ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف) (ت) وفى الحديث الصحيح (إن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات) (م) فعلينا أن نحسن الظن بعد الطاعة ونرجو عفو الكريم .

باب فى حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع أمر مكروه فى المستقبل ؛ فمن أنس بالله تعالى وملك الحق قلبه ، وصار مشاهداً لعظيم قدرة المولى عز وجل على الدوام ، لم يبق له إلتفات إلى المستقبل ولا إلى مايحصل فيه ؛ وعلى ذلك لم يكن له خوف ولا رجاء ، بل يصير حاله أعلى من مقامات الخوف والرجاء — والخوف يحصل من ثلاث أمور ؛ علم وحال وعمل — فالعلم هو العلم بالسبب المؤدى إلى حصول المكروه ، وذلك كانسان جنى على ملك من الملوك ثم وقع فى يده فيكون تألم قلبه بالخوف ومقداره ، بحسب قوة علمه بجنايته السابقة فى حق الملك ، ولعلمه أيضاً بأن الملك حقود غضبان عليه ، ولابدمن الإنتقام منه حيث لا مطمع فى العفو ولا أمل فى وجود من يشفع له عنده ، كما أنه لم يقدم فيما مضى أى حسنة فى حق الملك تمحو أثر جنايته ، فالعلم بكل ذلك هو سبب قوة الخوف — فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة العبد لله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك الخلق أجمعين لم يبال ولم يمنعه مانع — وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بارتكاب المعاصى ، وتارة يكون بهما معاً — بمقدار علمه بذلك تكون درجة خوفه ، لأن أخوف الناس

بربهم أعرفهم به ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا أخوفكم لله) (خ)
وكذلك قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . أما الحال فإنه إذا كملت
معرفة العبد بربه أوجبت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من
القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات — أما فى البدن فبالبكاء ، وأما فى
الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات — وأما فى الصفات فبقمع الشهوات
وتكدير اللذات ، حتى تصير المعاصى التى كانت محبوبة عند العبد مكروهة لديه ، كما
يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً — أما العمل فان
للخوف درجات أقلها الإمتناع عن المحظورات ، ويسمى الكف عن المحظورات
ورعاً ، وإن زادت قوة الخوف كفّ العبد عن الشبهات ، أى كف عما لا يتيقن
تحريمه ، ويسمى ذلك تقوى ، لأن التقوى عبارة عن أن يترك العبد ما يريبه إلى
مالا يريبه ، فإذا انضمّ إلى ذلك التجرد للعبادة فصار لا يبنى مالا يسكنه ، ولا يجمع
مالا يأكله ، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولا يصرف لغير الله تعالى نفساً
من أنفاسه ، فصاحب هذا الحال جدير بأن يسمى صدّيقاً — هذه علامات الخوف .
والخوف وحده هو الذى يؤثر فى الجوارح فيكفها عن المعاصى ويقودها إلى الطاعات .

باب فى بيان درجات الخوف فى القوة والضعف

إعلم رحمك الله أنه سبحانه وتعالى هو المنعم المتفضل على العباد ، الرحيم بهم ،
نخلق الخوف من رحمته وكرمه ليسوق به عباده إلى المواظبة على العمل ؛ لينالوا رتبة
القرب من الله تعالى — أما درجات الخوف فهى ثلاثة : قصور وهى الأدنى ،
وإفراط وهى الأعلى ، واعتدال وهى الوسط . فالمحمود طبعاً هو الاعتدال . أما
الأدنى منه وهو القاصر فهو الذى يجرى مجرى رقّة النساء عند سماع آية أو موعظة
فيبكين وتفيض الدموع فاذا انتهى الوعظ رجع قلب المرأة إلى الغفلة ، فيعتبر هذا
خوف قليل الفائدة . أما الافراط فهو الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال ، حتى يخرج
العبد إلى اليأس والقنوط وهو مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يؤدى أيضاً إلى
المرض والضعف والدهشة وزوال العقل ، وكل ذلك مذموم . ومثاله كالضرب

الذى يقتل الصبى ، والعصا التى تهلك الدابة أو تمرضها أو تكسر عضواً من أعضائها — وأما الاعتدال وهو المطلوب فهو الخوف الذى يورث الحذر والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر ودوام ذكر الله ، بل يقود العبد إلى سائر السبل الموصلة إلى الله عز وجل ، وكل ذلك يستدعى حياة العبد مع صحة البدن ، وسلامة العقل ، فكل ما يشين فى هذه الأمور فهو مذموم ، وكل ما أبطل العمر أى سبب الموت أو أذهب العقل أو أضر بالصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها ، فهو خسران ونقصان لأن الشرع لا يبيح ذلك .

وعليه يمكننا أن نقول إجمالا أن الخوف إذا لم يظهر تأثيره فى العمل فوجوده كعدمه . أما اذا أثر الخوف فى العمل فله ثلاث درجات بحسب ظهور أثره . الأولى أن يلزم العبد العفة وهى الكف عن متابعة الشهوات . الثانية أن يثمر عند العبد الورع وهذه درجة أعلى . الثالثة أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب منه الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لغير المولى عز وجل فى قلبه متسع لغيره ، وهذا أقصى ما يحمد منه ، على شرط بقاء الصحة والعقل سليمين فان جاوز هذا إلى زوال العقل والصحة فهو مرض ، يجب علاجه برجوع الانسان إلى الأسباب التى ذكرناها فى باب الرجاء ، حتى يزول ما لحق به من شدة الخوف كى يؤدى العبادة على الوجه الأكمل . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للملازمين للجوع أياماً طويلة ، احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل .

باب فى دواء الخوف والسبل الموصلة اليه

إعلم أن أول مقامات الدين اليقين ، الذى هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر وبالجنة والنار . وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان مع الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحمل هذه المكاره إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ، فمقام الصبر الحاصل من الخوف والرجاء يؤدى إلى المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام . ويؤدى إلى

دوام الذكر والفكر إلى كمال المعرفة ، وكمال المعرفة يؤدى الى المحبة ، ويتبع مقام المحبة مقاما الرضا والتوكل ، ثم سائر المقامات . وهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين

نعود إلى الخوف لنبين طريق حصوله فنقول — إن الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر — فالطريق الأول وهو الأقل مثاله — إذا مرت أمام الطفل حية فلا يخاف منها ، وربما مد يده ليمسكها ويلعب بها ، لأنه لا يدرى من أمرها شيئاً ، ولكن إذا كان معه أبوه ورأى الحية خاف منها وهرب ، فاذا نظر الطفل إلى أبيه وهو يهرب من الحية ، قام معه وغلب عليه الخوف أيضاً ، فهنا يكون خوف الأب عن بصيرة وعلم ، لأنه يعلم أن الحية خائنة . أما خوف الابن فى هذه الحالة فخوف تقليد فقط ، لأنه لا يعرف شيئاً عن السم الذى تنفثه الحية .

أما الطريق الأعلى — وهو الخوف من الله تعالى وهذا أيضاً له مقامان — أحدهما الخوف من عذابه ; والثانى الخوف من ذاته ، فأما الخوف من ذاته تعالى فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحذر ; لأنهم مطلعون على سر قوله تعالى (ويُحذّركم الله نفسَه) وقوله عز وجل (اتقوا الله حقّ تُقاته) وأما الخوف من عذابه فهو خوف عموم الخلق وهو يحصل بمجود الايمان بالجنة والنار وكون الجنة جزاء على الطاعة والنار جزاء على المعصية ، فحينئذ من ارتقى إلى مقام المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة ، فلا يحتاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً فى مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف من السبع لأن مجرد معرفة السبع والوقوع فى مخالبه كاف للخوف فمن عرف الله عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى ، ويحكم ما يريد ولا يسأل ، وأنه سبحانه وتعالى قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد ابليس من غير جريمة سالفة ، وأنه تعالى قال (هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى) فهذه المعرفة كافية للخوف .

أفق أيها القارىء من غفلتك ، فقد دنا الأمر . واصْغ الآن إلى ما نقول ، واعقل القول فقد أصبح حجة عليك .

اعـلم أن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحد أهلا أى خلقاً يسوقه القدر المتفرع من القضاء الأزلى إلى ما خلق له . فخلق الجنة وخلق لها أهلا ; سخّروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ،

سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا . وعلى ذلك لا يرى أحد نفسه فى منتظم أمواج القدر إلا غلب عليه الخوف بالضرورة ، لأنه لا يدرى أهو من أهل الجنة أم من أهل النار ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر — وأما من عجز إدراكه عن فهم هذه الحالة فعليه أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ويقتدى بهم فى أفعالهم ، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء . أما الآمنون الغير خائفين فهم الفراعنة والجهال والأغبياء المغرورون الغارقون فى بحار الدنيا — نسأل الله أن لا نكون منهم — فاعلم هدانا وهداك الله ، أن نبينا صلى الله عليه وسلم وهو سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفاً ، حتى روى أنه كان يصلى على طفل مات فسمع قائلا يقول ، هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة ، فغضب عليه الصلاة والسلام وقال (ما يدريك إنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدرى ما يصنع بى ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم) (م) فكيف لا يخاف المؤمنون جميعاً ، وقد قال الله تعالى (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة) أى جفّ القلم بما هو كائن ، وتمّت السابقة حتى نزلت الواقعة ، إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين فى الدنيا ، والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) لكان كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن واحدة منها وهى التوبة والإيمان والعمل الصالح والهداية . وأشد منه قوله تعالى (سَنفْرُغ لكم أيها الثَّقلان) خطاب للإنس والجن . أى سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) وقوله تعالى (وقَدِمْنا إلى ماعَمِلوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وغير ذلك مما فى القرآن من الوعيد والتهديد ، وما فيه من ذكر مخاوف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أما خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم ومقامات النبوة فلأنهم لم يأمنوا مكر الله (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

واعلم أن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقولات والمألوفات ،

فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حسبان ، وهذا هو الذى قطع قلوب الخائفين لأن الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك ، إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ، ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام ، بالحروب الطاحنة والأمراض الفاتكة والزلازل القاتلة ، ثم يمرض قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلّد العقاب عليهم أبد الآبدين ، ويخبر عن ذلك بقوله (ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هُداها ولكن حق القولُ منى لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين) وقال تعالى (وتَمّت كلمةُ ربك صِدْقا وعدْلا لا مُبدّل لكلماته) فكيف لا تخاف مما تم تسطيره فى الأزل ولا مطمع الآن فى تداركه ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لكانت الأطماع تمتدّ إلى حيلة فيه ، ولكن ليس لنا من حيلة وليس لنا إلا التسليم به . أما إذا أردت أن تقرأ ما خفى مما قد كُتِبَ على العبد ، فانظر إلى الأعمال الظاهرة المنبعثة من القلب إلى الجوارح ، فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقتُه بالدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سرّ السابقة التى سبقت له بالشقاوة ؛ إذ كل ميسّر لما خلق له ، أما إن كانت الخيرات كلها ميسرة للعبد ، والقلب منقطعاً عن الدنيا ومقبلا على الله تعالى بظاهره وباطنه ، كان هذا يقضى تخفيف الخوف ، ولو كان الدوام على ذلك موثوقا به . ولكن خطر الخاتمة وعسر ثبات الإنسان على الخيرات وعدم تجافيه عن الدنيا ، يزيد نيران الخوف اشتعالا ولا يمكّنها من الانطفاء ، وكيف يأمن تغيير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقلباً من القدر فى غليانها . وقد قال مقلب القلوب جل شأنه (إنّ عذاب ربهم غير مأمون) فأجهل الناس من أمن عذاب الله تعالى وهو ينادى بالتحذير من الأمن . واعلم أنه لولا لطف الله بعباده العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف ؛ وقد قيل انه كان يشم رائحة الكبد المشوى من فم أبى بكر الصديق رضى الله عنه . فأسباب الرجاء حينئذ رحمة لخواص الخلق ، وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض الصالحين لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت

الموت على الإسلام ، لأنى لا أدرى ما يعرض لقلبى بين باب الحجرة وبين باب الدار ، وهل يثبت أم يتغير فى هذه المسافة .

فإذا كان هذا خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة ، فكيف لا يخاف الضعفاء ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العبدُ المؤمنُ بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما اللهُ صانعٌ فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما اللهُ قاض فيه ، فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ؛ ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنةُ أو النارُ) (هب) .

باب فى فضيلة الخوف والترغيب فيه

إعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة يُعرف بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فهو أن ينظر العبد إلى ما يوصله إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة . فكل ما ساعد العبد على ذلك فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد علم لنا أن لا وصول إلى هذه السعادة إلا بنوال محبته تعالى ، والمحبة لا تتأتى إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع حبها إلا بترك لذاتها ، ولا يمكن ترك اللذات إلا بالتغلب على الشهوات ، ولا يمكن التغلب على الشهوات إلا بنار الخوف . فالخوف إذاً هو النار المحرقة للشهوات ، ففضيلته بقدر ما يحرق منها ، وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات . أما فضيلته بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ، فما ورد فى ذلك خارج عن الحصر . وناهيك دلالة على فضيلته أن الله تعالى خص الخائفين بالهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهذه مقامات أهل الجنان ، فقال تعالى (وهدى ورحمة للَّذين هم لربِّهم يَرْهبُون) أى الذين يخافون ربهم ؛ وقال عز وجل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وصفهم بالعلم لخوفهم وقال تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه) . وقال تعالى (وخافون إن كنتم مؤمنين) فأمر سبحانه وتعالى بالخوف وأوجبه على كل مؤمن . وقال عز وجل (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال صلى الله عليه وسلم (قال الله عز وجل وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فإن أمنته فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة) (حب) .

وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت. فقال ما يبكيك؟ قالت لأن هذا عمل ما عملته وما حملنى عليه إلا الحاجة. فقال تفعلين أنت هذا من مخافة الله فأنا أحرى. اذهبى فلك ما أعطيتك والله ما أعصيه بعدها أبداً — فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه (إن الله قد غفر للكفل) فعجب الناس من ذلك) (ت و ك)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم فأصابتهم السماء فلجؤوا إلى جبل فوقعت عليهم صخرة. فقال بعضهم لبعض عفا الأثر ووقع الحجر ولا يعلم بمكانكم إلا الله. فادعوا الله بأوثق أعمالكم. فقال أحدهم اللهم إن كنت تعلم أنه كانت امرأة تعجبنى فطلبتها فأبت علىَّ فجعلت لها جعلا. فلما قربت نفسها تركتها. فإن كنت تعلم أنى إنما فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فأفرج عنا. فزال ثلث الحجر، وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى والدان فكنت أحلب لهما فى إنائهما فإذا أتيتهما وهما نائمان قمت حتى يستيقظا. فإذا استيقظا شربا. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فأفرج عنا. فزال ثلث الحجر. وقال الثالث اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيراً يوماً فعمل لى نصف النهار فأعطيته أجراً فسخطه ولم يأخذه فوفرتها عليه حتى صارت ذلك المال. ثم جاء يطلب أجره فقلت خذ هذا كله ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأول. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك. فأفرج عنا فزال الحجر وخرجوا يتماشون) (حب) وللبخارى ومسلم من حديث عمر بنحوه. (ترغيب)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذرونى فى الريح فوالله لإن قدر الله علىَّ ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض. فقال اجمعى مافيك ففعلت فإذا هو قائم. فقال ما حملك على ما صنعت. قال خشيتك يارب أو قال مخافتك فغفر له) — وفى رواية أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال (قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله إذا مت فاحرقونى فحرقوه ثم ذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فوالله لأن قدر الله عليّ ليعذبنى عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين . فلما مات الرجل فعلوا به ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه . وأمر البحر أن يجمع مافيه . ثم قال لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم (فغفر الله تعالى له) (ق) وعن أبى هريرة أيضاً قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية . ألا إن سلعة الله الجنة) . (ت) . أدلج . إذا سار من أول الليل . ومعنى الحديث أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعوائق . وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله فكان يبكى عند ذكر النار حتى حبسه ذلك فى البيت فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه فى البيت فلما دخل عليه اعتنقه النبى صلى الله عليه وسلم وخر ميتاً . فقال النبى صلى الله عليه وسلم (جهزوا صاحبكم فإن الفرق فلذ كبده) — أعنى الخوف قطع قلبه . (ك وهب) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته) (م)

وقالت عائشة رضى الله عنها ، قلت يا رسول الله (الذين يُؤْتون ما أتوا وقلُوبهم وَجلةٌ) الرجل يسرق ويزنى . قال (لا ، بل الرجلُ يصومُ ويصلى ويتصدّقُ ويَخافُ أن لا يُقبلَ منه) (ت) والتشديدات الواردة فى الحذر من الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف . واعلم أن الخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ولذلك قال الله تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً) وقال عز وجل (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) . وقال عليه الصلاة والسلام (إذا اقشعرَّ قلبُ المؤمنِ من خشيةِ الله تحاتتْ عنه خطاياه كما يَتحاتَ من الشجرةِ ورقُها) (طب) أعنى تساقطت عنه ، وقال عليه السلام (لا يلجُ النارَ أحد يبكى من خشيةِ اللهِ تعالى حتى يعودَ اللبنُ فى الضّرع) (ت) وقال عليه السلام (ما من قطرة أحبّ إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة

دم أهريقت فى سبيل الله سبحانه) (ت) . وفى حديث (سبعة يظلهم الله فى ظله) ذكر صلى الله عليه وسلم منهم (رجلا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) (ق) ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ــ ابكوا فإن لم تبكوا فتباركوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر ظهره .

فنكتفى بذلك فى فضيلة الخوف والواقع الذى لا مراء فيه ، أن القلب إذا كان صالحاً أثر فيه أقل من ذلك . فاعلم أن كل ما ورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن من مكر الله تعالى ، هو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة هذه الأمور متعلقة به ، بل هو باعثها ومحركها والله أعلم .

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم السلام فى الخوف

روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفاً من عذاب الله (ق) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق (البزار) وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (د)

وقال لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما ــ مالكما تبكيان كل هذا البكاء ــ فقال يارب لا نأمن مكرك ــ فقال الله تعالى ــ هكذا كونا لا تأمنا مكرى ــ وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل (مالى لا أرى ميكائيل يضحك) فقال جبريل ــ ماضحك ميكائيل منذ خُلقت النار ــ (أحمد) . فهذه أحوال بعض الأنبياء والملائكة عليهم السلام ، فعليك بالتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وقد أخبر الله تعالى عن مخاوف الأنبياء فى القرآن الكريم فتدبّره .

باب فى أحوال بعض الصحابة والسلف الصالح فى الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر يا ليتنى مثلك ياطائر ، ولم أخلق بشراً ، وقال عثمان رضى الله عنه وددت أنى إذا مت لم أبعث ، وروى أن عمر رضى

الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فيغشى عليه ، فكان يعاد أياماً .
وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال ياليتنى كنت هذه التبنة ياليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ،
ياليتنى لم تلدنى أمى ، وكان بوجهه خطان أسودان من الدموع ، ومر يوماً بدار إنسان
وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى (إن عذاب
ربك لواقع ما له من دافع) نزل عن حماره واستند إلى حائط ورجع إلى منزله فمرض
شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه . وقال على كرم الله وجهه وقد سلّم من
صلاة الفجر وقد علته كآبة وهو يقلب يده ، لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه
وسلم فلم أر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم أمثال
ركب المعز ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله ، فإذا أصبحوا ذكروا الله تعالى
فمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله
فكأنى بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم .
وكان على بن الحسين رضى الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا
الذى يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ، وقال موسى
ابن مسعود كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه
وجزعه ، فقرأ مضر القارىء يوماً قوله تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا
كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق
قال وعزتك لا عصيتك جهدى أبداً فأعنى بتوفيقك على طاعتك . وكان المسور بن
مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن لشدة خوفه وقرأ عليه رجل من خيثم
قوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً)
فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد على القول أيها القارىء فأعاد عليه
فشهق شهقة فلحق بالآخرة . وقرىء عند يحى البكاء (ولو ترى إذ وُقفوا على
ربهم) فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة . وقال
مالك بن دينار بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجارية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة
وهى تقول ، يا رب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ، يا رب أما كان لك أدب
وعقوبة إلا النار ، وتبكى فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت

ذلك وضعت يدى على رأسى صارخاً أقول ثكلت مالكا أمه . وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال ؛ قلوبهم بالخوف قرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا ، ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس فقال له الحسن يا فتى هل مررت بالصراط ، قال لا ، قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ، قال لا ، قال فما هذا الضحك ، قال فما رؤى هذا الفتى بعدها ضاحكا . وقال حاتم الأصم يحث إخوانه على الخوف ، لا تغتروا بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم عليه السلام فيها ما لقى ، ولا تغتروا بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقى ما لقى ، ولا تغتروا بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ، ولا تغتروا برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه . وقال صالح المرى قرأت على رجل من المتعبدين (يوم تُقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فصعق ثم أفاق فقال زدنى ياصالح إنى أجد غماً ، فقرأت (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) فخر ميتاً ، وروى أن زرارة بن أبى أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ (فإذا نُقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير) خر مغشياً عليه فحمل ميتاً . ودخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال عظنى يا يزيد ، فقال يا أمير المؤمنين إعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكى ، ثم قال زدنى فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكى ، ثم قال زدنى يا يزيد ، فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فخر مغشياً عليه . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

— فهذه مخاوف الصحابة والأولياء والعلماء والصالحين على ما كانوا عليه من الورع والتقوى والزهد فى الدنيا ، ونحن أحق بالخوف منهم لما نحن فيه من كثرة الذنوب —

كان الناس فى الزمن السالف يواظبون على العبادات ويؤتون ما أتوا من الطاعات والقربات وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم من عذاب الله وغضبه ، وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله ، يبالغون فى التقوى ويحذرون

الشبهات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات ، وأما الآن فترى الخلق آمنين مطمئنين مسرورين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وفضله ، راجين عفوه ومغفرته ، فكأنهم عرفوا مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالح — فإذا كان الأمر كما يظنون فعلام كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم . قس أيها المسلم حالك بحال إخوانك السابقين هل تجد بينك وبينهم شبهاً من حيث الخوف من الجبار العظيم ؟ وهل فى قلبك إيمان بصدق وعيد القرآن كإيمانهم ، ولكن لا شبه بيننا وبين هؤلاء الفقراء . إنك تجد الكثير من المسلمين لاسيما الأغنياء منهم والمترفين يعرضون كل الاعراض عن استماع أخبار السلف ويتباعدون عن طريقهم ويترفعون عن ذكر أسمائهم ويرون فى التشبه بهم عاراً وفى متابعتهم تأخراً واحتقاراً بينما تراهم يَشيدون بذكر الفجار ويعجبون بعمل المغرورين الأشرار ويقلدونهم فى عاداتهم ويجارونهم فى أفعالهم وهم أثناء ذلك يطأون أوامر الشرع وينتهكون حرمات الدين . ألا فاعلموا أيها المغرورون أن السعادة كلها فى التشبه برجال الله الصالحين وأن العزة فى الآخرة لمن اقتدى بهم والفوز لمن جاراهم فى أفعالهم والخزى والذلة للغافلين المتكبرين . وقد عرفت أيها القارىء ما كان يحدثه سماع القرآن من الخوف فى قلوب السلف حتى كان بعضهم يمرض ، وبعضهم يغشى عليه ، وبعضهم يصعق فيموت ، أما نحن فنسمعه فى كل وقت ولكن لا تأثر ولا تدبر ، فضاعت حكمته ولم تصل إلى القلوب روعته . قال رب العزة جل شأنه (لو نزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعا من خشية الله) أريد بذلك توبيخ الإنسان وتقريعه على قسوة قلبه ، وعدم خشيته عند تلاوته وقلة تدبره فيه . وقال تعالى (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) فإن الأمر بالإنصات يبعث على التأثر والتأثر يبعث على الخوف ، والخوف يبعث على العمل الصالح ، وكان هذا شأن السلف . ولما علم الكفار ما فى الإنصات من الفلاح أرادوا أن يمنعوه من المسلمين فقالوا لبعضهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) كما فى الآية ، فقل لى بربك أى الأمرين متبع الآن ، هل الإنصات والخشوع ، أم اللغو والاعراض ؟ نعم ننصت عند الغناء ونستمع لأصوات النساء ، التى ابتلينا بها هذا الزمان ، وملأت البيوت والطرقات وأن غالب المسلمين يقتنون آلة المذياع لا لسماع

القرآن والاتعاظ بمواعظه والاعتبار بعجائبه فحسب ، بل للطرب بأصوات المغنين والمغنيات ، والتلهى بسماع ما تخرجه دور اللهو من شتى الموضوعات المحشوة ببذىء القول وفحش الألفاظ ، حتى انغرس فى قلوب الشباب والشابات أصولها ، ونمت فى أفكارهم فروعها ، فترنموا بها صباحاً ومساء وهذه الحالة أنتجت أسوأ النتائج فى أبناء المسلمين ، فصاروا يحفظون الكثير من الأغانى ، ويجيدون نظم الألحان ، ويعجزون عن حفظ آية أو قراءة سورة واحدة من القرآن . وهذه المصيبة التى حلت ببيوت المسلمين يرجع سببها إلى خلو قلوب الآباء والمربين من التقوى ، وحب الله تعالى ، وغفلتهم عن مصيرهم فتركوا ذريتهم وأهليهم يتيهون فى بيداء الجهالة حتى ضلوا طريق الدين . وقد فات هؤلاء الآباء أنهم مسئولون أمام الله تعالى فى يوم الموقف العظيم عن تفريطهم فى تعليم أبنائهم أمور دينهم ، وتركهم يسمعون ما يسمعون ، ويقرأون ما يقرأون . ففسدت أخلاقهم وساءت حالتهم وهم لا يشعرون ، ألا فليتقوا الله الآباء فى أبنائهم ، وليخافوا عليهم من نار جهنم ما داموا يخافون عليهم من نار الدنيا . ونار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . لنقتصر على ما ذكرناه فى هذا الباب ، فإن القليل من هذا إن صادف القلب القابل يكفيه ، والكثير منه إن صُب على القلب الغافل فلا يغنيه . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولانى وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدة الخوف ما كاد يجف دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالنى منظره ، فقلت أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك ، فقال يا أخى بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد أحاطت به السباع والحيات فهو خائف حذر يخاف أن يغفل عن نفسه فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الحيات فهو مذعور القلب وجل مما حوله يمضى ليله خائفاً وإن أمن المغترون ويمضى نهاره حزيناً وإن فرح الغافلون ثم ولى وتركنى ، فقلت هلا زدتنا شيئاً عسى أن ينفعنا . فقال الظمآن يكفيه من الماء أيسره ، وقد صدق فإن القلب الصافى يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ ، واعلم أن ماذكره الراهب من إحاطة السباع والحيات ليس تقديراً فقط بل هو تحقيق لأنك لو شاهدت بنور الإيمان باطنك لرأيته مشحوناً بأصناف

السباع وأنواع الهوام وهى صفاتك المذمومة التى هى الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهذه آفات لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ولكنك محجوب عن مشاهدتها فى هذه الحياة لانطماس بصيرتك بالمعاصى . فإذا جاءك الموت ووضعت فى قبرك شاهدتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها فترى بعينك العقارب والحيات قد أحدقت بك فى قبرك وما هى عقارب ولا حيات ، ولكنها صفاتك الحاضرة وأفعالك التى فعلتها فى دنياك قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها بحيث لا تراها فى قبرك فأنت قادر على قتلها قبل الموت فاعمل قبل فوات وقت القدرة على العمل ؛ وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها صميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام على من اتبع الهدى .

باب فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركن عظيم فى الدين . وهو الأمر الذى بعث الله له النبيين . وقد دل على وجوبه الكتاب والسنة — أما الكتاب فقال تعالى (ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهونَ عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ففى الآية بيان الايجاب بقوله تعالى (ولتكن) فهو أمر ظاهر ؛ وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، وقال تعالى (من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف اليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة) وقد وصف المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ فالذى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية ، وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس ، وقال تعالى (وتعاونوا

على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان وغير ذلك من الآيات .

وأما السنة فقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (م وغيره) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليـــه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن نروا كفرا مباحا عندكم من الله فيه برهان وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم) (خ و م) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم) فقال رجل من القوم هذا من أشد ما أنبأتنا به . قال (أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة ، وحملك عن الضعيف صلاة ، وإنحاؤك القـــذى عن الطريق صلاة ، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة) (ابن خزيمة) وعن ابى ذر رضى الله عنـه أن أناساً قالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال (أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به ، إن كل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة) (م وغيره) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من نبىّ بعثه الله فى أمته قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم يخلف من بعـــدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) (م) (الحوارى) هو الناصر للرجل ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يحقرن أحدكم نفسه) قالوا يارسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه

قال (يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة ، مامنعك أن تقول فى كذا وكذا ، فيقول خشيت الناس فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى) (هـ) وقال أبو بكر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن يُنكرَ عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده) (أصحاب السنن) وروى عن أبى ثعلبة الخشنى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (لا يضُركم مَن ضلَّ إذا اهتَديتُم) فقال (يا أبا ثعلبةُ مرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعا وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم ، للمتمسك فيها بمثل الذى أنتم عليه أجر خمسين منكم) قيل بل منهم يا رسول الله ؛ قال (لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون عليه أعوانا) (د ت هـ) وقال عليه السلام (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم) (طب) وقال عليه السلام (لا تَقِفنّ عند رجل يُقتل مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يُضرب مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه (هب) وقال عليه السلام (لا ينبغى لامرىء شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدّم أجله ولن يحرمه رزقاً هو له) (هب) وهذا يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات فى الأسواق والمجتمعات والطرقات وعجزهم عن التغيير — وأما فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فما أوردناه من الآيات والأخبار كاف فى ذلك وإليك حديث جابر (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) (ك) فدل ذلك على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة — ونظراً لأن المنكر قد عم فعله وقوله ورؤيته فى الطرقات والمجتمعات والأسواق ، وقد عجزنا عن تغييره باليد واللسان والقلب فنصيحتى لمن يريد سلامة دينه أن يهرب من هذه المواطن ونسأل الله السلامة فى اعتزالنا .

باب فى بيان المنكرات المألوفة بالعادة

المنكرات المألوفة والتى يجب النهى عنها قد تحدث فى خمس مواطن — فى المساجد والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة — فأما المنكرات التى تقع فى المساجد فمنها الاخلال فى الصلاة وعدم الطمأنينة فى الركوع والسجود ، ووجود نجاسة فى ثوب المصلى لم يرها ، والانحراف عن القبلة ، واللحن فى القراءة ، والتكلم بكلام دنيوى ، فهذه الأمور مكروهة يجب تعريفها لمن يجهلها فإذا صدرت عن علم فيجب النهى عنها قال ابن مسعود من رأى من يسىء فى صلاته فلم ينهه فهو شريكه فى وزرها . ومنها قراءة القرآن بالتشديد والألحان على وجه يغير نظم القرآن ويجاوز حد التنزيل بل هذا منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف ومنها آكل الثوم والبصل فقد نها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد نظراً لرائحته المستكرهة — (ق) أما منكرات الأسواق ، فمنها الكذب فى البيع وإخفاء عيب البضاعة ، فمن قال إنى اشتريت هذا بكذا وطلب فيه ربحاً وكان كاذباً فهو فاسق ، وكذا نقص المقياس ، وبخس الكيل والميزان — ومنكرات الشوارع منها مزاحمة الطريق بسلع البيع والأطعمة وغيرها ، إن كان ذلك يضر بالمارة وإلا فلا ، وكذا ربط الدواب فى الطريق ؛ والمرور فى الطرقات بأحمال الحطب التى تؤذى الناس وتمزق ثيابهم ، وتحمل الدواب أحمالا لا تطيقها وكذا يمنع القصاب من ذبح الحيوانات أمام دكانه وتلويث الطريق بالدم وكذا طرح الكناسة فى الطريق أو رش الماء بحيث يخشى التزلق والتعثر وكذا يمنع وقوف الكلاب العقور فى الطرقات ، وعلى الجملة فكل ما يؤذى الخلق أو يضيق الطريق فهو منكر مكروه — ومنكرات الحمام ، منها كشف العورات والنظر إليها ، ومنها أن يكشف الدلاك عن الفخذ وماتحت السرة ، بل يجب أن يدخل يده من تحت الغطاء ولا يمس عورة الغير ، ومنها الانبطاح على الوجه بين يدى الدلاك فهذا مكروه ، ومنها كشف العورة للحلاق ومنها غسل الأوانى والملابس النجسة فى المياه القليلة ومنها أن يكون فى أرضية الحمام أحجار ملساء ينزلق عليها الناس وغير ذلك — أما منكرات الضيافة ، منها فرش الحرير للرجال ، ووضع الشراب فى أوانى من الفضة

أو بها جزء من الفضة . ومنها سماع الأوتار ، أو المغنيات ولو من وراء حجاب .أما الأوانى المصنوعة على شكل رءوس الطيور والحيوانات فهى حرام يجب كسر مقدار الصورة إن قدر ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسبب ذلك ، فان كان فى الضيافة من يتعاطى الخمر وحده فلا يجوز الحضور ، إذ لايحل حضور مجالس الشرب ولو مع ترك الشرب ، كما لايجوز مجالسة الفاسق حال ارتكاب الفسق ، وكذا لايجوز مجالسة لابسى الحرير والذهب من الرجال من غير ضرورة وإن كان فى الضيافة صاحب بدعة ويتكلم فى بدعته يجب الرد عليه وزجره وكذلك الرجل الذى يضحك الناس بالكذب والفحش ، لاتجوز مجالسته إلا لإسكاته ، ومن المنكر فى الضيافة إسراف المال إلى المطرب وفى معناه النائحة وفى أنواع الغناء لأن كل ذلك محرم شرعاً أما الإسراف فى المباحات فلا ضرر فيه كإطعام الفقراء والتصدق عليهم بسعة — وهناك منكرات عامة لاحصر لها لم نذكرها فى هذا الباب وهى غير خافية ، لأن كل ماحرمه الشرع أو كرهه فهو منكر والله أعلم .

باب فى مواقعة الحدود وهتك المحارم

قال عليه الصلاة والسلام (إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه) (الشيخان) وعن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لأعلمنّ أقواماً من أمتى يأتون يوم القيامة بأعمال أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباءً منثوراً) قال ثوبان يا رسول الله صفهم لنا لا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال (أما هم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل ما تأخذون ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) (ه) وقال عليه السلام (حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحا) (ه) وقال عليه السلام (أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم) (ه) .

باب فى بيان ما ورد فى السماع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله بعثنى هدىً ورحمة للعالمين وأمرنى أن أمحقَ المزامير والكبّارات) (أحمد) يعنى المعازف والعود .

وقد ورد فى السماع أقوال كثيرة معبرة عن المذاهب ، فقد حكى الطبرى عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان رضى الله عنهم وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوا تحريم السماع . وقال الشافعى رضى الله عنه فى كتاب آداب القضاء إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ؛ ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته . وقال الطبرى استماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعى بحال ، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب . وأما مالك رضى الله عنه فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى الإنسان جارية فوجدها مغنية كان له ردها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة . وأما أبو حنيفة رضى الله عنه فكان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة مثل سفيان الثورى وحماد وإبراهيم والشعبى وغيرهم . هذا كله نقله الطبرى ، ونقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جماعة . فقال سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، فهذه أقاويل متعارضة . وقد ذكر الامام الغزالى فى هذا الباب من كتاب الإحياء أقاويلا كثيرة نلخصها فيما يأتى :

أما ما أبيح من السماع فهو الصوت الحسن فى القرآن أو الشعر الذى يقوم مقام الحكمة قال عليه السلام (لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة بقينته) (ه حب ك) أى الجارية المغنية، وأبيح سماع الطبل والدف إلا آلات الملاهى والأوتار والمزامير التى ورد الشرع بمنعها . وتحريم هذه على اعتبار أنها شعار أهل الشرب.

وإليك حديث عائشة رضى الله عنها فى هذا الشأن ، قالت دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى وقال مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأقبل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال (دعهما) فلما غفل غمزتهما فخرجتا (خ و م) .

وهذا نص صريح على أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع غناء الجاريتين وفيه أنواع من الرخص ؛ ولكن يحرم السمع بخمسة عوارض ، الأول أن يكون المغنى امرأة

لا يحل النظر اليها ، وتخشى الفتنة من سماعها فتحريم السماع هنا لا من حيث صوت المرأة لأن صوت المرأة من غير الغناء ليس بعورة ، فكانت النساء فى زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال فى السلام والاستفتاء والمشاورة ، ولكن صوت الغناء له أثر كبير فى تحريك الشهوة ، فينبغى أن يعرف طريق الفتنة ويقتصر التحريم عليه ؛ وهذا القول يؤيده سماع النبى صلى الله عليه وسلم للجاريتين ، لأنه عليه السلام لا يخاف عليه الفتنة من السماع فلذا لم يحترز منه . فإذاً يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل فى كونه شاباً أو شيخاً قابلا للفتنة أولا . العارض الثانى فى الآلة بأن تكون من شعار أهل الشراب أو المخنثين ، وهى المزامير وكل ماله أوتار وطبل الكوبة فهذه هى الآلات الممنوعة ، والباقى مباح . العارض الثالث فى نظم الكلام وفى معناه فإن كان فيه شىء من الخنا والفحش ، وفى معناه مغازلة الرجل للمرأة فى الروايات ورفع صوت المرأة بالمداعبة والتخنث فى الألفاظ ، أو ما فيه كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم وغيرهم ؛ فسماع ذلك حرام بألحان وبغير ألحان ؛ والمستمع شريك القائل . وكذلك يحرم سماع كل قول يصف امرأة بعينها ؛ لأنه لا يجوز وصف امرأة بين يدى الرجال ، وعلى المستمع أن لا يوجه قلبه إلى امرأة معينة لا تحل له . العارض الرابع المستمع وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ؛ وكان فى غرة الشباب ؛ فسماع وصف جمال المرأة وقوامها حرام فى حقه ؛ لأن الشيطان ينفخ فى قلبه نار الشهوة . العارض الخامس أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه عند السماع إلا شهوته ؛ وقد اتخذ السماع ديدنه وضيع فيه أكثر أوقاته ؛ فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ؛ لأن المواظبة على اللهو والسماع جناية ؛ فإن المباح يصير بالمداومة من الصغائر كمداومة اللعب بالطاولة وغيرها فإنها مكروهة كراهة شديدة . وحيث قال الشافعى رحمه الله إن السماع لهو مكروه يشبه الباطل ؛ فهذا لا يدل على التحريم المفهوم ، إنما هو من باب التنزيه الواجب فى حق ذوى الدين ، وهذا هو الظن أيضاً بغيره من الأئمة — أما حجج القائلين بتحريم السماع فقد احتجوا بقوله تعالى .

(ومن الناس من يشترى لَهْوَ الحديث) قال ابن مسعود والحسن البصرى والنخعى رضى الله تعالى عنهم ، إن لهو الحديث هو الغناء . وروت عائشة رضى الله

عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها) (طب) فالقينة يراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجالس الشرب فإن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، واحتجوا بما رواه أبو أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (مارفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شياطين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك) (طب) نقول إن ذلك ينصب على بعض الغناء ، وهو الذى يحرك من القلب ماهو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين ، أما مايحرك الشوق إلى الله تعالى أو السرور بالعيد أو بالمولود أو بقدوم الغائب ، فهذا لا ضرر فيه بدليل قصة الجاريتين . واحتجوا كذلك بما رواه عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (كل شىء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته) (أصحاب السنن) واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا بقول ابن مسعود رضى الله عنه الغناء ينبت فى القلب النفاق ، وقول الفضيل ابن عياض الغناء رقية الزنا ، وقول يزيد بن الوليد إياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر فان كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء داعية الزنا — فهذه الأقاويل كلها لا تدل على التحريم قطعاً وإنما تدل على أن الأولى تركه ، لأن أكثره من أصوات النساء لاسيما فى زماننا هذا ، وألفاظه خارجة عن حدود الأدب . ولكن لما كانت القلوب إذا أكرهت عميت ، فينبغى ترويحها إعانة لها على العمل . فاللهو دواء القلب من داء الاعياء والملال ، بشرط أن يكون مباحا ولا يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء عند المرض وعلى أى حال فهذا يدل على نقصان الكمال . فان الكامل هو الذى لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق . ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين فافهم ذلك .

باب فى عقوبة من ترك الصلاة أو أخرها عن وقتها

عن جابر رضى الله عنه ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) (أحمد ومسلم) . وعن بريدة رضى الله عنه قال سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (العهد الذى بيننا و بينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى) . وروى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا سهم فى الإسلام لمن لا صلاة له ولا صلاة لمن لا وضوء له) وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له ولا دين لمن لا صلاة له إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد) وعن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ترك صلاة متعمداً أحبط الله عمله وبرئت منه ذمة الله حتى يراجع لله عز وجل توبته) وعن سعيد بن أبى وقاص قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال (هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها) وقال عليه الصلاة والسلام (من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله) . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر) . وقد جاء عن جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وعبد الرحمن ابن عوف وأبى الدرداء وأبى هريرة رضى الله عنهم وغيرهم أن من ترك صلاة فرض واحد متعمداً حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك والنخعى وغيرهم رحمهم الله تعالى . هذا القدر كفاية لمن له قلب حى . والذى أرجوه أن يعلم كل مسلم ومسلمة أن الصلاة أهم العبادات ، وقد وردت الرخصة فى الصيام المرض والسفر ، وكذا الزكاة تتوقف على المال ، والحج لا يؤديه إلا مستطيع . أما الصلاة فواجبة فى الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والسلم والحرب ، والإقامة والسفر ، والبدو والحضر ، والشغل والفراغ ، ولم يرد فى تأخيرها رخصة لأهميتها فلنفهم ذلك .

باب فى عقوبة تارك الزكاة

عن على رضى الله عنه قال ، قال عليه الصلاة والسلام (إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا

إلا بما يضع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديدا ويعذبهم عذاباً أليماً) وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا هذه الآية (ولا يحسبن الذين يبخلون) الآية (خ ن م) ويكفيك زاجر ماجاء به القرآن الكريم فى عقوبة كنز المال وعدم إخراج حق الله فيه .

باب فى عقوبة قاتل النفس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول مايقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء) (خ) وقال عليه السلام (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل يارسول الله وماهن (قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) (الموبقات) المهلكات (ق) . وعن ابن عمر أنه قال (من ورطات الأمور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله) (خ) (الورطة) المهلكة ، وقال عليه السلام (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) (ه) وقال عليه السلام (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار) (ت) وقال عليه السلام (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً) (ن)

باب فى عقوبة من يقتل نفسه

قال عليه الصلاة والسلام (من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ؛ ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً مخلدا فيها أبدا) (ق) (يتوجأ) أى يضرب بها نفسه ، وقال عليه السلام (الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار ، والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النار ، والذى يقتحم يقتحم فى النار) (خ) وقال عليه السلام (كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله بدرنى عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة) (خ) .

باب فى عقوبة شارب الخمر

قال عليه الصلاة والسلام (اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر) (ك) وقال عليه السلام (لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) (خ) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أتانى جبريل فقال يامحمد إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها) (أحمد) وعنه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر) (طب) وقال عليه السلام (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا فمات وهو يدمنها لم يشربها فى الآخرة) (خ و م) وقال (ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده فى أيديهم والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى والسكران حتى يصحوا) (طب)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله حرم الخمر وثمنها وحرم الميتة وثمنها ، وحرم الخنزير وثمنه) (د وغيره) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه) (ك) وعن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الفوطة قيل وما نهر الفوطة ؟ قال (نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار بريح فروجهم) (أحمد وغيره) (المومسات الزانيات) وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لقى الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن) (حب) أعاذنا الله وإياكم من شر هذا

باب فى عقوبة الزنا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) (خ)

الحديث قبلا ، وقال عليه السلام (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله إلا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجاعة) (ق) وقال عليه السلام (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر اليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر) (م ن) ورواه الطبرانى بلفظ (لا ينظر الله يوم القيامة إلى الشيخ الزانى والعجوز الزانية) وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) قلت إن ذلك لعظيم ثم أىّ قال (أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك) قلت ثم أى قال (أن تزنى بحليلة جارك) رواه الشيخان وغيرهما نسأل الله أن يعصمنا بمنه وكرمه .

باب فى عقوبة اللواط

قال عليه الصلاة والسلام (إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط) (ه) وقال عليه السلام (مانقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحشة فى قوم إلا سلط الله عليهم الموت ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القطر) وقال عليه السلام (إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو وإذا كثر الزنا كثر السباء وإذا كثر اللوطية رفع الله عز وجل يده عن الخلق فلا يبالى فى أى وادهلكوا) (ك) وقال عليه السلام (لعن الله سبعة من خلقه من فوق سبع سموات وردّد اللعنة على واحد منهم ثلاثاً ، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه ، قال ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من أتى شيئاً من البهائم ، ملعون من عق والديه ، ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ، ملعون من غير حدود الأرض ، ملعون من ادعى إلى غير مواليه) (طب و ك) .

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى باسناد صحيح أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصديق أنه وجد رجلا فى بعض ضواحى العرب يُنكح كما تنكح المرأة ، فجمع لذلك أبو بكر أصحابَ رسول الله صل الله عليه وسلم وفيهم على بن أبى طالب ، فقال

علىّ إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم ؛ أرى أن تحرقه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنار فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار . وقال عليه السلام (لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها) (ت) وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (استحيوا فان الله لا يستحى من الحق ولا تأتوا النساء فى أدبارهن) (أبو يعلى) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من أتى النساء فى أعجازهن فقد كفر) (طب) ورواته ثقات . نكتفى بهذا. ونسأل الله تعالى لنا ولإخواننا المسلمين العصمة من كل ما يغضب رب العالمين .

باب فى عقوبة عقوق الوالدين

عن أبى بكر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً قلنا بلى يارسول الله ، قال (الاشراك بالله وعقوق الوالدين) وكان متكئاً فجلس فقال (ألا وقول الزور وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (ق) . وقال عليه السلام (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه ومدمن الخمر ، والمنان بعطائه ، وثلاثة لا يدخلون الجنة العاق لوالديه ، والديوث والرَّجلة) (ن) الديوث هو الذى يقر أهله على الزنا ، والرجلة المرأة المترجلة . وقال عليه السلام (كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فان الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات) (ك) .

باب فى عقوبة آكل الربا

قال عليه الصلاة والسلام (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وما هن قال (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وآكل الربا وآكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الفاعلات المؤمنات) (ق) وعن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال ، لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء (م) وعن عوف ابن أبى جحيفة عن أبيه قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله ،

ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغى ولعن المصورين (خ و د) . وقال عليه السلام (الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ثلاث وثلاثين زنية يزنيها فى الإسلام) (طب) وقال عليه السلام (ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة) (ه و ك) . وقال عليه السلام (درهم ربآ يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية) (أحمد وطب) وقال عليه السلام (إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله) (ك) .

عقوبة آكل مال اليتيم بغير حق

قال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر رضى الله عنه (يا أبا ذر إنى أراك ضعيفاً وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم) (م) وغيره وقال عليه السلام (أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة، ولا يذيقهم نعيمها، مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه) (ك) .

وقال عليه السلام (يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارآ) . فقيل من هم يا رسول الله قال ألم تر أن الله يقول (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارآ) (أبو يعلى) .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فاذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان ، فقلت ما هذا الذى رأيته ، قال آكل الربا) (رواه البخارى مختصرا) .

باب فى عقوبة اغتصاب الأرض

عن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين) (ق) .

وقال عليه الصلاة والسلام (من أخذ من الأرض شبرا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين) (خ) وقال عليه السلام (أيما رجل ظلم شبرا من الأرض

كلفه الله عز وجل أن يحفره حتى يبلغ به سبع أرضين ثم يطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس) (أحمد) وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أى الظلم أظلم فقال (ذراع من الارض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ولا يعلم قعرها إلا الله الذى خلقها)(احمد) وقال عليه السلام (من أخذ من طريق المسلمين شبرا جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين) (طب).

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (أعظم الغلول عند الله عز وجل ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين الأرض أو فى الدار فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا، إذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين) (أحمد)

باب فى عقوبة بخس الكيل والميزان

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله عز وجل (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل بعد ذلك (ه) وعنه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحاب الكيل والوزن (إنكم قد وليتم أمراً فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم) (ت) وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال اقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينتقصوا المكيال والميزان إلا اخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينتقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ويتحيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم) (ه)

عقوبه من يمنع الأجر عن الأجير

قال عليه الصلاة والسلام (قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته ، رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره) (خ و ه وغيرهما) وقال عليه السلام (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) (ه).

باب فى عقوبة النائحة وضرر النياحة على الميت

قال عليه الصلاة والسلام (الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه) (ق) وقال عليه السلام (ثلاثة من الكفر بالله شق الجيب والنياحة والطعن فى النسب) (حب) وقال عليه السلام (النياحة من أمر الجاهلية وأن النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثياباً من قطران ودرعا من لهب النار) (هـ) وعن ابن أبى بردة قال وجع أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ورأسه فى حجر امرأة من أهله ، فأقبلت تصيح برنة ؛ فلم يستطع أن يرد عليها شيئا فلما أفاق قال — أنا برىء ممن برىء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم برىء من الصالقة والحالقة والشاقة (الصالقة) التى ترفع صوتها بالندب والنياحة (والحالقة) التى تحلق رأسها عند المصيبة (والشاقة) التى تشق ثوبها (ق) ومن السنة أن لا تحد المرأة على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوجها قال عليه السلام (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا) . (تحد أى تحزن) (ق)

باب فى عقوبة الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنصمة والمتفلجة

(الواصلة) التى تصل شعر المرأة بشعر آخر (المستوصلة) التى يعمل لها ذلك (الواشمة) التى تغرز البدن بالابر ثم تسقيه بلون آخر (المستوشمة) التى يعمل لها ذلك ، وهو الوشم أو الدق (النامصة) التى تنتف شعر الحاجب حتى ترققه (المتنمصة) التى يعمل لها ذلك (المتفلجة) التى تفلج أسنانها بالمبرد ونحوه للتجمل . عن أسماء رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن الواصلة والمستوصلة . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة وقال ابن مسعود رضى الله عنه لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله إلى آخر الحديث . (خ) وعن عائشة رضى الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت فسقط شعرها فأرادوا أن يصلوا شعرها فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال (لعن الله الواصلة والمستوصلة) (خ)

باب فى عقوبة كشف بعض أعضاء الجسم والزينة فى الملبس

قال عليه الصلاة والسلام (صِنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) (م) وعن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها ثم قال (يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا) (د) وأشار إلى وجهه وكفيه ، وقال الله تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) الآية . وهذا نص صريح فى أن نساء هذا الزمن قد تجاوزن حد الشرع فلبسن الثياب الرقاق ، وأظهرن بعض أجزاء الجسم غير الوجه والكفين ، مثل الصدر والذراعين والساقين ووضعن على رؤوسهن مثل أسنمة الابل ، ألا فلتتق الله المسلمة وتتبع ما أمر به الشرع وتجتنب ما نهى عنه ، وإلا فقد عرَّضت نفسها للَّعن والطرد والمقت .

عقوبة المرأة أن تسأل زوجها الطلاق

قال عليه الصلاة والسلام (أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة) (د ، ت ، ه) وقال عليه الصلاة والسلام (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) (د) .

باب فى عقوبة تعطر المرأة عند خروجها

قال عليه الصلاة والسلام (كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا) يعنى زانية (د) وقال عليه الصلاة والسلام (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية) (ك) . التعطر ليس بحرام ولكن يحرم إذا كانت المرأة تقصد إمالة قلوب الرجال .

باب فى عقوبة إطلاق النظر وفضيلة غضه وخطر الخلوة بالأجنبية

قال عليه الصلاة والسلام (ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه) (أحمد) . ومعنى هذا أن يقع نظره على المرأة بغير قصد فيصرفه عنها تورعا فان له الأولى وعليه الثانية وقال عليه السلام (ثلاثة لا ترى أعينهم النار عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله) (طب) وقال عليه السلام (لايخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثها الشيطان) وقال عليه السلام (لايخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى مَحْرَم) (ق) وقال عليه السلام (لأَن يطعن فى رأس أحدكم بِمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له) (طب) . المخيط الإبرة ونحوها وقال عليه السلام (ما من صباح إلا وملكان يناديان ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال) (ه) .

قد عرفت أيها المسلم حدود الشرع فلا تنظر إلى امرأة لا تحل لك ، ولا تخل بامرأة لا تحل لك ، ولا تزاحم امرأة لا تحل لك ، كما عرفت مما رويناه سابقا إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يصلح أن يرى منها إلا وجهها وكفاها وإليك القول الفصل فى ذلك ما قاله رب العالمين عز وجل ، لنبيه صلى الله عليه وسلم حين بعثه ليخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال ، إلى نور الحق والإيمان (قل للمؤمنين يَغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أذكى لهم) الآية (وقل للمؤمنات يَغضُضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جُيوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن) إلى آخر من سمح لهم الشرع بالتطلع لزينة المرأة . هذه أحكام شاملة لكافة المؤمنين والمؤمنات أمرنا الله بها لتطهير قلوبنا ولسلامة ديننا فتأمل رحمك الله الحكمَ البالغة والمقاصد السامية فى قوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) حكم على المرأة أن تستر صدرها لتخفى مواضع الفتن ، لأن ما برز من صدر المرأة من أكبر الآفات التى تفتك بقلوب الرجال ، كما حكم على الرجل فى الآية الاولى ، بأن يغض بصره إذا وقع على امرأة لم تستر نفسها . هذه أحكام وجب على كل من آمن بها

أن يتبعها ؛ ولكن فى زماننا هذا قد انقلب الوضع وحلت عوامل الفساد محل الهدى والرشاد فاستهوتنا الشياطين وقادتنا إلى ما هو أقبح من كشف الصدر وإطلاق النظر . فانظر إلى الرجل والمرأة وهما يتخاصران ويتراقصان ، وقد انكشف الصدر والظهر ، وظهرت مواضع الفتن بأجلا ظهور وذلك على مرآى من الزوج والوالد ، وقد لعبت الخمر بالعقول . فلا غيرة دينية يظهرها الزوج حين تتأبط زوجته رجلا غيره ، ولا حمية إسلامية تبدو من الوالد حين يرى كريمته يخاصرها شاب ويراقصها ، وقد أخذ جنون الشباب منهما كل مأخذ . وهذه حاله وأيم الحق مؤلمة مخزية ، تقشعر لها الأبدان ، وتندمل لها القلوب ، يفعلها قوم ينتمون لشرعة الإسلام ؛ وقد قال صاحبها صلى الله عليه وسلم (لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لاتحل له) (طب) بل هناك ماهو أشد ألماً وأعظم خزياً ، وهو مايسمونه الاستحام على الشواطىء ، فقد بلغ من استهتار المسلمين بأمر دينهم ، أن قلدوا من لا دين لهم فى كل منكر وفحش ، فتعرضت المرأة المسلمة لأنظار الرجال على شواطىء البحار واختلطت بهم وهى عارية قد انكشف صدرها وبرزت تفاصيل جسمها وقد زادها عرياً وافتضاحاً إلتصاق ثوبها الشفاف المبتل على جلدها فبدت عوراتها للناظرين وهى بهذا المنظر المخجل الذى لا يطيق النظر إليه من فى قلبه مثقال ذرة من حياء ، وزوجها مغتبط ، وذلك لأن ماء الحياء قد نضب من الوجوه ، وغاض الدم من العروق ، وبهذا وغيره قد حارب هؤلاء الآله ، فلاحول ولا قوة إلا بالله .

ومن العجيب أن الذين نكبوا فى دينهم إلى هذا الحد ، يدافعون عن جرائمهم الفاحشة بقولهم ، هذه هى المدنية ، وهذا مايتطلبه الظهور بين الطبقات الراقية ، ألا فليعلموا أنهم بعملهم هذا ، قد أغضبوا الله تعالى ، وتبرأ منهم رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن غضب الله عليه ، طرد من رحمته . ومن تبرأ منه النبى ، حرم من شفاعته . فنصيحتى لمن هذا حالهم أن يتوبوا إلى الله تعالى ولا يتبعوا خطوات الشيطان الرجيم ، عسى الله أن يتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم .

ولكن الله الذى يغار على دينه قد اختار من خيرة علمائه للذود عن حدود الشرع . رجل الورع والتقى . قدوة العاملين فى هذا العصر . صاحب الفضيلة . العارف بالله

تعالى . السيد محمود أبو العيون . السكرتير العام للأزهر الشريف . فقام – أعزه الله – يؤدى رسالة الأزهر ويذب عن الحنيفية السمحة . ويدافع عن دين الله . ودأب على نشر تعاليم الإسلام الصيحة بين طبقات المسلمين بشتى الوسائل . وكرس نفسه لمحاربة البدع . وإبطال المنكرات . والعمل على إقامة حدود الله فى الأرض . فجزاه الله عن الدين وعن الإسلام خير الجزاء وأوفاه .

وكان من ثمرة هذه الجهود المتواصلة . والصيحات المخلصة فى سبيل الفضيلة والعفاف والأخلاق ، أن استجاب ولاة الأمور بعد لأى ، وبعد طول مطاف لهذه الصيحات ، استجابة عملية رسمية فتم الغاء البغاء الرسمى . واحكمت حلقات التضييق والمحاربة لأوكار الفسق والفجور فى هذه البلاد ، مما يبشر بمستقبل طهور تسود فيه الفضيلة والعفاف .

أيها المؤمن إذا لم تعمل أنت بحدود الشرع ، وتحافظ على تعاليم الدين ، وتتخلق بأخلاق من بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق صلى الله عليه وسلم فمن يفعل ذلك من بين الملل الأخرى ؟ هل يقيم حدود الاسلام رجل مجوسىٌّ ، وهل يعمل بشرع النبى صلى الله عليه وسلم رجل من عبدة الأوثان . وهل يتخلق بأخلاق القرآن رجل لم يؤمن بالقرآن ، هذا ما لا يكون أبداً . الحق اننا أصبحنا بعيدين عن التعقل والتدبر بل أصبحنا فى زمان قد تدهورت فيه الأخلاق الدينية ، إلى أسوأ ما كانت عليه فى الجاهلية ونحن مع ذلك آمنون مطمئنون ، قادتنا شهوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا ، فلا قرب الرحيل يوقظنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ، ولا موت الأهل والخلان ينبهنا ، وما ذلك إلا من قسوة القلوب ، وظلمة الذنوب ، التى أعمت البصائر ، وطمست العقول ، وأبادت إحساس الضمائر .

باب فى عقوبة تشبه الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال (خ) وفى رواية للبخارى أيضا

لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء (المخنث من فيه انخناث وتكسر فى الأقوال والأفعال . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل . (د ن ه)

باب فى خطورة تولى القضاء والحكم والامارة

قال عليه الصلاه والسلام (من ولى القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين) (د) الذبح بالسكين يحصل به راحة ، وبغير السكين كناية عن التعذيب ، وقال عليه السلام (القضاة ثلاثة، واحد فى الجنة ، واثنان فى النار، أما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار) (د،ت) وقال عليه السلام (ليأتين على القاضى العدل يوم القيامة ساعة يتمنى أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة قط) (أحمد) وعن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا إن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من ولى عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو بما كرهوا جيء به مغلولة يده فان عدل ولم يرتش ولم يحف فك الله عنه وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وحابى فيه شدت يساره إلى يمينه ، ثم رمى به فى جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام) (ك) .

وقال عليه السلام (إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع) (حب) وقال عليه السلام (من ولى من أمر المسلمين شيئاً فغشهم فهو فى النار) (طب) وقال عليه السلام (من ولى أمر الناس ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذى الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون اليها) (احمد)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) (خ و م)

باب فى عقوبة الراشى والمرتشى فى الحكم

قال عليه الصلاة والسلام (لعنة الله على الراشى والمرتشى) (ه) وقال عليه السلام (الراشى والمرتشى فى النار) (طب) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشى والمرتشى فى الحكم (ت) وفى رواية والرائش يعنى الوسيط بينهما (أحمد) وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال (الرشوة فى الحكم كفر وهى بين الناس سحت) (طب).

باب فى عقوبة السحر والتكهن ومن يصدقهما

قال عليه الصلاة السلام (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا يا رسول الله وما هن قال (الشرك بالله والسحر) إلى آخر الحديث . (ق) وقال عليه السلام (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك. ومن تعلق بشىء وكل اليه) (ن) وقال عليه السلام من (أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ومن أتاه غير مصدق لم تقبل له صلاة أربعين ليلة (طب) الكاهن هو الذى يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطىء أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك . وقال عليه السلام (من أتى عرافاً فسأله عن شىء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) (م) العراف هو الذى يدعى معرفة الأمور ، كمن يخبر عن موضع المسروق ، وعن الذى سرقه ، ومعرفة مكان الضائع ونحو ذلك . وقال عليه السلام (لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا مؤمن بسحر ولا قاطع رحم) (حب) قال الحافظ المنذرى — والمنهى عنه من علم النجوم هو ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث فى المستقبل ، كمجىء المطر ، وهبوب الريح ، وتغيير الأسعار ، ووفاة بعض الناس ، ويزعمون أنهم يعرفون ذلك بسير الكواكب واقترانها وافتراقها وظهورها فى بعض الأزمان . ألا فليعلم من ابتلى بهذا التنجيم ، أن هذا العلم قد استأثر به الله سبحانه وتعالى لا يعلمه أحد غيره .

باب فى عقوبة لعب النرد (الطاولة) وغيرها

قال عليه الصلاة والسلام (من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله)

والنرد هى الطاولة . (مالك) قال المنذرى ــ قد ذهب جمهور العلماء إلى أن اللعب بالنرد حرام ، واختلفوا فى لعب الشطرنج ، فذهب بعضهم إلى إباحته لأنه يستفاد به فى أمور الحرب ، لكن بشروط ثلاثة ، أنه لا يؤخر بسببه صلاة عن وقتها ، والثانى أن لا يكون فيه قمار . والثالث أن يحفظ لسانه حال اللعب من قول الفحش وبذىء الكلام . قد عرفنا مما تقدم أن لعب الطاولة حرام خصوصاً إذا ألهت عن الصلاة فى أوقاتها . وهذا هو الحاصل الآن ، فالرجل المعلق قلبه باللعب واللهو لا يكون معلقاً بالمساجد . أما لعب الورق المعروف الآن بالكتشينه ،فحرمته واضحة لأنه داخل فى الميسر الذى حرمه الله تعالى فى القرآن ونهى عنه بقوله (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

باب فى عقوبة تصوير الحيوانات والطيور

قال عليه الصلاة والسلام (إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم)(ق) وقال عليه السلام (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) (ق) وقال سعيد بن أبى الحسن كنت عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال ، ياابن عباس إنى رجل إنما معيشتى من صنعة يدى ، وإنى أصنع هذه التصاوير فقال ابن عباس لاأحدثك إلا ماسمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول (من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً) (خ) فربا الرجل ربوة شديدة ، فقال ابن عباس ويحك ، إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شىء ليس فيه روح . ربا الانسان إذا انتفخ غيظاً .

باب فى عقوبة اقتناء الكلاب والصور

قال عليه الصلاة والسلام (من اقتنى كلباً ليس بكلب ماشية أو صيد نقص من عمله كل يوم قيراطان (خ) وعن عائشة رضى الله عنها قالت ، واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى ساعة أن يأتيه ، فجاءت تلك الساعة ولم تأته قالت وكانت بيده عصا فطرحها من يده وهو يقول (مايخلف الله وعده ولا رسوله) ،

ثم التفت فاذا جرو كلب تحت سريره فقال (متى دخل هذا الكلب) فقلت والله ما دريت) . فأمر به فأخرج ، فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (وعدتنى فجلست لك فلم تأتنى) فقال (منعنى الكلب الذى كان فى بيتك إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة) (م)

أيها المسلم — قد عرفنا من هذا أن اقتناء الكلاب ينقص من حسنات الرجل ، كما وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة ، وإنك ترى مع الأسف الشديد أن الكثير من المسلمين يقتنون الكلاب للزينة تشبهاً بالأجانب ، فتلعق أوعية طعامهم وتلغ فى آنية شرابهم ، وتجلس فى حجورهم ويقبلونها كما يقبلون أعز أبنائهم . فاعلم أيها المسلم أن اقتناء الكلاب بهذه الصفة مخالف للشرع ، ولم ينه الشرع عن شىء إلا لأضراره ، ولذلك قال عليه السلام (إذا شرب الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعاً) وفى رواية (إحداهن بالتراب) (ق) وفضلا عن ذلك فإنه إذا كانت هذه الصورة فى حجرة نومك ، وهذا الكلب يرتع فى غرف بيتك ، وأتاك أمر الله بالموت ، فلا تدخل عليك ملائكة الرحمة ، فتحرم من أعز شىء أنت محتاج اليه فى هذا الوقت العصيب ، الذى لا ينفعك فيه مالك وولدك ، فضلا عن تمثالك وكلبك ، ألا فلنتب إلى الله جميعاً ونسأله التفقه فى أمور ديننا .

باب فى عقوبة من يسب الدهر

قال عليه الصلاة والسلام (قال الله تعالى يسب بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الليل والنهار) وفى رواية (أقلب ليله ونهاره ؛ وإن شئت قبضتهما) (ق وغيرهما) وقال عليه السلام (لا يسب أحدكم الدهر ، فإن الله هو الدهرُ) (م)

باب فى ذكر أشراط الساعة وعلاماتها

أما وقت قيامها فلا يعلمه إلا الله تعالى . وفى حديث جبريل الذى رواه مسلم (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) . وفى القرآن العظيم (يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربى لا يُجلّيها لوقتها إلا هو) وقال تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) وروى أبو نُعيم عن حذيفة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (للساعة

أشراط) قيل يارسول الله ما أشراطها . قال (علو أصوات أهل الفسق فى المساجد وظهور أهل المنكر على أهل المعروف) فقال أعرابى فما تأمرنى يارسول الله . فقال (دَع ما تنكر وخذ ماتعرف) وقال (كن حِلسَ بيتك) أى إلزم الجلوس فى بيتك قال العلماء الحكمة فى تقديم أشراط الساعة عليها تنبيه الناس من رقدة الغفلة وحثهم على الأخذ بالاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة وتأدية الحقوق إلى أربابها قبل أن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . وبين أن يحال بينهم وبين سعادتهم ، وروى القرطبى أن هذه الأشراط جعلها الله تعالى علامة على إنهاء مدة الدنيا . فمنها — خروج الدجال . ونزول عيسى وقتله الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدابة التى تخرج من الأرض تكلمهم أى تعلم الناس فى وجوههم من مسلم وكافر (تميزهم) ، ومنها طلوع الشمس من مغربها ، فهذه هى الآيات العظام — أما تقدم هذه الآيات من نقص العلم وغلبة الجهل واستعلاء أهله وبيع الحكم وظهور المعازف واستفاضة شرب الخمر واكتفاء النساء بالنساء والرجال بالرجال وإطالة البنيان وزخرفة المساجد وأمارة الصبيان وكثرة الهرج أى القتل بغير حق ، فإنها هى أسباب حادثة مصدقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر وأنذر .

باب فى حقيقة التوبة

التوبة واجبة على العبد فوراً ، للأسباب التى سنذكرها بعد . واعلم أنه من متممات الايمان أن تعرف أن الذنوب مهلكات وأنها سبب دخول النار ، وهذه المعروفة واجبة أيضاً على الفور ، لتكون باعثاً لك على ترك الذنوب ، فمن لم يتركها بعد هذه المعرفة ، فهو فاقد لجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (لا يزنى الزّانى حين يزنى وهو مؤمن) (ق) وما أراد به نفى الإيمان الذى هو العلم بالله تعالى ووحدانيته ، وصفاته والإيمان به وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر ، أى أن ذلك لاينافيه الزنا والمعاصى ، وإنما أريد به نفى الإيمان الذى يُبعد العبد عن ربه عز وجل بسبب الزنا أو المعصية التى يرتكبها . وعلى ذلك فالعبد العاصى ناقص الايمان . واعلم أن الايمان فى جملته ليس باباً واحداً ، بل هو أكثر من سبعين باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثال ذلك تقول

ان الانسان مكوّن من أكثر من سبعين ركناً ، أعلى ركن فيه الروح ، وأدنى ركن فيه إماطة الأذى عن البدن ، فمثال الإيمان حينئذ كالانسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب بطلان الإيمان بالكلية . كفقد الروح عن الجسم يُوجب بطلان الحياة بالكلية ؛ والذى ليس له إلا شهادة التوحيد ، هو كإنسان مقطوع الأطراف فاقد لجميع أعضائه ، وكما أن الانسان الذى هذا حاله قريب من أن يموت ، فتفارقه الروح المنفردة التى تركتها الأعضاء ، فكذلك من ليس له إلا أصل الايمان وهو مقصّر فى أعمال العبادة قريب من أن تقتلع منه شجرة الإيمان إذا صدمتها الرياح العاصفة عند قدوم ملَك الموت عليه . أعنى أن كل إيمان لم يثبت فى القلب أصلُه ، ولم تنتشر فى الأعماق فروعُه ، وهى الطاعات ؛ لم يَثبت على عواصف الأهوال ، عند ظهور ناصية ملك الموت ؛ وخيف على صاحبه سوءُ الخاتمة . أما الايمان الذى صانه صاحبه بالطاعات على توالى الأيام والساعات فانه يرسخ ويثبت . وأما قول المسلم العاصى للمسلم المطيع أنا مؤمن كما أنك مؤمن ، فهو شبيه بقول شجرة القرع لشجرة الرمان ؛ أنا شجرة وأنت شجرة ؛ وما أحسن جواب شجرة الرمان حيث قالت لشجرة القرع ؛ ستعرفين اغترارك وتعلمين حقيقة مكانك بين الشجر ؛ إذا عصفت الرياح ؛ فعندها تتقطع أصولك ؛ وتتناثر أوراقك ؛ وتتحقق أنك كنت تشاركين الشجر فى الاسم فقط ، مع غفلتك عن أسباب ثبوت الأشجار أمام الرياح والعواصف . فهكذا الحال مع المسلم العاصى والمسلم المطيع ، فالطاعات تثبّت الايمان وتقوّيه عند سكرات الموت ، بخلاف العاصى فلم يكن لديه ما يقوّى به أصل الايمان فى ذلك الوقت العصيب . وعلى ذلك يمكننا أن نضرب مثلا آخر ، وهو ان ارتكاب المعاصى بالنسبة للايمان كالمأكوت المضرة بالنسبة للأبدان ، فلا تزال تجمتع فى الباطن وتغيّر مزاج المعدة والانسان لا يشعر بها إلى أن يفسد البدن فيمرض مرة واحدة ثم يموت بعد ذلك . وهكذا المعاصى فان ارتكابها يفسد على العبد الايمان ، ويضعف عنده اليقين فيختم له بالسوء ويخلد فى النار والعياذ بالله .

وإذا كان الخائف من الموت يجب عليه ترك السموم ، وترك تعاطى ما يضر بصحته من المأكولات على الفور ، أى وقت علمه بضررها ، فالخائف من هلاك الأبد

أولى بأن يجب عليه ترك ما يضر بآخرته على الفور أيضاً . وإذا كان الذى يتناول السم يجب عليه أن يتقايأ ليخرجه من معدته على الفور تلافياً لبدنه المشرف على مفارقة هذه الدنيا الفانية ، كما يجب عليه أيضاً أن لا يعود لتناوله مرة أخرى ، فمتناول سموم الدين وهى ارتكاب الذنوب أولى بأن يجب عليه أن يتوب عنها فوراً ثم يتدارك بالطاعات ما يمكن تداركه فى هذا العمر ما دام فى العمر بقية ، لأن المخوف من سم الدين ، فوات الآخــرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، الذى تنقضى أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر البتة — فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء واختبارهم ، ولا ينفع بعده الاحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة على العبد بأنه من الهالكين ، فمتى تقرر ذلك وجب علينا عباد الله أن نبادر إلى التوبة فهى طريق النجاة من الهلاك . قال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) ويدل على فضل التوبة قوله تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) (ه) وقال عليه السلام (للهُ أفرحُ بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله ، قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه) (ق) فالله سبحانه وتعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا الرجل براحلته . ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا — يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك — فقال آدم عليه السلام يا جبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى — فأوحى الله اليه — يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب ، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب — واعلم هدانا وهداك الله أن التوبة عبارة

عن الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقه على عقـــله . وغريزته التي هي عدّة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدّة الملائكة ، ولذلك كان الرجوع عما وقع فيه العبد من متابعة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان ، نبيا كان أو غبيـا ، فإذاً ، وجب على كل من بلغ كافراً جاهلا أن يتوب من جهله وكفره ، فاذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه ولكنه غافل عن حقيقة إسلامه فعليه أن يتوب عن غفلته، بأن يتفهـّم معنى الإسلام، لأنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ، وقد دل ذلك على أن التوبة فرض عين واجب على كل شخص ، لايمكن أن يستغني عنها أحد من البشر ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة) (م) أي يغطى عليه وقد أكرمه الله تعالى بقوله (ليَغـفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخر) فاذا كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم فكيف حال غيره ، وقد علمنا أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة ترك هذه الشهوات فقط ، بل تمام التوبة تدارك مامضى لأن كل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع من نفـس الإنسان بخار إلى وجه المرآة النظيفة ، فاذا تراكمت ظلمة الشهوات على القلب صار ذلك ريناً . (الرين تراكم الذنوب) كما يصير بخار النفَس على المرآة عند تراكمه سواداً قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فلا يكفي في تدارك ما اتبع من الشهوات سابقاً تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الظلمات التي انطبعت على القلب ، كما أنه لا يكفي في تنظيف المرآة قطع البخار عنها مستقبلا بدون أن تشتغل في محو ما انطبع فيها من السواد . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فكذلك يرتفع إليه نور من الطاعات والخيرات فتنمحي ظلمة المعصيـة بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) (ت) فاذا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة فعل حسنات تكون مضادة لتلك السيئات . واعلم أن كل ساعة من عمرك بل كل نفس من أنفاسك جوهرة نفيسة صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد ، فاذا ضيعتهـا

فى الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً ، وأن صرفتها فى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشاً ، فإن كنت لا تبكى على معصيتك وتتوب عنها فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة . فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، أى عند الموت ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته ، ولكل مفرط تفريطه ، ولكن قد مُنع العبد من التدارك فلم تكن إلا الحسرة والندامة . قال بعض العارفين إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقى من عمره ساعة وأنه لا يستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لتنازل عنها فى مقابل أن يُضم إلى تلك الساعة ساعةٌ أخرى ليحاسب نفسه فيها ويتدارك تفريطه ، ولكن هيهات فلا يجد إلى ذلك سبيلا ، وهو أول ما يظهر من قوله تعالى (وحيل بينهم وبين ما يَشْتَهون) وإليه الاشارة بقوله عز وجل (مِن قبلِ أن يأتى أحدَكم الموتُ فيقول ربَ لولا أخرتَنى إلى أجل قريب فأصّدّق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) قيل إن الأجل القريب الذى يطلبه العبد معناه أنه يقول عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخرنى يوماً أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحاً لنفسى ، قال الملك فَنيت الأيام فلا يوم . فيقول أخرنى ساعة فيقول فَنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه وهو شهادة التوحيد فى صدمات تلك الأحوال وهنا تزهق روحه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وهذا حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشِّقوة ، والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وهذا سوء الخاتمة ، ولمثل هذا يقال (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار) .

قال لقمان لابنه — يابُنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة — فمن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين — أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من فعل المعاصى حتى يصير رَيْناً وطبعاً فلا يقبل المحو — والثانى — أن يعالجه المرض أو الموت فلا يجد أمامه مهلة للاشتغال بالمحو والتكفير ولذلك

ورد فى الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف فما هلك من هلك إلا بالتسويف. واعلم أن العمر أمانة الله عند العبد، وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته بالتوبة فأمره فى خطر. قال بعض العارفين إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام — أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له — عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلىّ كيف تلقانى — والثانى عند خروج روحه يقول له — عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء، أو ضيعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) فقدّم أيها العبد توبتك إلى مولاك واعلم أنه سبحانه وتعالى عفو كريم يقبل التوبة عن عباده. وقد دلت الآيات والأخبار على ذلك قال تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل يَبسط يدَه بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) (م) وبسط اليد كناية عن طلب التوبة من العبد. وقال عليه الصلاة والسلام (لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم) (ه) وقال أيضاً (إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة) فقيل كيف ذلك يارسول الله؟ قال (يكون نصب عينه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة) (ابن المبارك). وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم إلا عن نبىّ مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين، سقط عنه أسرع من طرفة عين، ويروى أنه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك، فقال إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك تقبلنى — فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصاً — أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت الينا قبلناك. فينبغى على العبد أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات والاستغفار. قال الله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون).

فهذا القدر كاف فى وجوب التوبة على الفور . واعلم أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة ، لأن الله سبحانه وتعالى من كرمه ولطفه بعباده جعل الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة ، كما جعل الماءَ مزيلا للعطش . تاب الله علينا جميعاً وهدانا وإياكم سبيل الرشاد .

باب فى أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين لهم فى التوبة أربع طبقات — الطبقة الأولى — أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه ، وتسمى هذه التوبة التوبة النصوح ، كما تسمى نفس صاحبها النفس المطمئنة التى ترجع إلى ربها راضية مرضية ، فمن هذه الطبقة من يختطفه الموت بعد حصول التوبة مباشرة فيغبط على ذلك ، ومنهم من يطول عمره فيطول جهاده وتكثر حسناته وحال هذا بالطبع أفضل بكثير من الأول — الطبقة الثانية — تائب سلك طريق الاستقامة وقام بأداء أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش ، إلا أنه يعتريه فى حياته بعض صغائر الذنوب ، لا عن قصد منه ولكن يبتلى بها بغير إرادته ، وكلما حصل له ذلك ندم ولام نفسه وجدّد عزمه على أن يحترز منها ، فهذه هى النفس اللوامة ، وهى أيضاً رتبة عالية فى التوبة ، وأصحابها لهم الوعد من الله تعالى حيث يقول (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) أعنى أن كل إلمام يقع بصغيرة من الصغائر لا عن عزم ونية ، فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . وقال صلى الله عليه وسلم (كل بنى آدم خطّاءون وخير الخطائين التوّابون المستغفرون) (ك) — الطبقة الثالثة — أن يتوب العبد ويستمر على الإستقامة مدة من الزمن ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيرتكبها عن نية وقصد لعجزه وضعفه عن قهر شهوته ، ولكنه فى الوقت نفسه مواظب على الطاعات وتارك لبعض الذنوب التى يقدر على مقاومتها ، وهو فى هذه الحالة يتمنى أن يقيه المولى سبحانه وتعالى هذه المعصية وأن يكفيه شرها ، بل عند الفراغ منها يندم ويقول ، ياليتنى لم أفعل . ويعزم على أن يتوب منها ، ولكنه يؤخر التوبة مرة بعد مرة ويوماً

بعد يوم ، فهذه النفس تسمى النفس المسوّلة ، وصاحبها ممن قال الله تعالى فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) فأمرُ هذا العبد من حيث مواظبته على الطاعات فيه رجاء ، عسى الله أن يتوب عليه ، كما أنه فى خطر أيضاً لتسويفه التوبة وتأخيره إياها ، فربما اختطفه الموت قبل التوبة ، وحينئذ يقع أمرُه تحت المشيئة . فإن تداركه الله بفضله وامتنّ عليه بالتوبة عن هذه المعصية الواحدة أو المعصيتين اللتين قويت شهوتهما عليه ، التحق بأصحاب الطبقتين السابقتين ، أما إن غلبته شقوته وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحقّ عليه سوء الخاتمة ، لأن تأخير التوبة من علامات الخذلان

— الطبقة الرابعة — أن يتوب العبد ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم يعود لارتكاب الذنوب كما كان من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يندم على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته ، فهذا يدخل فى جملة المصرّين على ارتكاب الذنوب ، ونفسه هى النفس الأمارة بالسوء الفرّارة من الخير ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله تعالى ، فان خُتم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن خُتم له بالحسنى أى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، وقد يجوز أن يشمله عموم العفو لسبب لا يعلمه ، قال تعالى (يُدخل من يشاء فى رحمته) أما طلب المغفرة بلا عمل فهو كمن يطلب الكنوز فى الأماكن الخربة ، وكمن يطلب تعلّم العلم من الملائكة وهذا محال . بل يا ليت من اجتهد تعلّم ، ويا ليت من اتّجر ربح ، ويا ليت من صام وصلى غُفر له . بل الأمر أعظم وأدهى ، وأمر الخلائق بيد الخالق سبحانه وتعالى ، فالناس كلهم هلكى إلا العالِمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن الانسان الذى يُخرّب بيته ويضيّع ماله ، ويترك نفسه وعياله جياعا ويزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض فى بيته الخرب ، هذا الانسان يُعد من الحمقى المغرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل بالنسبة لقدرة الله تعالى ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى ، وهو مقصّر عن الطاعة ، مصرّ على ارتكاب الذنوب ، غير سالك لطريق المغفرة ، هذا الانسان يُعد فى نظر العارفين من المعتوهين ، والعجب من هذا المعتوه حينما يروّج حماقته وتقصيره

فى الطاعات فيقول إن الله كريم ، وجنته واسعة فلا تضيق بمثلى ، ومعصيتى ليست تضره ثم تراه يسعى جهـــده للحصول على درهم ، ويكد ويتعب فى طلب الرزق بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، وإذا قيل له إن الله كريم وخزائنه مملوءة بالدراهم ، ولو أرحت نفسك وجلست فى منزلك عساه أن يرزقك من حيث لا تحتسب ، فيستحمق من يقول له هذا الكلام ويستهزىء به ، ويقول إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولا بد من السعى للحصول على الكسب ، فلماذا عرف وتحقق أن كسب الدنيـــا لا يُنال إلا بالعمل والسعى فيعمل ويسعى . ولماذا لا يعمل ويسعى لكسب ثواب الآخرة . هل تحقق أن الله كريم فى الآخرة وليس كريماً فى الدنيا . هذا منتهى الحمق وشدة الجهل والغباوة ، فالله جلّ شأنه كريم فى الدارين . نعم إن المعصية لا تضره والطاعة لا تنفعه ، والأمر كله فضل منه على عباده ، ولكنه سبحانه وتعالى أمرنا بالعمل وقال (وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولهُ) فمن نفذ الأمر فقد أطاع، ومن لم ينفذ فقد عصى ، وما أشد حمقاً ممن يطلب المغفرة ممن خالفه ، ويطمع فى عفو من عصاه . أفيقوا أيها الناس من غفلتكم ، واعلموا تحقيقاً أننا خلقنا لعبادة الله عز وجل ، وفى هذا الطريق وحده يتنافس المتنافسون ويعمل العاملون ، ولا مجال للتنافس ولا وقت للعمل إلا ما بقى من العمر — نسأل الله أن يهدينا جميعاً لما فيه خير الدارين .

باب فى دواء التوبة وطريق العلاج

الناس فى هذا الباب قسمان — القسم الأول — شاب لا صبوة له ، أى غير ميال لارتكاب الذنوب بطبيعته، نشأ على الخير واجتناب الشر ،وهذا الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعجب ربك من شاب ليس له صبوة) (أحمد وطب) وقال عليه السلام (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) (ق) وهذا النوع نادر

عزيز — القسم الثانى — هم الذين لا يخلون من ارتكاب الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مُصرّين وإلى تائبين . وغرضنا هنا أن نبين علاج حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه فنقول — إن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ، والدواء عبارة عن معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، فالعلم والصبر هما علاج القلب من مرض الاصرار الذى حلّ به أما خاصية العلم فى ذلك فنوضحه فيما يأتى — أولا إيمان العبد بأصل الشرع فلا بد من ذلك — ثانياً العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا ريب — ثالثاً — أن يستمع إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب ، وأن يصدق بجميع ما يُلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك ولا ريب ، حتى ينبعث فى قلبه الخوف المقوِّى على الصبر الذى هو الركن الثانى فى العلاج — رابعاً — أن يعلم أن كل عبد ليس يُبتلى بكل شهوة وبارتكاب كلّ ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ، ففى هذه الحالة يحتاج إلى العلم بما ابتلى به من الذنوب ، ثم يحتاج إلى العلم أيضاً بآفات هذه الذنوب وأضرارها ، ثم العلم بالكيفية التى يتوصل بها إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها ، فالعاصى متى علم بعصيانه وجب عليه طلب العلاج من الطبيب ، أما إذا كان لايدرى أن ما ارتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يُعرّفه ذلك ، لأن العلماء هم الأطباء وهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء صلوات الله عليهم ماتركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا يجمعونهم فى مجالسهم ويرشدونهم إلى ما فيه صلاح دينهم ، فأصبح لزاماً على العلماء أن يعلموا الناس أمور دينهم ، وأن يكثروا من الاجتماع بهم والتحدث إليهم فيما يحتاجون إليه ، لافصاح ما غمض عليهم فى أمور الدين ، لأن الخلق لا يولدون إلا جهّالا فلا بدّ من تعليمهم وإرشادهم وإبلاغ الدعوة إليهم ، واعلم أن الدنيا دار المرض ، إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميّت ، ولا على ظهرها إلا سقيم ، وأن مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وقد خفى ذلك علينا لثلاث علل — إحداها أن المريض بالقلب لا يدرى أنه مريض — والثانية — أن عاقبة مرض القلب غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر منه الطباع ، أما عاقبة مرض القلب فهو

اكتساب الذنوب وهذا غير مشاهد فى هذه الدار — الثالثة — وهو الداء العضال، هو فقدان الأطباء وهم العلماء، فقد مرضواهم أنفسهم فى هذا الزمن، إلا من عصم الله وعجزوا عن معالجة أنفسهم، وذلك بسبب انهماكهم فى حب الدنيا، وحب الدنيا هو الداء المهلك وهو البحر الذى غرق فيه جميع الخلق، ولكننا قد أصبحنا والحمد لله فى زمان كثر فيه وعاظ الدين، وأخذوا يجتمعون بعوامّ المسلمين، ودأبوا على نصحهم وإرشادهم، ومما قرأناه فى كتب السلف مما يستحب أن يسلكه الواعظ فى وعظه ما نلخصه فيما يأتى:

أولا — أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ويسمعهم ما ورد من الأحاديث وما جاء فى الآثار، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار) (ق)، وفى قول مجاهد — القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها، فيسدُّ على القلب، فذلك هو الطبع — قال الله تعالى (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) وقال الحسن، إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصى معلوماً، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه، فلم يوفقه بعدها لخير — والأخبار والآثار الواردة فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى، فينبغى أن يستكثر منها.

ثانياً — سماع حكايات الأنبياء والسلف الصالح وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع للمصرّين على المعاصى، ونافع فى تحريك دواعى التوبة، وشاف للقلوب من مرض الاصرار.

ثالثاً — وعلى الواعظ أن يقرر للناس أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع بسبب الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب ذنوبه، فينبغى أن تخاف من الذنوب التى يتعجل فى الدنيا شؤمها، ويعرفهم أنه قد يضيّق على العبد رزقه بسبب ذنوبه، وقد تسقط منزلته من القلوب، وينتصر عليه أعداؤه، قال عليه الصلاة والسلام (إن العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه) (هـ) وقال بعض السلف

ليست اللعنة سواداً فى الوجه ونقصاناً فى المال ، إنما اللعنة ألا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه . وعندئذ يبعد العبد عن استماع النصائح ويحرم فائدة العمل بها ، وهذا هو تعجيل العقوبة فى الدنيا .

رابعاً — أن يجعل الواعظ موعظته خاصة بذكر العقوبات الواردة فى الذنب الذى يعلم أن مجالسيه يأتونه . بأن يذكر عقوبة شرب الخمر لمن يعلم أنهم يشربون الخمر ، وعقوبة الزنا لمن يعلم أنهم يرتكبون معصية الزنا ، وعقوبة السرقة للصوص وعقوبة القتل للأشرار ، وهكذا بحيث يكون الدواء مطابقاً للداء حتى يحصل الشفاء ، وذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال له رجل أوصنى يارسول الله ولا تكثر علىّ فقال له (لاتغضب) (خ) وقال له آخر أوصنى يارسول الله ، فقال له (عليك باليأس مما فى أيدى الناس فان ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع وإياك ومايعتذر منه) (ه) فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول علامات الغضب فنهاه عنه ، وفى السائل الآخر علامات الطمع فى الناس وطول الأمل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها ، أن أكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت اليه — من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك — أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤنةَ الناس ، ومن التمس سخطَ الله برضا الناس وكّله اللهُ إلى الناس) (ت) والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون فيمن وُلى على أمر العباد وكان حاكما فيهم . وعلى ذلك يجب على الواعظ أن يتفرس فى الصفات الخفيّة ، ليكون وعظه مطابقاً للأحوال وعلاجه شافياً للقلوب ، لأنه إذا كان طب الطبيب هو الخطوة الأولى لعلاج المريض ، فكذلك طب العلماء هو أول علاج العاصين والجهلاء . هذا أحد أركان العلاج وأصوله .

الركن الثانى — وهو الصبر فينبغى على العبد أن يتحمل ألم الصبر فى قمع شهوته ، خوفاً من نتائجها وما تجلبه عليه من الوبال والخسران ، فلا بدّ إذاً من أن يذوق مرارة الصبر ، وليعلم أن مرارة الصبر فى الدنيا لانسبة بينها وبين حرّ النار فى الآخرة فالشاب العاصى مثلا إذا غلبته الشهوة ، وصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ

قلبه ولا حفظ جوارحه من السعي وراء شهوته ، ينبغي عليه أن يستشعر ما يعود عليه من ضرر هذا الذنب ، ويتذكر المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فاذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة لشهوته .
واعلم أن سبب هياج الشهوة هو النظر إلى المشتهى اليه والقرب منه . فعلاج ذلك الهرب والعزلة عنه ، فمثلا إذا كان يصادفك فى طريق عملك منظر يهيج عندك شهوة توقعك فى الذنب ، أو يحصل ذلك عند جلوسك فى الطرقات العامة ، فاترك ذلك الطريق واسلك طريقاً آخر ، واعتزل الجلوس فى الطرقات العامة تسلم . أما السبب الداخلى هو تناول لذائذ الأطعمة وملء البطن منها ، وعلاج ذلك هو ترك اللذيذ من الطعام والركون إلى الصوم والجوع وكل ذلك لا يتم إلا بصبر شديد ولا يكون الصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف العبد إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وتفكير وعن سماع وتقليد — فالواجب على العبد فى أول أمره أى متى عقد نية التوبه ، أن يحضر مجالس العلماء ويستمع لنصائحهم بقلب فارغ عن سائر الشواغل الدنيوية ، منصرف إلى التفكير فيما قد يلقى اليه ، ليتم الفهم وينبعث فى قلبه الخوف ، ومتى انبعث الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك ، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف واتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، فلا يغنى عنه حينئذ ما اشتغل به من ملاذ الدنيا متى هلك وتردّى ، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى.
واعلم أنه لوقوع العبد فى الذنوب أمور — أحدها — أن العقاب الموعود فى الآخرة غيب ليس بحاضر ، والنفس جُبلت على التأثر بالحاضر — الثانى — أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة فى الحال ، وقد اعتادها مرتكبها وألفها فأصبحت عادة ، والنزوع عن شهوة حاضرة خوفاً من عقوبة آجلة شديد على النفس ولذلك قال الله تعالى (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) وقد عبر عن شدة الأمر وصعوبته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) (ق)

الثالث — أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة ، وتكفير السيئات بالحسنات ، إلا أن طول الأمل غالب على طبعه ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير — الرابع — أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو يعتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها ، ولذلك فهو يُذنب وينتظر العفو من الله عن ذنبه ، ارتكاناً على فضل الله تعالى . فهذه أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان — وهناك سبب آخر قد يقدح فى أصل الايمان ، وهو أن العبد يقدِم على الذنب لأنه شاكّ فى صدق الرسل وهذا هو الكفر . أما علاج هذه الأسباب الخمسة فهوالفكر ، وذلك بأن يقرر العبد فى نفسه فى السبب الأول ، وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت ، وأن الموت أقرب اليه من كل قريب ، فما يدريه لعل أجله قد انتهى ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى أيام قلائل لا تصفو فيها لذة فكيف أقدر على فوات لذات الجنة أبد الآباد وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر عن الشهوات فكيف أطيق ألم النار .

وأما تسويف التوبة فيعالج بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوف يبنى الأمر على ما ليس فى استطاعته وهو البقاء فلعله لا يبقى ، وإن بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعرى هل عجز عن التوبة فى الحال إلا لأن الشهوه قد غلبت عليه ، وأن الشهوة لا تفارقه غداً ، بل تتضاعف وتتغلغل أصولها عنده بالمداومة — فاعلم أيها العبد أن الأيام متشابهة ، وترك الشهوة عمل شاق حقيقة ، ولذلك كان ثوابه نعيم الأبد وهو نعيم لا يمكن وصفه ، لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر ، فالذى يؤخّر التوبة مثاله مثال من أراد أن يقتلع شجرة فرآها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة ، فقال أؤخرها سنة ثم أعود اليها فأقلعها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها فى الأرض ، وكلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته —

وأما علاج السبب الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه كما سبق ، وهو أنه لاجزاء إلا على عمل ، وهو ما أمرنا به ، وغير ذلك فهو أيضاً حماقة وجهل — وأما السبب الخامس وهو الشك فهذا كفر والعياذ بالله ، وعلاجه أن يقرر العبد أولا

صدق الرسل فيما جاءوا به بدون أدنى شك أو ريب ، وعليه أن يصدق كافة الأولياء والعلماء فيما أوردوه ، وعليه أن يؤمن باليوم الآخر ، ويؤمن بأن هنـــاك ثواباً وعقاباً ، وليقرر فى نفسه أنه إذا تمادى فى الذنوب فمصيره إلى عذاب يبقى ماشاء الله — ولنعلم أن فى التوبة عن المعاصى والاقبال على الطاعات تلذّذاً بمناجاة الله تعالى ، واستراحاة للقلب بمعرفته واطمئنانا بذكره وفرحاً بطاعته وسروراً بطول الأنس به فلو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وسرور المناجاة لكان ذلك كافياً ، فكيف بما يضاف اليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ولكنها تحصل بعد ما يصبر العبد على التوبة مدة حتى يصبح الخير عادة للنفس . كما كان الشر عادة لها من قبل — فالنفس قابلة للتهذيب فمتى عودتها تتعوَّد . فكل هذه الأفكار مهيجة للخوف ، والخوف مهيج لقوة الصبر عن اللذات ، وباعث هذه الأفكار هو وعظ الواعظين وقراءة أخبار الصالحين ، فقد ينبعث من ذلك تنبهات تقع للقلب فيميل القلب إلى الفكر ومتى أصبح القلب ميالا للفكر فقد أصبح الفكر موافقاً للطبع ، والسبب الذى أوجد الموافقة بين الفكر والطبع هو التوفيق لفعل الخير لأن التوفيق هو التأليف بين الارادة وبين الطاعة النافعة فى الآخرة — نكتفى بهذا ونسأل الله تعالى أن يكون ما ذكرناه فى هذا الباب كافياً لأن نسرع بالتوبة خوفاً من مفاجأة الموت ، أما إذا طال الأجل فليكن عملنا التكفير عما مضى من الذنوب ، والله يقبل التوبة ويعفو عن العباد .

باب فى طريقة التكفير عن الذنوب

قد عرفت أن التوبة عبارة عن الندم ، وهذا الندم أوجده علمك بأن المعاصى كانت سبباً حائلا بينك وبين الله تعالى ، والندم عبارة عن توجع القلب عند شعوره بحرمانه بفوات محبوبه ، وعلامة ذلك طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع ، وكيف لا يكون ذلك فى حال الندم على الذنوب ، وأنت إذا نزلت بولدك مصيبة أو ببعض أعزائك طال عليه بكاؤك ، فأى عزيز أعز عليك من نفسك ، وأى مصيبة أشد من النار ، وأى شيء أدل على عذاب النار من ارتكاب الذنوب ، وأى مخبر

أصدق من الله ورسوله (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) واعلم أنه كلما كان ألم الندم أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، قال عليه الصلاة والسلام (جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب) (ابن أبى الدنيا) ومن علامات الندم أيضاً أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلب العبد بدلا من حلاوتها ، فتحل الكراهية محل الميل ، فعلى التائب أن يترك فى الحال كل معصية وينسى قلبه لذتها ويلازم كل طاعة حتى يألفها ويداوم على ذلك إلى الممات ، أما طريقة التكفير عن المعاصى فعليه أن يرجع بذاكرته إلى أول يوم بلغ فيه ويفتش ما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى أتاه منها . فأما الطاعات فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله فعليه قضاؤها عن آخرها فإن شك فى عدد ما فاته منها يحسب من وقت بلوغه ويترك المدة التى تيقن أنه أداها صحيحة ويقضى الباقى ، وله أن يأخذ بغالب الظن وما وصل اليه على سبيل التحرى والاجتهاد — وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسى النية بالليل ولم يسبق له القضاء عليه أن يتحرى ذلك بالاجتهاد ويقوم بقضائه . وأما الزكاة فيحسب جميع أمواله وعدد السنين من أول حيازته لها لا من زمان البلوغ ، لأن الزكاة واجبة فى مال الطفل ، ويؤدى ما فى ذمته ، وشرح واجبات الزكاة يطول ، فعلى التائب أن يسأل عن ذلك العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن عند التوبة صار مفلساً لا مال عنده ، فعليه أن يعمل على ألا تفوته هذه الفريضة قبل أن ينقضى عمره ليحظى بما أعده الله له من الأجر

وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول يوم بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويجعل لنفسه كتاباً يثبت فيه معاصيه صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها واحدة واحدة فما كان منها بينه وبين الله تعالى من حيث لا تتعلق بمظلمة العباد كأن نظر إلى غير محرم أو مس مصحفاً بغير وضوء أو شرب خمراً أو سمع الأغانى أو غشى محلات الملاهى وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم ، والتكفير عنها يكون بأن يحسب مقدارها ومدتها ويأتى عن كل معصية

بحسنة تناسبها ، أى أنه يأتى من الحسنات بقدر هذه السيئات أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم (إتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) (ت) ومن قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) فمثلا يكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر والعلم ويكفر مس المصحف محدثاً باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن فيه وكثرة تقبيله ، أو يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال ، وبيان جميع المعاصى غير ممكن ، وإنما نقول إن كل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية لايمحوها إلا نور يرتفع إليه بحسنة تكون مضادة لهذه السيئة ، وهذه الطريقة أرجى للتكفير وأقرب من أن يواظب العبد على نوع واحد من العبادة — واعلم أن كل هم أوحزن يصيب المسلم فهو كفارة لذنوبه . هذا حكم مابينه وبين الله تعالى — أما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حقوق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد ، فما يتعلق منه بحقوق المولى سبحانه وتعالى فكفارته الندم والحسرة وترك مثله فى المستقبل كما تقدم . أما ما يتعلق بحقوق العباد فيكفر إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر اغتصاب أموالهم بالتصدق بمال من ملكه الحلال ، ويكفر الطعن فى أعراضهم والغيبة والقدح فيهم بكثرة الاستغفار لهم لقول النبى صلى الله عليه وسلم (كفارة من اغتبته أن تستغفر له) (ابن أبى الدنيا) وذلك إن كان غائباً أو ميتاً . أما إذا كان حياً فالأولى استحلالها لقوله عليه الصلاة والسلام (من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عِرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولادرهم إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته) (ق) هذا إن أمكن ، وإلا فليكثر من الثناء على أهل الدين وذكر حسناتهم وخيراتهم . ويكفر قتل النفس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء ، وبهذا تعرف أن ماذكرناه من إتيان الحسنات المضادة للسيئات مطابق للشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة فإن قتل نفساً خطأ فكفارته تسليم الدية ، وإن كان القتل عمداً موجباً للقصاص فعليه أن يذهب لولى الدم ويحكمه فى نفسه فإن شاء قتله وإن شاء عفا عنه ، ولا تسقط عنه الخطيئة إلا بهذا ، أما إذا زنا أو سرق أو ارتكب مايجب عليه فيه حد الله تعالى فلا يلزمه عند التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستر الله عليه ،

بل يجب أن يقيم حد الله تعالى على نفسه بأن يجتهد فى أنواع الطاعات ويديم تأنيب نفسه ويتعبها فى الطاعات فان عفو الله قريب من التائبين النادمين . أما إذا رفع أمره إلى الحاكم الشرعى ليقيم عليه الحـــد فإن توبته تكون صحيحة مقبولة بدليل ماوقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ، فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إنى قد زنيت ، فرده الثانية ، فلما كان فى الثالثة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم) (م) وجاءت امرأة تسمى الغامدية فقالت يارسول الله إنى قد زنيت فطهرنى ، فردها ، فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردنى لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك ، فوالله إنى لحبلى ، فقال صلى الله عليه وسلم (أما الآن فاذهبى حتى تضعى) فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت هذا قد ولدته ، قال (إذهبى فأرضعيه حتى تفطميه) فلماذا فطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز فقالت يارسول الله إنى قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضَّح الدم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال (مهلا يا خالد فو الذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له) (م) ثم أمر بها فصلى عليها . ودفنت . وأما التكفير عن المال المأخوذ غصباً أو خيانة أو غبن فى معاملة أو غش فى بيع ، كترويج الزائف أو ستر عيب فى البضاعة ، أو نقص فى الكيل والميزان ، ونقص أجرة الأجير ، أو ضياع أجرته ، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه من أول حياته لا من وقت البلوغ ويحاسب نفسه عليها قبل أن يحاسب فى القيامة على الحبات والدوانق ، فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه . فان قلت إن هذا غير ممكن ، فأقول أن يكون هذا الحصر بنوع الاجتهاد وكل ما أمكن حصره يدونه فى كتاب عنده بأن يكتب أسامى أصحاب المظالم والحقوق واحداً واحداً وأن

يرد ماعليه أو يستحل أصحابها ، ولكن هذا النوع من التوبة قد يصعب على الذين ظلموا كثيراً وبالأخص التجار فانهم لايقدرون على طلب جميع أرباب الحقوق ، ولا معرفة ورثتهم ، فان عجز الظالم أو التاجر بعد الاجتهاد عن الحصر فعليه أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة ، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه إن لم تف حسناته برد المظالم يوم القيامة هلك بسبب سيئات غيره . هذا طريق التكفير الذى يلزم كل تائب ، وهذا يستغرق العمر كله فى الحسنات إن طال العمر ، فكيف وأن العمر مجهول ، فيجب الاجتهاد فى الطاعات والحسنات من الآن لعل الأجل قريب. هذا فى رد المظالم الثابتة فى ذمته ، أما فى ماله الحاضر فعليه أن يرد كل شىء لأربابه ، وإذا لم يعرف له صاحباً فعليه أن يتصدق به جميعه ، فإن اختلط المال الحلال بالحرام فعليه أن يتحرى مقدار الحرام بالاجتهاد ويتصدق بقيمته ، وعلى التائب أن يتخلص من ذنوبه فى هذه الدنيا ، وسيحكم أحكم الحاكمين بين الخلق فى صعيد القيامة . واعلم أن رحمة ربك قريب من التائبين الذين يعزمون عقدة التوبة بقلوبهم ثم يدركهم الموت ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه ، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ، قال لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ، قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ، إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلا بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم ، فقال قيسوا مابين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة) وفى رواية أخرى (فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من

أهلها) وفى رواية (فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا مابينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفرله) (ق) فبهذا تعرف أنه لاخلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة ، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات . هذا حكم الماضى ، وأما المستقبل فيجب على العبد أن يعقد مع الله عقداً مؤكدا ويعاهده عهدا وثيقاً أن لا يعود إلى الذنوب أبدا . واعلم هدانا وهداك الله أن ذلك لايتم فى أول التوبة إلا بالعزلة عن الناس وإحراز القوت الحلال ، فان كان له مال حلال أو كانت له حرفة أو مورد رزق يكتسب منه قدر الكفاية فليقتصر عليه ولا يتحايل فى الكسب تحايلا يوقعه فى الحرام أوالشبهات ، لأن رأس المعاصى أكل الحرام . قال بعض الصالحين من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يَعُد إليه أبدا . ومن مهمَّات التائب إذا لم يكن عالماً بأمور الدين أن يتعلم مايجب عليه فعله ومايجب عليه تركه فى المستقبل حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يفضِّل العزلة عن الناس على الاختلاط بهم لم تتم له الإستقامة المطلقة . وقبل أن أختم هذا الباب ولمناسبة ماذكرناه من أمر الرجل والمرأة اللذين جاءا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين عن معصية الزنا فرجما حتى ماتا — أذكر الواقعة التالية ليكون المسلم على بصيرة من أمر دينه — جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس ، فاقض على بحكم الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم (أو ماصليت معنا صلاة الغداة) قال بلى (يعنى صلاة الصبح) . فقال صلى الله عليه وسلم (إن الحسنات يذهبن السيئات) (ق) ورواه (م) من حديث أنس بلفظ (هل حضرت معنا الصلاة) قال نعم . ورواه أبو أمامة بلفظ (ثم شهدت معنا الصلاة) قال نعم . فهذا يدل على أن مادون الزنا من مخالطة النساء صغيرة ، حيث جعل عليه السلام ، الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم (الصلاة الخمس كفارات لما بينهن إن اجتنبت الكبائر) (م) ولا شك أن من واظب على إقامة الصلاة الخمس فى أوقاتها بتمام شروطها وكمال صحتها ، كانت له كفارات للصغائر ، بل من حافظ عليها نهته عن الفحشاء والمنكر ، وحجزته عن الكبائر والصغائر . قال رب العالمين وهو أصدق القائلين (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وفقنا الله وإياكم لإقامتها ونفعنا ببركتها ، كما نسأله تعالى أن يكفر عنا مامضى ويحفظنا فيما بقى .

باب فى وجوب المبادرة إلى العمل

نضرب لك أيها القارىء الكريم مثلا للحث على المبادرة إلى العمل الصالح فنقول :
إذا كان لك أخان غائبان وتنتظر قدوم أحدهما فى الغد وتنتظر قدوم الآخر بعد سنة فانك بلا شك لا تستعد للقاء الذى يحضر بعد سنة ، وإنما تستعد للقاء الذى تنتظر قدومه فى الغد . فالاستعداد حينئذ نتيجة قرب الإنتظار . فالذى يتوهم أن الموت لا يأتيه إلا بعد سنة فهو يهمل فى الإستعداد له ، ثم يصبح كل يوم وهو معتقد أن أمامه سنة كاملة فلا يحذف منها اليوم الذى مضى ، وهذا الإعتقاد يمنعه من المبادرة إلى العمل وهذا غاية الجهل . قال صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه (اغتنم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)(ابن أبى الدنيا) وقال عليه الصلاة والسلام (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ) (خ) أى أنه لا يغتنمهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالها ، وقال عمر رضى الله عنه — التؤدة فى كل شىء خير ، إلا فى أعمال الخير للآخرة — وكان الحسن يقول فى موعظته . المبادرة المبادرة فانما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى عدد ذنوبه ، ثم قرأ هذه الآية (إنما نعد لهم عدا) يعنى الأنفاس . وقال ابن مسعود — ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة . فلنبادر إلى العمل الصالح قبل أن يُعجزنا الموت عن العمل .

باب فى بيان أسباب طول الأمل وفضيلة قصر الأمل

إعلم أن طول الأمل فى الحياة له سببان — أحدهما الجهل — والآخر حب الدنيا — أما حب الدنيا فإنه متى أنس بها وبشهواتها ولذاتها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها . وبالطبع كل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه دائما بما يوافق مراده ، والذى يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهم طول الأجل ويقدره فلا يفكر إلا فى عوامل البقاء وما يحتاج إليه من مال وعقار ودواب وسائر أسباب

الدنيا فيصير قلبه مشغولا بهذا الفكر فيلهو عن ذكر الموت ، فان خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الإستعداد له سوّف وقال الأيام مقبلة ، فيؤجل التوبة إلى أن يكبر ، فإذا كبر قال لما تصير شيخاً ، فاذا صار شيخاً قال لماتفرغ من بناء الدار ، أو بعد أن يكبر ولدك وتدخر له من المال ما يكفيه وتزوجه ، فلا يزال يسوف ويؤخر التوبة وأعمال الطاعات ، فلا ينتهى من عمل حتى ينشغل بعمل آخر وهكذا يؤخر يوماً بعد يوم وتلهيه الأمانى الكاذبة حتى يختطفه الموت فى وقت لا يعلمه فتطول عند ذلك حسرته ويشتد ندمه ، ولكن هيهات هيهات فلاينفع الندم . وهذه المصيبة سببها التعلق بالدنيا الفانية والغفلة عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (أحبب من أحببت فانك مفارقه) (ق)

وأما الجهل فان الإنسان يعوّل على شبابه ودوام صحته وعافيته فيستبعد قرب الموت مع هذا الشباب وهذه الصحة ، وقد نسى هذا المغرور أن الموت ليس له وقت مخصوص فلا تمنعه صحة وعافية . فالجهل بهذه الأمور هو الذى دعاه إلى هذه الغفلة عن الموت وانتظار وقوعه فجأة فى أى وقت ، كما هو مشاهد كل يوم فهو يظن أنه يشيع جنازات الغير ولا يأتى يوم يشيعون فيه جنازته وهذا منتهى الجهل . نسأل الله أن يرزقنا بغض الدنيا وعدم التعلق بها حتى نستعد للموت ولقاء الله تعالى ويقصر أملنا فى الحياة وأن يرينا الدنيا كما أراها للصالحين من عباده .

أما فضيلة قصر الأمل فى الحياة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن عمر (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فانك ياعبدالله لاتدرى ما إسمك غداً) (حب) وقال عليه الصلاة والسلام (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل) (ابن أبى الدنيا) وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكلكم يحب أن يدخل الجنة) قالوا نعم يارسول الله ، قال (قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء) (ابن أبي الدنيا) . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه ، ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى ، مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدرى

أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى ، فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الله ، ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بى أو إلى النار . وقال عيسى عليه السلام – لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فسيأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم .

باب فى علامات ظهور الفتن والنجاة منها

روى البخارى عن الزبير بن عدى قال أتينا أنس بن مالك فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج بن يوسف الثقفى . فقال اصبروا فانه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم . سمعت ذلك من نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج) قالوا يا رسول الله وما الهرج . قال (القتل القتل) – قال العلماء ومعنى (يتقارب الزمان) أى تقصر الأعمار وتقل البركة فيها . وقيل المراد قصر مدة الأيام كما يدل عليه حديث (إن الزمان يتقارب حتى تكون السنة كالشهر . والشهر كالجمعة . والجمعة كاليوم . واليوم كالساعة والساعة كاحتراق السعفة) (ت) ومعنى (يلقى الشح) أى تتواصى الناس به ويدعون اليه ويتعلمونه .

وروى ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتى فيغربل الناس فيه غربلة . يبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا) وشبك بين أصابعه . فقالوا كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك الزمان قال (تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون وتقبلون على خاصتكم وتذرون عامتكم) وروى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم (إنكم فى زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك . وسيأتى على الناس زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا) وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حثالة كحثالة الشعير والتمر لا يعبأ الله بهم) أحسن الله أفعالنا ونجانا وإياكم من شر الفتن .

باب فى بيان حقيقة الكمال

إعلم أنه لا كمال بعد التفرد بالوجود إلا فى العلم ، وكمال العلم لايكون إلا لله سبحانه وتعالى من حيث كثرة المعلومات وإحاطته بها . فكلما كثرت معلومات العبد كان أقرب إلى الله تعالى ، وكما أن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهى عليه ، فكذلك كلما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم، كان أقرب إلى مولاه ، وبما أن علم الله عز وجل باق لايتغير ولا يزول أبد الآباد ، فكذلك إذا كان علم العبد بالمعلومات لايقبل التغيير والانقلاب ، كان أقرب إلى الله تعالى — وليعلم العبد أن معرفته بالله تعالى وعلمه بصفاته وأفعاله وحكمه فى ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيق ، ويقرب من اتصف به من الله تعالى ، وكذلك يبقى كمالا للنفس بعدالموت ، فتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا) . أى أن هذه المعرفة تكون رأس مال يوصل العبد إلى كشف مالم ينكشف له فى الدنيا ، مثل رجل فى بيته قبس من النور فيمكنه إتمام نور بيته من هذا القبس متى أراد . ومن لم يكن فى بيته هذا القبس الذى هو أصل النور فلا يمكنه إضاءة بيته ويبقى فى ظلمة شديدة . أى فمن ليس له أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، فالكمال الحقيق إذاً هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، والعمل بما يقرب العبد من مولاه . أما غير ذلك من العلوم والمعارف والأعمال التى لاتوصل العبد للسعادة الأخروية ، فهى من مظاهر الحياة الدنيا وليست من الكمال فى شىء .

باب فى بيان حقيقة النعم وأقسامها

مما لاشك فيه أن إحصاء نعم الله تعالى على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى (وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها) ولكننا نذكر منها مايجرى مجرى الأصول فى معرفة النعم فنقول :

إعلم أن كل خير ولذة وسعادة يسمى نعمة . ولكن النعمة الحقيقية هى السعادة

الأخروية ، وتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة نعمة فهو غلط محض . أما الأسباب التى توصل إلى سعادة الآخرة فهى كلها نعم ، ولبيان ذلك أمور — أولا — الشيء النافع فى الدنيا والآخرة هو النعمة العظمى ، كالعلم بالله تعالى وحسن الخلق ، والشيء الضار فى الدنيا والآخرة هو البلاء المبين ، كالجهل وسوء الخلق . والشيء النافع فى الدنيا ومضر فى الآخرة بلاء محض ؛ كالتلذذ بالشهوات ، والشيء الضار فى الدنيا ونافع فى الآخرة نعمة عند ذوى العقول ، وبلاء عند الجهال ، وهو قمع الشهوات ومخالفة النفس — ثانياً — قلنا ان كل لذيذ يعتبر نعمة ، واللذات بالنسبة للإنسان قسمان ، عقلية وبدنية — أما العقلية فهى لذة العلم والحكمة وهى أشرف النعم لأنها لاتزول أبداً لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يشارك الانسان فيها مخلوق آخر — وأما البدنية فهى نوعان — الأول — لذة البطن والفرج ، وهى لذة يشارك الانسان فيها جميع الحيوانات حتى الديدان والحشرات والكلاب والخنازير ، وهى أخس اللذات وأحقرها — الثانى — لذة حب الرئاسة والانتقام والغلبة والاستيلاء على الخلق وعلى حطام الدنيا ، وهذه لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كالأسد والنمر وغيرهما — فلذة العلم إذا أنتجت العلم بالله وبصفاته وأفعاله تجعل صاحبها فى رتبة الصديقين ، وحينئذ يخرج من قلبه كل شيء فلا يرى فى الوجود نعمة أعظم من هذه لأنها توصله إلى السعادة فى الآخرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاعيش إلا عيش الآخرة) (ق) وقال رجل اللهم انى أسألك تمام النعمة ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام (وهل تعلم ماتمام النعمة) قال لا . قال (تمام النعمة دخول الجنة) (ت) . أما المال فهو لايكون نعمة إلا إذا كان عوناً لصاحبه على طلب الآخرة ؛ قال عليه الصلاو والسلام (نعم العون على تقوى الله المال) (أبو منصور) أما إذا استعمل فى ملاذ الدنيا فهو سم يقتل صاحبه . فمثال المال مثال الحية فيه ترياق نافع ، وسم ناقع ، أعنى لايذم المال إلا إذا استعمل فى الملاذ الدنيوية أو أمسكه صاحبه ولم يتصدق به ، فى هذه الحالة يكون نقمة لانعمة ، ويكفى أن يكوى به فى نار جهنم . أما من أخذ الكفاف ومايحتاج إليه فى اصلاح حياته اصلاحاً مرضياً لاتبذير فيه ، ثم أنفق الفضل بعد ذلك فى أبواب البر والخيرات

ماشاء ، فلا شك أن المال فى هذه الحالة يكون نعمة كبرى حيث يوصله للسعادة الأبدية بعدالسعادة الدنيوية ، وهذا هو المطلوب من نعمة المال — سامح الله أغنياءنا فنهم من اتخذ المال آلة يحاربون بها الإله ، ارتكبوا به المعاصى وألهاهم عن طاعة الله ، فلا حول ولا قوة الا بالله — وهناك نعمة عظيمة وهى نعمة الهداية الى فعل الخيرات ، ولهذه النعمة ثلاث منازل — الأولى— معرفة طريق الخير والشر المشار إليها بقوله تعالى (وهديناه النجدين) وقد أنعم الله بها على كافة عباده ، ولكن منهم من أبصر ومنهم من عمى ، قال تعالى (وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى) فأسباب الهدى اتباع الكتب والرسل وشفاء بصائر القلوب . وأسباب عدم الاهتداء الحسد والكبر وحب الدنيا . وكل ما يعمى القلوب ويمرضها — الهداية الثانية — وهى الهداية الخاصة التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهى ثمرة المجاهدة ، قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهديَنّهم سُبُلنا) — والهداية الثالثة— وهى النور الذى يشرق فى القلب بعد كمال المجاهدة فيهدى صاحبه إلى ما لايهتدى إليه بالعقل ، قال تعالى (أفمن كان ميْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) وقال عز وجل (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) . واعلم أن محاولة وضع بيان شامل لنعم الله تعالى على العباد ، المؤمن منهم والكافر ، والبر والفاجر ، أمر مقطوع بعدم إمكانه ، فلله الكريم الحليم الرؤوف الرحيم على خلقه فضائل ونعم لا تحصى ، مثل نعمة الصحة والعافية ، ونعمة الحواس التى يدرك الانسان بها ما يحتاج اليه فى حياته وغيرها وغيرها . فتعساً لمن كفر بالله تعساً ، وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً .

باب فى بيان نعم الله تعالى فى خلق الإدراكات

من نعم الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلات الحركة لتدرك ما تحتاج اليه فى تقوية بدنك وتنميته ، فانظر إلى ترتيب حكمته تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الادراك ، فأولها حاسة اللمس وقد خلقت لك لتحس بها ما يصيبك فتهرب منه ، وهى موجودة فى كل حيوان حتى الدودة التى فى الطين ،

وخلق لك الشم لتدرك به رائحة الغذاء ، ثم خلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتعرف جهته فتقصده ، ولما كنت لا تبصر إلا الشيء الذى ليس بينك وبينه حجاب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات التى بينك وبينها حجاب ، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حاسة الذوق ، إذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك أنه موافق أو مخالف فتأكله فتهلك ، ثم كل ذلك لا يكفيك أيضاً ، فخلق فى مقدمة دماغك حساً آخر تجمع فيه كل المحسوسات الخمس ولولاه لاشتبه الأمر عليك ، وهو العقل الذى شرفك الله به عن البهائم ، لأن البهائم لا تحس إلا بالحاضر ولا تدرك العواقب ، ولذلك قد تُلقِى نفسها فى بئر فتهلك ، أو تأكل ما تستلذ به فى الحال ويضرها فى المآل ، ويقودها الصبي إلى المجزرة فتدخلها وهى لا تدرى أن فيها حتفها . وأكبر نعمة فى خلق العقل هى معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة فى خلق العالم .

أيها العبد العاجز تأمل فى نعمة الله عليك فى خلق الادراكات ولا تظنن أنه يمكن استيفاء شيء منها ، فانظر إلى حاسة واحدة من الحواس وهى العين ، وقد ركبت من عشر طبقات مختلفة لو اختلفت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر ، وعجز عن إصلاحه الأطباء ، فهذه قدرة الله فى خلق حاسة واحدة ، فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فما أوردناه فهو إشارة فقط والله أعلم .

باب فى بيان نعم الله تعالى فى خلق الارادات

اعلم أنه لو أدركت الطعام ولم يخلق لك ميل اليه ما كنت تنتفع به ، ولكن من نعم الله تعالى عليك أن خلق فيك شهوة الطعام وسلطها عليك فتطالبك بالغذاء ، وخلق أيضاً فيك الكراهة له عند الشبع ، وإلا كنت تأكل حتى تموت . وكما خلق لك الشهوة حتى تأكل ، كذلك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع ، فيبقى نسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله فى خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتكوين الجنين ، وكيفية الأنثيين ، والعروق السالكة فيها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة فى الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى

قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور ، وتقع فى البعض الآخر فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إرادتها فى أطوار خلقها ، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدا خلقك كل العجب ، فضلا عما تراه الآن فى حياتك كلها .

وعلى الجملة فاعلم أن لك فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلكت . وبانقباضه يدخل روح الهواء إلى القلب ، ولو سدّ متنفسه لاحترق وهلكت ، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وفى كل ساعة مايقرب من ألف نفس ، وكل نفس يقرب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف النعم فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم الذى عليه تتوقف حياتك ، فانظر يا ابن آدم هل يتصور إحصاء ذلك . والواقع أن البصير المتأمل لا تقع عينه فى العالم على شىء إلا ويتحقق أن لله تعالى فيه نعمة عليه . فلنترك التفصيل الآن فانه طمع فى غير مطمع . وما علينا إلا أن نتصف بذل العبودية أمام عز الربوبية . ونسأل الله أن يمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وجميع الحواسّ ما دام قد تفضل علينا بها .

باب فى نعم الله تعالى فى خلق الأطعمة

الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى فى خلقها وإنمائها عجائب لا يعلمها إلا هو والأطعمة فى جملتها ، إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . ويهمنا الآن الأغذية لأنها الأصل ولنذكر منها حبة القمح للتمثيل فقط ونترك سائر الأغذية .

إعلم أنه لما كان لابد من إنماء حبة القمح وزيادتها وتضاعفها كى تسد حاجة الخلق جعل الله لنموها أسباباً مثل ماخلق لك ، لأن النبات لا يختلف عن الإنسان إلا فى الحس والحركة ، أما طرق غذائه فهى مثل الإنسان تماماً . بمعنى أنك لو وضعت حبة القمح فى المنزل وتركتها جفت وماتت ، لأنه فى هذه الحالة لا يحيط بها إلا الهواء فقط وهو غير كاف لنموها . وإن وضعتها فى الماء تعطنت وفسدت ، وإن وضعتها فى الأرض ولم يصل اليها الماء أكلتها الأرض وفنيت . لذلك فهى محتاجة فى نموها إلى أن توضع فى أرض مخلخلة يصب عليها الماء وتمزج بالهواء . قال الله تعالى (فلينظر الإنسان

إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً) . ولكن هذا لايكفى أيضاً فى تغذية الحبة وإنمائها فهى محتاجة للحرارة فسلط الله عليها حرارة الشمس . وعلى ذلك فلا يتم إنماء حبة القمح واستواؤها إلا باربعة عوامل ، الماء والطين والهواء والشمس . فاذا فقد عامل منها لا يتم الإنماء . وكل عامل من هذه الأربعة يحتاج إلى عوامل أخرى ، فمثلا الماء يحتاج إلى من يوصله من البحار والأنهار والعيون والآبار إلى مكان الزرع كما يحتاج السحاب المثقل بالماء إلى من يسوقه إلى الأرض المحتاجة اليه . ثم انظر كيف سخر الله الشمس لترسل حرارتها إلى الأرض . ولذلك ترى المكان الذى تظله الأشجار لاينمو نباته ؛ وإن نما لا يثمر ؛ والعجب من الإنسان الذى يفخر بنمو زراعته ويقول لولا جدى واجتهادى ومو الاتى لما نمت ولا جاءت بهذا المحصول ، ثم يغفل عن الأسباب التى سخرها الله تعالى من العوامل الأرضية والسماوية فكانت سبباً للإنماء وجودة المحصول ، وما ذلك إلا لجهله وغفلته ؛ فسبحان من يسر أسباب المطعم والتغذية للمؤمن والكافر ، وبسطها للطائع والفاجر ، فضلا منه وكرماً .

ولما كانت الأطعمة لاتصل اليك من نفسها ، وهى لا توجد فى مكان واحد . بل بينك وبين بعضها بحار وأنهار وبرارى وقفار ، سخر الله تعالى التجار وأمرض قلوبهم بحب المال وسلط عليهم الغفلة حتى قاسوا الشدائد فى طلب الربح وجذب ماتحتاجه من الأطعمة من أقصى الشرق والغرب . وانظر كيف علمهم الله صناعة السفن والركوب فيها . وكذلك خلق الحيوانات وذللها للركوب وحمل الأثقال ، وكل ذلك لجلب الأطعمة اليك ،وأقلها الملح والتوابل التى تحتاج اليها لإصلاح طعامك لتهنأ به . ولولا لطف الله بك لما تهنأت بعيش .

واعلم أن ماينبت من الأرض من الأغذية يحتاج من وقت ظهوره إلى وقت حصاده إلى عوامل كثيرة غير خافية ، ولكننا نشير هنا إلى شىء واحد على سبيل المثال وهو رغيف العيش ، فانظر إلى مايحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من وقت إلقاء البذر فى الأرض . فأول مايحتاج اليه العامل الذى يصلح الأرض ثم الثور الذى يحرث الأرض ، ثم بعد ذلك موالاة الأرض وتنقية الحشائش

وتنظيم الرى ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الأفعال وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التى تستعمل فى ذلك . ثم ما تحتاجه الآلة الواحدة التى تستعمل لغرض واحد من هذه الأغراض . فانظر إلى آلة الطحن مثلا وإلى ما تحتاجه من العدد والعمال فى صنعها وفى إدارتها ، وشرح ذلك لا مطمع فى إحصائه ، وكل من فضل ربك وإلهامه لخلقه فى صنعها لطفاً منه بك . فاذا فتشت يامسكين علمت أن رغيفاً واحداً لا يستدير ويصلح لغذائك مالم يعمل عليه أكثر من ألف عامل . فابتدىء من الملك الذى أرسل السحاب لسقيا الأرض حتى تنتهى إلى خبز الرغيف تجد أن هذه الأطوار سخر الله فيها من الملائكة والبشر مالا يحصيهم إلا الذى خلقهم . هذه أمثلة لأصول الصناعات فقط ، فى صنع رغيف العيش . أما فروعها فلا مطمع فى حصره . فما على العبد إلا أن يطلب من مولاه أن يمنحه العلم والتبصرة .

باب فى نعم الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام

من نعم الله تعالى خلق الملائكة ، وقد خلقها لأغراض لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، منها هداية الأنبياء عليهم السلام وإرشادهم وتبليغ الوحى اليهم . وهم فى كثرة طبقاتهم وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات . الملائكة الأرضية ، والملائكة السماوية ، وحملة العرش . وقد علمت كيف وكلهم الله بك فيما يختص بالأكل والغذاء مما هو مبين فى الباب السابق

واعلم الآن أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يتغذى إلا أن يوكل به من الملائكة ما شاء الله من العدد . وإيضاحا لذلك نقول

إن الغذاء الذى تتغذى به يتلف بعد وقت معين ويستغنى عنه الجسم بعد توزيع خلاصته على جميع الأعضاء الباطنية ، وهذا التوزيع يحصل بالطريقة الآتية :

يصير الغذاء دماً ثم لحماً ثم عظماً وبهذا يتم الاغتذاء . ولكن الدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهى لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها . وإن الطبيعة لا تسكن فى ترددها فى أطوارها . كما أن حبة القمح لا تصير خبزاً بنفسها إلا بصناع

فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروقا وعصباً إلا بصناع . والصناع فى الباطن هم الملائكة كما أن الصناع فى الظاهر هم الخلق . وقد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، فلا ينبغى أن تغفل عن نعمة الباطن .

واعلم أنه لابد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جوارهما ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق والعظم ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ، ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، حتى لا يكون منفصلا . ولا بد من سابع يرعى المقادير فى الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته ، وبالعريض مالا يزيل عرضه ، وبالمجوف مالا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته . فإنه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الطفل مايجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته . بل ينبغى أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظتها وإلى العظم مع صلابته ، مايليق لكل واحد منها ، من حيث القدر والشكل ، وإلا بطلت الصورة وغلظ بعض المواضع وضعف البعض . بل لو لم يراع هذا الملك العدل فى القسمة والتقسيط فى التوزيع . فساق الى رأس الطفل وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به ومنعه عن يد واحدة مثلا . فبقيت تلك اليد كما كانت فى حالة الطفولة ، وكبر جميع البدن وكنت ترى الشخص فى ضخامة الرجل وله يد طفل فلا ينتفع بنفسه البتة . فمراعاة هذه الهندسة فى هذا التقسيم مفوض الى ملك من الملائكة . فلا تظنن أن الدم بطبعة يهندس شكل نفسه . وأن من يحيل هذه الامور على الطبيعة جاهل لايدرى مايقول .

فهذه هى الملائكة الأرضية ، وقد شغلوا بك وأنت نائم مستريح وغافل تلهو وتلعب ؛ بل فى الوقت الذى ترتكب فيه المعصية ، كانوا هم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم ، وذلك فى كل جزء من أجزائك ، حتى أن بعض الأجزاء كالعين والقلب يحتاج إلى أكثر من مائة ملك ولا سبيل لتفصيل ذلك .

واعلم أن الملائكة الأرضية تمدهم الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله سبحانه وتعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش . والمنعم على

جميعهم بالتأييد والهداية والتسديد ، المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، جبار السموات والأرض ، مالك الملك ذو الجلال والاكرام .

والأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحاب ينساق من جانب إلى جانب أكثر من أن تحصى . (من الصحيحين) .

فهذه نعمة الله عليك فى خلق الملائكة الأرضية والسماوية . ومع أن ما ذكر هو نبذة يسيرة من انتفاعك بالملائكة ؛ إلا أنه طبقة أخرى من نعم الله عليك . أما جميع الطبقات لا يمكن احصاؤها .

واعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس ولكل واحد منهم صفة . ولكل واحد منهم فعل لا يتعداه . وإليه الاشارة بقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) ولذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل مثل البشر . فإن الانسان قد يطيع الله مرة ويعصاه مرة ، لاختلاف دواعيه وصفاته ؛ وهذا غير ممكن فى طباع الملائكة ، فهم مجبولون على الطاعة . لا مجال للمعصية فى حقهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فالراكع منهم راكع أبداً . والساجد منهم ساجد أبداً . والقائم منهم قائم أبداً . لا اختلاف فى أفعالهم ، ولا فتور فى تسبيحهم .

اسمع أيها العبد المسكين بعقله ، العاصى ربه بفعله . اسمع وتدبر ما نقول فيما يحصل عند عصيانك لربك فى أقل معصية . وهى النظر إلى ما حرم الله تعالى . فمتى فعل الانسان ذلك فقد كفر بفتح العين نعمة الله فى خلق الاجفان . وبما أن الأجفان لا تقوم إلا بالعين ، والعين لا تقوم الا برأس ؛ ولا الرأس الا بجميع البدن ؛ ولا البدن الا بالغذاء ؛ ولا الغذاء الا بالماء والأرض والهواء ؛ والمطر والغيم ، والشمس والقمر ، ولا يقوم شىء من ذلك الا بالسموات ؛ ولا السموات الا بالملائكة . فإن الكل كالشىء الوحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن ، بعضها ببعض ، فإذاً قد كفر كل نعمة فى الوجود . من أعلى الثريا إلى أسفل الثرى . فلم يبق فلك ولا ملك ، ولا حيوان ولا نبات ولا مائع ولا جماد . الا ويلعنه .

ولذلك ورد فى الأخبار (إن الملائكة يلعنون العصاة) (م) وهذا اشارة إلى

أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها . فيتبدل اللعن بالاستغفار . فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه مغفرة منه وفضلا .

باب فى طلب الحلال والأكل منه

عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (طلب الحلال واجب على كل مسلم) (طب) وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب الحلال فريضة بعد الفريضة) (طب) وعن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من أكل طيباً وعمل فى سنة وأمن الناس بوائقه دخل الجنة) قالوا يارسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير . قال(وسيكون فى قرون بعدى) (ت) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا — حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفة فى طعمة)(أحمد) وقال عليه السلام (طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره . طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله) (طب) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال تُليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به) (طب) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتى فيحمله على ظهره فيأكل خير له من أن يسأل الناس ولأن يأخذ ترابا فيجعله فى فيه خير له من أن يجعل فى فيه ما حرم الله عليه) (أحمد باسناد جيد) .

وقال عليه السلام (يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ أمن الحلال أم من الحرام) (خ) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس

النار قال (الفم والفرج) وسئل عن أكثر مايدخل الناس الجنة قال (تقوى الله وحسن الخلق) (ث) وعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا يدخل الجنة جسد غذى بحرام) (طب وغيره) .

ومن أهم ماتعلمه فى هذا الباب بعد قراءة الأخبار الصحيحة الواردة فيه — إن أعمال الآخرة لا تحصل على يد من أكل الحرام أو الشبهات . لأن من أكل حراما نشأ عنه فعل الحرام . ومن أكل شبهة نشأ عنه فعل الشبهة . حتى لو أراد آكل الحرام أن يطيع الله تعالى لما قدر . واليك بعض أقاويل السلف الصالح فى ذلك . كان سفيان الثورى رحمه الله يقول — دين الرجل حيث رغيفه من حل" . وإن أهل بيت يوجد على مائدتهم الآن رغيف من حل لغرباء فى هذا الزمان . وكان عبدالله بن عباس رضى الله عنهما يقول . كسب الحلال أشد على المؤمن من نقل جبل إلى جبل . وقد سمع الحسن ابن على رضى الله عنهما شخصاً يقول — اللهم ارزقنى حلالا صافياً . فقال له . ياهذا سل ربك رزقاً لا يعذبك عليه ، فإن الحلال الصافى إنما هو رزق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وكان ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى كثيراً مايعمل إلى آخر النهار فاذا أعطوه أجرته نظر اليها وقال لأصحابه إنى أخاف أن أكون لم أبذل كل قوتى التى طلبها منى صاحب الزرع ثم يتركها ويذهب فلا يأكل تلك الليلة . وكان يرى الحضور مع الله تعالى فى عمل الحرفة شرطاً للحل . وكل شيء عمله بلا حضور لا يأخذ له أجرة وكان سعد بن كدام رحمه الله تعالى يقول لا أعرف اليوم بقى من الحلال . إلا ما يشربه الرجل من الدجلة أو النيل بكفه . وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى إذا ذهب إلى وليمة أخذ معه رغيفاً يأكل منه . فاذا قال له صاحب الوليمة هل تأكل من خبزى ياسيدى : يقول له انك تدرى خبزك من أين هو . وأنا أدرى خبزى من أين هو . فكل واحد ياكل مما يدرى .

وأمثال هذا كثير وهو غاية الورع والتحرى فى المطعم . ودليل القوم فى ذلك قوله تعالى (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وهو خطاب للرسل وقد أمر الله تعالى المؤمنين بما أمر به الرسل . ومن أدلتهم أيضاً . ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (لايكتسب عبد مالا من حرام فيبارك له فيه . ولا يتصدق به فيؤجر

عليه . ولا يتركه خلف ظهره إلا كان دافعاً له إلى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو الخبيث بالطيب) أو كما قال .

باب فى فضيلة النفقة على الزوجة والعيال

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (دينار أنفقته فى سبيل الله . ودينار أنفقته فى رقبة . ودينار تصدقت به على مسكين . ودينار أنفقته على أهلك . أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك) (م) وعن سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له (إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعل فى فم امرأتك) (خ) وقال عليه الصلاة والسلام (ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة . وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة . وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة) (احمد) وقال عليه الصلاة السلام (اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول . أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك) (طب) وعن جابر رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول مايوضع فى ميزان العبد نفقته على عياله) (طب) وقال عليه الصلاة والسلام (إن الرجل إذا سقى امرأته من الماء أجر) (أحمد) وقال عليه السلام (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفاً) (ق وغيرهما) .

باب فى الورع وترك الشبهات

قال عليه الصلاة والسلام (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذ صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) (خ) وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله اخبرنى مايحل لى ويحرم على قال (البر ماسكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم مالم تسكن إليه

النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن افتاك المفتون) (أحمد) وعن انس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد تمرة فى الطريق فقال (لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) (ق) وقال الحسن رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم (دع مايريبك إلى مالايريبك) (ت وغيره) وعن عائشة رضى الله عنها قالت كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه غلاماً يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء ذات يوم بشىء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام - أتدرى ماهذا ؟ فقال أبو بكر وما هذا ؟ قال كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية . وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته فلقينى فأعطانى لذلك هذا الذى أكلت منه . فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه (خ) الخراج شىء يفرضه المالك على عبده يؤديه إليه كل يوم مما يكسبه وباقى كسبه يأخذه لنفسه . وقال عليه السلام (لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به بأس) (ت) وسئل النبى صلى الله عليه وسلم ما الاثم ؟ قال (إذا حاك فى نفسك شىء فدعه) قال فما الإيمان ؟ قال (إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن) (أحمد) وقال عليه السلام (أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع) (طب) .

باب فى الاكتساب بالبيع وغيره

قال عليه الصلاة والسلام (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده) (خ) وقال عليه السلام (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه) (ق) وغيرهما . وقال عليه السلام (لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) (خ) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الكسب أطيب قال (عمل الرجل بيده وكل كسب مبرور) . (ك) وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه . قال مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جده ونشاطه فقالوا يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله . فقال رسول الله الله صلى الله عليه وسلم (إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى

سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله . وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله . وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان) (طب) وقال عليه السلام (إن الله يحب المؤمن المحترف) (طب) وقال عليه السلام (من أمسى كالا" من عمل يده أمسى مغفورا له) (طب) ــ كالا أى متعبا ــ .

باب فى البكور فى طلب الرزق وغيره

عن صخر بن وداعة الغامدى الصحابى ــ أنه قال ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم بارك لأمتى فى بكورها) وكان عليه السلام إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار وكان صخر تاجرا فكان يبعث تجارته من أول النهار فأثرى وكثر ماله (دون وغيرهما) وعن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (باكروا الغدو" فى طلب الرزق فان الغدو بركة ونجاح) (طب) وعن عثمان رضى الله عنه أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نوم الصبحة يمنع الرزق) (أحمد وغيره) وعن فاطمة رضى الله عنها قالت . مر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة فحركنى برجله . ثم قال يابنى قومى أشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين فإن الله يقسم أرزاق الناس مابين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس) (هب) وعن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن النوم قبل طلوع الشمس) (ه) .

باب فى الاقتصاد فى طلب الرزق

عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لاتستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له فأجملوا فى الطلب ، أخذ الحلال وترك الحرام) (حب وك) وعن أبى حميد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما خلق له) (ه)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ليس من عمل يقرّب من الجنة إلا قد أمرتكم به ولا عمل يقرّب إلى النار إلا وقد نهيتكم

عنه فلا يستبطئن أحد منكم رزقه . فإن جبريل ألقى فى روعى أن أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه واتقوا الله أيها الناس واجملوا فى الطلب فان استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فان الله لاينال فضـــله بمعصيته) (ك) وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض ولـكن الغنى غنى النفس وأن الله عز وجل يؤتى عبده ماكتب له من الرزق فأجملوا فى الطلب خذوا ماحل ودعوا ماحرم) (أبو يعلى) وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله) (حب) وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لو فر أحدكم من رزقه أدركه كما يدركه أجله) (طب) .

وعن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رآى تمرة غابرة فأخذها فناولها سائلا فقال (أما إنك لو لم تأتها لأتتك) (طب) .

باب فيما ورد فى الغش فى التعامل

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا) (م) وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام وقد حسنه صاحبه فأدخل يده فيه فاذا طعام ردىء فقال (بع هذا على حدة وهذا على حدة فمن غشنا فليس منا) (أحمد) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من غشنا فليس منا والمكر والخداع فى النار) (طب) وعن صفوان بن سليم أن أبا هريرة رضى الله عنه مر بناحية الحرة فاذا إنسان يحمل لبناً يبيعه فنظر اليه أبو هريرة فاذا هو قد خلطه بالماء ، فقال له أبو هريرة كيف بك إذا قيل لك يوم القيامة خلص المـاء من اللبن ـــ (هب) وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم (أن رجلا كان يبيع الخمر فى سفينة له ومعه قرد فى السفينة ، وكان يشوب الخمر بالمـاء ، فأخذ القرد الـكيس فصعد الذروة وفتح الـكيس ؛ فجعل يأخذ ديناراً فيلقيه فى السفينة وديناراً فى البحر حتى جعله نصفين((هب)

وعن وائلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من باع عيباً لم يبينه لم يزل فى مقت الله ولم تزل الملائكة تلعنه) (هـ)

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعاً فيه عيب أن لا يبينه) (أحمد وغيره)

وقال عليه الصلاة والسلام (إن الدّين النصيحة) قلنا لمن يارسول الله ؟ قال (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) (م و ن) وعن جرير رضى الله عنه أنه قال — بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم (ق وغيرهما) وقال صلى الله عليه وسلم (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ؛ ومن لم يصبح ويمس ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم) (طب) وقال عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (ق) وغيرهما.

باب فى فضيلة الصدق فى المعاملة

قال عليه الصلاة والسلام (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء) (ت) وقال عليه السلام (التاجر الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة) (ه) وقال عليه السلام (التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة) (الأصبهانى) وقال عليه السلام (إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا وإذا ائتمنوا لم يخونوا ؛ وإذا وعدوا لم يخلفوا ؛ وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ؛ وإذا كان عليهم لم يمطلوا ؛ وإذا كان لهم لم يعسروا) (هب) وقال عليه السلام (البيعان بالخيار مالم يتفرقا فان صدق البيعان وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحاً ويمحقا بركة بيعهما ، اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب) (ق وغيرهما) وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة أشيمط زان . وعائل مستكبر . ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشترى إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) (طب) (أشيمط تصغير أشمط وهو من ابيض بعض شعر رأسه كبراً)

وقال عليه السلام (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل حلف على سلعته لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقطع بها مال امرىء مسلم ، ورجل منع فضل ماء فيقول الله له اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل يداك) (ق) وعن

ابن مسعود رضى الله عنه قال مر إعرابى بشاة فقلت تبيعها بثلاثة دراهم، فقال لا والله ثم باعها، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (باع آخرته بدنياه) (حب) وقال عليه السلام (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب) (ق) وغيرهما.

باب فى السماحة فى البيع والشراء

قال عليه الصلاة والسلام (رحم الله عبداً سمحا إذا باع. سمحا إذا اشترى. سمحا إذا اقتضى) (خ) وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بمن يحرم على النار، ومن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هين سهل) (طب)

وقال عليه السلام (أفضل المؤمنين رجل سمح البيع سمح الشراء سمح القضاء سمح الاقتضاء) (طب) وقال عليه السلام (دخل رجل الجنة بسماحته قاضياً ومقتضياً) (احمد) وقال عليه السلام (من طلب حقاً فليطلبه فى عفاف واف أو غير واف) (ت) وعن عبد الله بن ربيعة أن النبى صلى الله عليه وسلم استسلف منه حين غزا حنيناً ثلاثين أو أربعين ألفاً فقضاها إياه، ثم قال له (بارك الله لك فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد) (ه)

باب فى الاخبار الواردة فى الدَّين وقضاء دَين الميت

عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أعوذ بالله من الكفر والدَّين) فقال رجل يا رسول الله اتعدل الكفر بالدين؛ قال (نعم) (ن و ك) وقال عليه السلام (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها) قالوا وماذاك يارسول الله قال (الدين) (احمد) وقال عليه السلام (من فارق الروحُ الجسد وهو برىء من ثلاث دخل الجنة. الغلول. والدين. والكبر) (ت و ه).

وقال عليه السلام (من ادّان وهو ينوى أن يؤديه ومات أداه الله عنه يوم القيامة ومن استدان دينا وهو لا ينوى ان يؤديه فمات قال الله عز وجل يوم القيامة (ظننت أنى لا آخذ لعبدى بحقه) فيؤخذ من حسناته فيجعل فى حسنات الآخر فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات الآخر فيجعل عليه (طب) وقال عليه السلام

(من حمل من أمتى ديناً ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه) (احمد) وقال عليه السلام (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله) (خ) وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته فقال (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد) قال فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا ما التشديد الذى نزل قال (فى الدَّين والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه) (ن و طب) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيداً . قال فائتنى بالكفيل ، قال كفى بالله كفيلا . قال صدقت . فدفعها اليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته . ثم التمس مركباً يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ثم زجج موضعها ، أى سد الثقب حتى لا يسقط شىء ، ثم أتى بها البحر فقال اللهم انك تعلم أنى تسلفت من فلان ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بك . وسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضى بك . وانى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى استودعتكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار فقال والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال هل كنت بعثت إلى بشىء ، قال أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه ، قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف دينار راشدا) رواه البخارى معلقاً مجزوماً والنسائى وغيره مسنداً . صدق رسول الله . وقال عليه السلام (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس

فى نفسه أن يؤدى إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان دينا لا يريد أن يؤدى الى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) (طب) وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذ مات إلا من تدين فى ثلاث خلال . الرجل الذى تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه . ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين . ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه . فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة) (ه) هكذا . ورواه البزار ولفظه (ثلاث من تدين فيهن ثم مات ولم يقض فإن الله يقضى عنه . رجل يكون فى سبيل الله فيخلق ثوبه فيخاف أن تبدو عورته — أو كلمة نحوها — فيموت ولم يقض دينه . ورجل مات عنده رجل مسلم فلم يجد ما يكفنه به ولا ما يواريه فمات ولم يقض دينه . ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضى عنه يوم القيامة) — العنت — الإثم والفساد — وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه) (احمد و ت) وعن على رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دَينه ، فان قيل عليه دَين كف عن الصلاة عليه . وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه . فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل على صاحبكم دين) قالوا ديناران . فعدل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (صلوا على صاحبكم) فقال على هما علىّ يارسول الله برىء منهما . فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى عليه . ثم قال لعلى بن أبى طالب (جزاك الله خيراً فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك إنه ليس من ميت يموت وعليه دَين إلا وهو مرتهن بدينه . ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة) فقال بعضهم هذا لعلىّ خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال(بل للمسلمين عامة) (الدارقطنى)

باب فى مطل القادر فى سداد الدّين

عن عمر ابن الشريد عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لىّ الواجد يحل عرضه وماله) (حب) أعنى مطل القادر على السداد يحل عرضه أى يبيح أن يذكر بسوء المعاملة وعقوبته حبسه.

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ماقدس الله أمة لايأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع) أى قلق ومتعب بكثرة تردده عليه ومطله له. ثم قال (من انصرف غريمه وهو عنه راض صلت عليه دواب الأرض ونون الماء. ومن انصرف غريمه وهو ساخط عليه كُتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) (طب) — نون الماء حوتها.

وروى الطبرانى عن ابن مسعود باسناد جيد قال جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم يتقضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال أحرج عليك إلا قضيتنى. فانتهره أصحابه، فقالوا ويحك تدرى من تُكلم؟ فقال إنى أطلب حقى. فقال النبى صلى الله عليه وسلم (هلا مع صاحب الحق كنتم) ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها (إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك) فقالت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله. فأقرضته فقضى الأعرابى وأطعمه. فقال الأعرابى أوفيتَ أوفى الله لك. فقال عليه السلام (أولئك خيار الناس إنه لاقدست أمة لايأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع) أى غير متعب بكثرة التردد.

باب فى بيان محبة الله تعالى للعبد

إعلم أن شواهد القرآن متفقة على أن الله تعالى يحب عبده. فمن الشواهد على محبة الله عز وجل قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وقد روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله يحب التوابين) معناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية

وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي قبل الإسلام . وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب) (ك) وقال عليه السلام (من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله) (ه) وقال (قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) الحديث - (خ) .

واعلم أن ما ورد من أخبار المحبة خارج عن الحصر ولكنا نبين بعضاً من علاماتها فمنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا أحب الله عبداً ابتلاهُ فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه) قيل وما اقتناه . قال (لم يترك له أهلا ولا مالا) (طب) وقال عليه الصلاة والسلام (إذا أحبَّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه) (أبو منصور) وأخص علامات المحبة حبك لله فان ذلك يدل على حب الله لك - وأما الفعل الدال على كونك محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمرك باطنه وظاهرَه سرَّه وجهرَه فيكون هو المشير عليك والمدبر لأمرك والمزين لأخلاقك والمستعمل لجوارحك والمبغِّض للدنيا في قلبك ، والموحش لك من غيره والمؤنس لك بلذة المناجاة في خلواتك ، والكاشف لك عن الحجب بينك وبين معرفته ، فهذا وأمثاله علامات لحب الله تعالى للعبد ، وفيما يلي علامات محبة العبد لله تعالى .

باب في علامات محبة العبد لله تعالى

المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وما أصعب العمل ، فلا يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين والأدلة . فالمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح ، وتدل تلك الآثار دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة الأنواع . ويخصنا منها حب لقاء الله تعالى وحب مشاهدته في دار السلام . فلا يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته طبعاً .

واعلم أنه لا وصول إلى ذلك إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت ، فإذا علم ذلك كان الإنسان محباً للموت غير كاره ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته . والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) (ق) فان قلت فمن لا يحب الموت ، هل يتصور أن يكون محباً لله ؟ فأقول إن كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والأولاد ، وهذا ينافى كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذى يشغل كل القلب ، أما إذا كان العبد فى ابتداء مقام المحبة فليس يكره الموت ، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب ، ومثاله مثال الذى وصله خبر قدوم حبيبه عليه فتمنى أن يتأخر ساعة ليهيء له الدار ، ويعد له ما يلزمه ، كى يلقاه على أكمل حال ، ويكون فارغ القلب عن الشواغل ليأنس بلقائه ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال الحب أصلاه أما علامة الاستعداد فهى المواظبة على العمل واشتغال القلب بالمحبوب — واعلم أن الحب إذا غلب على القلب قهر هوى النفس فلم يبق له تنعم بغير محبوبه .

أما دعوى المحبة من غير عمل فهو خطر ، ولذلك قال الفضيل إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . وقال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة . فعلامة حب الله حب ذكره ، وحب القرآن الذى هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل ما ينسب اليه . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام — قد كذب من ادعى محبتى إذا جن الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبنى ، وقال يحى بن معاذ من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب — يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا فى الآخرة شرابه ، فمن كان حبه رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور والولدان ، تبوأ من الجنة حيث شاء ، لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه ، وأما من كان

مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر . فالأبرار يرتعون في البساتين ويتمتعون في الجنان مع الحور العين والولدان . والمقربون ملازمون للحضرة الربانية عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالنسبة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون .

واعلم أن جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق وما يتحلى به العبد من التقوى ، فهو ثمرة الحب ، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . متعنا الله بحبه وأكرمنا وإياكم بقربه .

باب في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

إعلم أن أسعد الخلق حالة في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى . فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ونيل سعادة لقائه . والتنعم بقربه . إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب ، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة . ويكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا بسببين — أحدهما — قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للماء ما لم يخرج منه الهواء ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . فكمال الحب هو أن يحب الله تعالى بكل قلبه ، وهو معنى قولك لا إله إلا الله . أي لا معبود ولا محبوب سواه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة) (ق) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه . ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه ، وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب . وأما ضعف حب الله في القلوب فسببه قوة حب الدنيا وحب الأهل والمال والأولاد والأقارب والعقار والدواب والبساتين ، حتى أن الذي يفرح بطيب نسيم الأشجار ويلذ بأصوات الطيور يعتبر ملتفتاً إلى نعيم الدنيا ومتعرضاً لنقصان حب الله تعالى — فبقدر ما يأنس العبد في الدنيا ينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد في الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة — السبب الثاني — قوة معرفة الله

تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وحظوظها ، ويجرى ذلك مجرى وضع البذر فى الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة . والذى يوصل العبد إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب هو الفكر الصافى ، والذكر الدائم ، والجد البالغ فى الطلب ، والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته . والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى أقوياء وضعفاء . فالأقوياء يكون أول معرفتهم لله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . أما الضعفاء فيكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . فإلى الأقوياء الإشارة بقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية . والإشارة إلى الضعفاء بقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وغير ذلك من الآيات الواردة فى القرآن الكريم .

واعلم أنه لا يمكن ذكر مفردات هذا الباب لاتساعه . وإنما نحيل القارىء إلى ما كتبناه فى باب التفكر فى خلق الله تعالى ، ليرى عظم ملكه وجلال قدرته وإبداعه فى مخلوقاته فى ملكوت السموات والأرض . ولكن لا نترك القارىء من غير أن نأتى له هنا بمثال واحد على سبيل القياس ، فنذكر أضعف الحيوانات وأصغرها حجما وهو البعوض . فانظر فى البعوض على قدر صغر حجمه وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، وانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوماً مثل خرطوم الفيل ، وخلق له على حجمه الصغير سائر الأعضاء كما خلقها للفيل ، بل بزيادة جناحين . وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه وشق سمعه وبصره ، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما خلقه فى سائر الحيوانات ، ثم هداه بعد ذلك إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف خلق الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وكيف هداه إلى مسام جلد الانسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ، ثم كيف رزقه القوة حتى يغرز فيه الخرطوم ، وكيف علمه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مثقوباً مع دقته وحدته كى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى إلى باطنه وينتشر إلى سائر أجزائه فيغذيه ، ثم كيف علمه حيلة الهرب إذا مد الانسان يده إليه ، وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف الحركة

اليد وهي بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد رجع . ثم انظر كيف
خلق له حدقتين يبصر بهما موضع غذائه مع صغر حجم وجهه ، ولما كانت حدقة
الحيوان الصغير لم تتحمل الأجفان ، فقد تفضل الخالق العظيم فخلق يدين للبعوض
والذباب لتمسح بهما الحدقتين على الدوام لتقوم مقام الأجفان عند الإنسان
والحيوانات الكبيرة ، ولكن لضعف بصره تراه يتهافت على السراج بالليل ظناً منه
أنه فى بيت مظلم وأن السراج نافذة توصله إلى المكان الذى فيه ضوء النهار ، لأن
البعوض بطبيعته ولضعف بصره يتطلب ضوء النهار متى أظلم الليل ، فلا يزال يطلب
الضوء ويرمى بنفسه إلى السراج فإذا جاوزه ورآى الظلام ظن أنه لم يصب النافذة
فيعود على السراج مرة ثانية وثالثة إلى أن يحترق . ولعلك تظن أن هذا نقصان منه
أو جهل . فإذا رأيت ذلك فاعلم مع الحزن الشديد والأسف العظيم أن جهل الإنسان
أعظم من جهل هذا البعوض المسكين الضعيف النظر بطبيعته ، لأن صورة الإنسان
فى الانكباب على شهوات الدنيا هى بعينها صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ
تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يرى أن تحتها السم الناقع
القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبداً ؛
فليت نتيجة جهل الآدمى كانت كنتيجة جهل الفراش فإن الفراش باغترارها بظاهر
الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال . وأما الآدمى فيا ألف حسرة عليه يبقى فى النار
أبد الآباد أو مدة مديدة حتى يشاء الله . ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ويقول (إنى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون
فيها تهافت الفراش) (ق) فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات ،
وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على أن يُحيطوا بسره لعجزوا
عن إدراك حقيقته الظاهرة . أما خفايا معانى ذلك فلا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.
واعلم أن فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لايشاركه فيها غيره ، فانظر
إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى إليها الله تعالى حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن
الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما
ضياء والآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأثمار

واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وإطاعتها لكبيرها المسمى أميرها ، وقدسخر الله تعالى العدل لأميرها ، حتى أنه يدير حركة هذه الأمة بالعدل والإنصاف بينها ، ولو عرفت أنه يقتل على باب المدخل كل ماوقع منها على نجاسة لقضيت من ذلك عجباً هو آخر العجب ، ولحصل عندك الدهش والوجوم إن كنت بصيراً فى نفسك فارغاً من شهوات الدنيا . ثم دع عنك كل ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيار الشكل المسدس من جملة الأشكال الهندسية فلا تبنى بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مستطيلا ولا مخمساً ، بل تبنى على الشكل المسدس لحكمة هندسية يعجز فهم أكابر المهندسين عن إدراكها ، وهى أن الشكل المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لاتضيع الزوايا وتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت بجوار بعضها تواجدت خلالها فرج ، ولهذا اختار بيته على الشكل المسدس وهو الشكل الذى لايترك فرجاً إذا جمع لبعضه وهذه خاصية لاتوجد إلا فى هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر حجمه لطفاً به وعناية لوجوده ماهو محتاج إليه ، ليتهنأ بعيشه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه . فاعتبر أيها العبد بهذه اللمعة اليسيرة من أصغر الحيوانات ولا تتركها تمر عليك وأنت غافل عن التأمل فيها لأن هذا وبال عليك . أما عجائب ملكوت السموات والأرض فدعها عنك فإن المقدار الذى بلغه فهمنا من ذلك تنقضى الأعمار الطوال دون إيضاحه . فبالنظر إلى هذه العجائب وأمثالها تزداد المعرفة ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ،فإن كنت طالباً لسعادة اللقاء فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر المستمر فعساك تحظى منها بقدر يسير تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له إن شاء الله تعالى .

باب فى أخلاق السلف رضى الله عنهم

ولكى يلم القارىء الكريم ببعض أخلاق السلف من المسلمين . أذكر هنا نبذة يسيرة من أخلاقهم على سبيل التنبيه والتذكير .

فمن أخلاقهم رضى الله عنهم — أنهم كانوا يلازمون الكتاب والسنة فى أقوالهم

وأفعالهم كلزوم الظل للشخص ولا يتصدر أحد منهم للإرشاد إلا بعد التبحر فى علوم الشريعة المطهرة — فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيها لا يصح الاقتداء به .

ومن أخلاقهم — تفويضهم إلى الله تعالى فى أمر أنفسهم وأولادهم وأصحابهم فلا يكون معولهم فى أمر هدايتهم إلا عليه عز وجل ولا يطلبون شيئاً قط بأنفسهم .

ومن أخلاقهم — غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت حرماته نصرة للشريعة فكانوا لا يفعلون فعلا ولا يصحبون أحداً إلا أن علموا رضا الله تعالى فيه . فلا يحبون أحداً ولا يبغضونه لعلة دنيوية . وقد ورد أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرا الإيمان .

ومن أخلاقهم — كثرة البكاء والاعتبار والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة، وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى أحدا يحمل جنازة يقول امض إلى ربك فإنا على إثرك ماضون . وكان الحزن يملأ قلوبهم من خوف الموت وسكراته وخوف سوء الخاتمة . وكان أحدهم يأخذ فى الفكر والحزن حتى يغيب عن الحاضرين .

ومن أخلاقهم — مواظبتهم على قيام الليل صيفاً وشتاءً ، وكانوا يرون ذلك فرضاً عليهم لما فيه من القربات العظيمة . قال عليه الصلاة والسلام (يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له) (خ) . وفى الخبر (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم وتكفير لخطاياكم ومنهاة عن الاثم ومطردة للداء عن الجسد) . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام (ياداود كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى) وورد أن الله تعالى يباهى الملائكة بالعبد إذا قام يتهجد فى الليل . والقول الفصل فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه . وقال رجل لابراهيم بن أدهم إنى لا أقدر على قيام الليل فصف لى دواء . فقال له لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه فى الليل . ونام ابراهيم ليلة فى بيت المقدس فسمع صوتاً من جانب الصخرة يقول . قيام الليل يطفىء لهب

النار ويثبت الاقدام على الصراط — وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى كثيراً ما ينشد قول الشاعر :—

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطار الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هُجوعُ

ومن أخلاقهم — تقديم أعمال الآخرة دائماً على أعمال الدنيا فيقدم أحدهم ورده بعد صلاة الصبح على سائر مهماته . كما يقدم التهجد فى الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف . وعلى ذلك فكل من أصبح وهمه الدنيا فهو خارج عن طريقهم .

ومن أخلاقهم — زيارتهم لقبور المسلمين من وقت لآخر عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) . وهذا الحال قلَّ من يعمل به الآن من الناس ! فإن دخلوا المقابر فليس فى دخولهم اعتبار . وإنما كان عندهم كأمر عادى مثل زيارتهم للميت فى أول جمعة أو عند تمام الشهر .

ومن أخلاقهم — عدم غفلتهم عن ذكر الله تعالى . وعن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عملا بقوله عليه السلام (لا يجلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم ترة — أى تبعة — ونقصاً يوم القيامة) ، أو كما قال — وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول — إذا ذكرتم الخلق فى مجالسكم فاذكروا الله تعالى فإن ذكره دواء لداء ذكر الخلق . وكان بعضهم يطرب ويفرح بذكر الله تعالى ويقول إنما طربى وفرحى بذكر الله لى . فإنه سبحانه وتعالى يقول (فاذكرونى أذكركم) وكان بعضهم إذا مشى فى طريق لم يذكر الله تعالى فيها رجع ثانية وذكر الله ولو مرحلة ويقول أنا أحب أن تشهد لى بقاع الأرض التى أمر فيها يوم القيامة — وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول حادثوا القلوب فإنها سريعة الغفلة ، وكان وهب بن منبه يقول — واعجباً من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد .

ومن أخلاقهم — اجتناب الجلوس فى السوق لبيع أو شراء إلا بعد معرفة أحكام الشرع فى المعاملات وغلبة ظنهم أنهم لا يشتغلون بذلك عن أعمال الآخرة . لأن كل ما يشغل عن الله فهو شؤم على صاحبه فى الدنيا والآخرة . وروى أن

الامام مالك رضى الله عنه كان يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه فإذا وجد أحداً منهم لا يفقه أحكام المعاملات ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق ؛ وكان قتادة رحمه الله يقول . عجباً للتاجر كيف يسلم . وهو بالنهار يحلف وبالليل يحسب .

ومن أخلاقهم — أنهم يرون أنفسهم لم يقوموا بذرة واحدة من شكر ربهم وذلك لأنهم يرون أن جميع ما يشكرونه به من جملة نعمه عليهم فلا تنفذ نعمه أبدا ولا يقدر أحد أن يقابلها بشكر .وكان بكر بن عبد الله المزنى رحمه الله يقول — ماقال عبد الحمد لله إلا وجب عليه شكر آخر . وكان سهل بن عبد الله التسترى يقول أداء الشكر لله تعالى أنك لا تعصيه بنعمه عليك فإن جوارحك كلها من نعمه عليك فلا تعصه بشىء منها . وقد كان مجاهد ومكحول رحمهما الله تعالى يقولان فى قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) إنه الشراب البارد وظل المساكن وشبع البطن واعتدال الخلق ولذة المنام .

ومن أخلاقهم — كتمانهم الأسرار وعدم إفشاء ما يسمعونه . وقالوا قلوب الأحرار قبور الأسرار . ولكن هذا الحال قل من يحافظ عليه فى هذا الزمن . بل ربما سمع الإنسان كلمة فى حق أخيه فيبادر بتبليغه إياها ولو خربت الديار . وقد ذكرنا فى باب ذم النميمة وإفشاء السر بعض ما ورد فى ذم ذلك . وكان عبد الله بن المبارك يقول — لا يقدر على كتمان ما يسمع إلا من صح نسبه ،وأما ولد الزنا فإنه لا يستطيع الكتمان . فانظر كيف شبه ناقل الحديث بولد الزنا الذى لا أصل له . فلتفهم ذلك .

ومن أخلاقهم — كثرة التوبة والاستغفار ليلا ونهارا لأنهم يرون أنهم لا يسلمون من الذنوب فى فعل أو قول حتى فى طاعتهم . فيستغفرون من نقصهم فى خشوعها ومن عدم مراقبة الله تعالى فيها . وقد ورد من الأخبار فى أبواب هذا الكتاب كثير فى أمر التوبة والاستغفار ، أما قول السلف . فكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول — من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين . وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول — زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبلها . وكان الفضيل بن عياض

يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد — عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم مالا ترده السيوف ، وكان حبيب بن تمام رحمه الله تعالى يقول . من وقع فى ذنب ثم خاف من الله تعالى أن يعذبه عليه غفره الله له . فاعلم ذلك يا أخى وأكثر من الاستغفار مادمت فى هذه الدار فإنه يطفىء غضب الجبار . واعلم أن المؤمن لا يطمئن حتى يدخل الجنة — جعلنا الله وإياكم من أهلها برحمته .

ومن أخلاقهم — التهيؤ للوقوف بين يدى الله تعالى فى كل صلاة من أول الوقت فكان أحدهم يستشعر عظمة الله تعالى شيئاً فشيئاً من وقت وضوئه ومن وقت أن ينادى بحى على الصلاة حتى يصل إلى الحضور مع الله تعالى بحسب مقامه ، وقد كان الشيخ أفضل رحمه الله يستعد للوقوف فى الصلاة قبل دخول الوقت بزمن كاف فقيل له يوماً . أنت بحمد الله ليس لك علاقة دنيوية تمنعك من الحضور . فقال إن لكل إنسان عوائق بحسب مقامه ولولا الحجاب الذى لهم قبل الصلاة لما صارت ألوانهم عند القيام اليها — وقيل إن الحسن البصرى رحمه الله تعالى رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة ثم سمعه وهو يقول فى سجوده . اللهم زوجنى فى الجنة من الحور العين ما تقر به عينى فقال له الحسن ، ياهذا ما رأيت خاطباً للحور أقل حياء منك . تخطب الحور من الله تعالى وأنت تلعب . وكان مسلم بن يسار رحمه الله تعالى إذا دخل فى الصلاة لا يدرى أى شيء يكون ممن حوله . وكان رحمه الله تعالى يقول لأهله . لا ترفعوا أصواتكم عندى إلا إذا رأيتمونى دخلت فى الصلاة . فإنى إذا كنت فيها لا أسمع شيئاً من كلامكم . وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول : قال داود عليه الصلاة والسلام يارب من الذى تقبل صلاته . ويبنغى له أن يدخل بيتك — يعنى المسجد — فأوحى الله اليه — من تواضع لعظمتى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى ، وأطعم الجائع ، وآوى الغريب ، ورحم المصاب ، فذلك الذى ينبغى له أن يدخل بيتى وأجيب دعاءه . وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى يقول — لقد أدركنا الناس وأحدهم إذا دخل المسجد ارتعد وتغير من شدة هيبة الله حتى لا يعى شيئاً من أمور الدنيا . وكان سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى يقول — من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه عز وجل . وسيأتى على الناس زمان يجلسون فى المسجد حلقاً حلقاً

حديثهم فيه الدنيا فلا تجالسوهم . (قلت) هذا فى الحديث المباح فما بالك بمن يجلسون فى المسجد يستغيبون فيه العلماء والصالحين والمسلمين عامة — نسأل الله العافية .

فتنبه لما قلناه يا أخى فى هذا الباب من أخلاق السلف عسى الله أن يجعلنا منهم .

باب فى كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة

إعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت . والدنيا هى حالتك قبل الموت ، والآخرة هى حالتك بعد الموت ، ولا يمكن التكلم عن شىء من أحوال الآخرة إلا بضرب الأمثال ، لأنها من عالم الغيب ، ونحن هنا نيام فإذا متنا انتبهنا وانكشفت لنا الحقيقة ، وعلى ذلك فما نذكره لك عن كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات هو على سبيل المثال ، فافهم من هذا المثل معناه لا صورته . فالناس فى الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت حصر ، كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ، فلا سبيل لإحصاء الدرجات مطلقاً . ولكننا نقول فيما يختص باحصاء الأجناس ، إن الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام — هالكين ، ومعذَّبين ، وناجين ، وفائزين — ومثال ذلك أن يستولى ملك من الملوك على إقليم من الأرض ، فيقتل بعض الأهالى فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذَّبون ، ويترك بعضهم فهم الناجون . ويخلع على بعضهم الخلع فهم الفائزون . وهذا مع عدل الملك لا يكون إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا الجاحد الذى عاداه فى المملكة وأنكر ملكه ، ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته ، مع الاعتراف بملكه ، ولا يخلى إلا من اعترف له برتبة الملك ولم يقصر فى خدمته ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى خدمته ناصراً له ، على أن يكون فى كل قسم من هذه الأقسام تفاوت ، سواء كان فى كيفية القتل ، فمنهم من يقتل شنقاً ، ومنهم من يقتل رميا بالرصاص ، وغير ذلك بحسب درجاتهم فى المعاندة ، وتعذيب المعذَّبين يتفاوت أيضا فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها بحسب درجات تقصيرهم ، وكذلك الخلع منها الثمين ومنها المتوسط وفيها الأقل ، فالناس فى الآخرة يتفاوتون ، فمن هالك أى مخلد فى النار ، ومن معذب قليلا أو كثيرا ، ومدة العذاب تتفاوت من لحظة إلى سبعة آلاف سنة

وذلك آخر من يخرج من النار ، لقوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة (إن آخر من يخرج من النار يعذَّب سبعة آلاف سنة) (ت) . ومن ناج يحل فى دار السلام . ومن فائز يحل فى جنات عدن أو جنات المأوى ، أو جنات الفردوس . وكذا الهالكون الآيسون من رحمة الله تعالى تتفاوت دركاتهم فى جهنم ، وتقسيم هذه الدركات والدرجات يكون بحسب الطاعات والمعاصى . وإليك كيفية التوزيع — الرتبة الأولى — وهى رتبة الهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى وهى لاتكون إلا للجاحدين والمعرضين عن آيات الله . المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر — الرتبة الثانية — وهى رتبة المعذَّبين الذين آمنوا ولكنهم قصروا فى الوفاء بمقتضى الإيمان ، أى هم المؤمنون العاصون ، فالعذاب يكون بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها — قال تعالى (اليوم تُجزَى كلُّ نفس بما كسبت لا ظُلْم اليوم) — الرتبة الثالثة — وهى رتبة الناجين وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، فهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذَّبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والذين لم تبلغهم الدعوة وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم طاعة تقربهم ، ولا معصية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين الجنة والنار عبر عنها الشرع بالأعراف — الرتبة الرابعة — وهى رتبة الفائزين وهم العارفون بالله تعالى المقربون السابقون ، الذين عبر الله تعالى عنهم فى كتابه الكريم بقوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) فهذا القدر كاف للقياس والله أعلم .

باب فى بيان أسباب سوء الخاتمة

اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين إحداهما أعظم من الأخرى — فالرتبة الأولى — وهى الرتبة الهائلة ، هى أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود ، فتقبض الروح على هذه الحالة والعياذ بالله ، فيكون ما غلب على القلب من الجحود أو الشك حجاباً بين العبد وبين الله تعالى ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد — الرتبة الثانية — وهى أقل من الأولى ، هى أن يغلب على

قلب العبد عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك فى قلبه ويستولى عليه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغير هذا الأمر ، وهذه الشهوة ، فيتفق قبض روحه على تلك الحالة التى جعلته ناظراً إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها ، ومتى انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومتى حصل الحجاب نزل العذاب ، فإذا اتفق قبض الروح فى حالة حب الدنيا فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ماعاش عليه . ولا يمكن للقلب أن يكتسب صفة أخرى بعد الموت بخلاف الصفة التى مات عليها ، إذ لا تصرف فى القلب إلا بأعمال أعضاء الجسم ، وقد بطلت الأعضاء بالموت فبطلت الأعمال ، فلا مطمع فى عمل ، ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ، ليتدارك العبد مافاته من الطاعات ، فعند ذلك تعظم الحسرة وتشتد الندامة . فإن قلت فما السبب الذى يوجب سوء الخاتمه ، فاعلم أن هذه الأسباب كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجموعها فنقول — عن الرتبة الأولى وهى الختم على الشك أو الجحود فينحصر سببه فى شيئين — الأول — أن يعتقد الرجل فى ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله خلاف الحق ، فيتصوره خلاف ماهو عليه ، وذلك إما برأيه الخاص ، وإما بالتقليد من رجل آخر . فإذا ظهر للعبد ملك الموت واضطرب القلب ، ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده بجهله ، لأن حال الموت حال كشف الغطاء ، فمتى بطل عنده ما كان يعتقده سبَّب ذلك بطلان بقية اعتقاداته ، أو يجعله يشك فى صحتها ، فاذا اتفق زهوق روحه فى هذه اللحظة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك وأمثال هذا هم المرادون بقوله تعالى (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) ولهذا الخطر يجب على الانسان أن يتعلم أمور دينه من العلماء الذين يثق فى علمهم ، كى يعبد الله على علم ، وليتجنب سؤال أهل الشذوذ الخارجين عن الإجماع المدعين العلم والمعرفة وهم فى شهوات الدنيا غارقون . وعلى ذلك فكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ماهو به ، إما تقليداً وإما برأيه ، فهو فى هذا الخطر . أما البله فهم بعيدون عن هذا الخطر لأنهم آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً راسخاً ، كالأعراب وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث ولم يجزموا

برأى لهم فى التوحيد ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكثر أهل الجنة البله) (البزار) ولنعلم أن السلامة كلها فى أن يشتغل كل منا بالأعمال الصالحة ولا يتعرض لما هو فوق طاقته ، فكل من ترك الايمان الساذج وخاض فى البحث فقد تعرض لخطر سوء الخاتمة .

والسبب الثانى — هو ضعف الإيمان فى الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومتى ضعف الإيمان ضعف حب العبد لله تعالى ، وقوى عند العبد حب الدنيا حتى لا يبقى فى قلبه موضع لحب الله تعالى ، إلا من حيث ما يسمعه من حديث الناس ، فلا يظهر لهذا الحب أثر فى مخالفة نفسه والعدول عن طريق الشيطان ، فيتبع شهوات الدنيا حتى يسود قلبه ويقسو وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، فتطفىء نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفاً ، لما يبدو عنده من استشعاره مفارقة الدنيا ، فيختلج ضميره ويكره الموت وينكره من حيث أنه من الله تعالى ، فيثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب فإذا اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرات ، فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا .

فيعلم حينئذ أن كل من فارقته روحه فى حالة ما يخطر بباله إنكاره على الله تعالى فى تقدير الموت عليه وبغضه بقلبه لفعل الله فى تفريقه بينه وبين أهله وماله ومحبيه ، فإنه يقدم على الله قدوم العبد المبغض الكاره ، وكان جزاؤه عند الله الخزى والنكال . وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم المحب المشتاق إلى مولاه .

الرتبة الثانية — وهى أقل من الأولى وليست مقتضية الخلود فى النار ، فلها أيضاً سببان — السبب الأول — كثرة المعاصى وإن قوى الإيمان — والسبب الثانى — ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى . وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب لكثرة الألفة والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند الموت ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره عند الموت ذكر طاعة الله — وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى ، غلب ذكرها على

قلبه ، فربما تفيض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، ومعصية من المعاصى ، فيتقيّد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله سبحانه وتعالى . فالذى لا يرتكب المعصية إلا الحين بعد الحين ، فهو بعيد نوعاً عن هذا الخطر . والذى لم يرتكب ذنباً أصلا ، فهو بعيد جدا عنه . أما الذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته ، وأصبح قلبه يفرح بها أكثر من فرحه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم جداً بالنسبة له . وتعرف هذا بمثال ، وهو أن الإنسان يرى فى منامه كثيراً من الأحوال التى يراها فى نهاره ، فالذى قضى عمره فى دراسة الفقه يرى الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء فى منامه أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة . وكذلك التاجر يرى الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأن ما أشغل القلب فى اليقظة يظهر فى حالة النوم . والموت شبيه بالنوم . فعند سكرات الموت وما يتقدمه من الذهول يعود إلى القلب ما كان يألفه فى الحياة فيذكره . واعلم أن من وقفت سفينته فى لجة البحر وهبت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كان النجاة فى حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الخواطر أعظم إلتطاماً من أمواج البحر . والأمر والله أخوف ما يكون , والمخوّف فيه خاطر سوء يخطر عند خروج الروح فقط ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليَعمل بعمل أهل الجنةِ خمسين سنة حتى لا يَبْقى بينه وبين الجنة إلا فُواق ناقة فيُختم له بما سبق له الكتاب) (ق) . واعلم أن فُواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة لأنه وقت قصير ، بل هى الخواطر التى تخطر خطور البرق الخاطف . نجانا الله برحمته وكتب لنا وللمسلمين السلامة ، ولأجل هذا الخطر العظيم كان النطق بالشهادة محبباً عند الممات ، وكان موت الفجأة مكروهاً لأنه ربما يتفق عند مرور خاطر سوء واستيلائه على القلب . أما النطق بالشهادة عند الموت فهو عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى ، وقد خرج منه حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع المحبوبات الدنيوية — ختم الله لنا بخاتم السعادة ، وجعل آخر كلامنا من الدنيا الشهادة .

باب فى النهى عن تمنى الموت

عن أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به ، وإن كان لا بد فاعلا فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى)(م) وقال عليه السلام (لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد خيرا ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب) عن أنس . واعلم أن الموت كفارة لكل مسلم . قال عليه السلام (الموت كفارة لكل مسلم) (حل) قالت العلماء ، إنما كان الموت كفارة للمسلم لما يلقاه فى مرضه وفى قبره من الآلام بدليل قوله عليه السلام (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها) (م) - واعلم أن مصيبة الموت من أعظم المصيبات وقد سماه الله تعالى فى القرآن مصيبة . قال تعالى فأصابتكم مصيبة الموت) وأعظم من مصيبة الموت مصيبة الغفلة عن الموت والإعراض عن ذكره وقلة التفكير فيه والاستعداد له قبل نزوله .

باب فى فضيلة ذكر الموت

إعلم أن الموت أمر هائل وخطر عظيم ، والناس فى غفلة عنه لعدم تفكيرهم فيه وقلة ذكرهم له وسبب ذلك أن المنهمك فى الدنيا المنكب على متاعها المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت ، وإذا ذكره كرهه ونفر منه ، لأن ذكر الموت مؤلم لمثل هؤلاء والناس فى ذلك ثلاث . إما منهمك . وإما تائب مبتدىء ، وإما عارف منته . فالمنهمك الذى لا يذكر الموت وإذا ذكره فإنما يذكره للتأسف على فراق الدنيا . وأما التائب المبتدىء فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث منه فى قلبه الخوف من الله تعالى ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خوفاً من أن يختطفه قبل إعداد الزاد . وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقاء الحبيب ، والمحب لا ينسى مطلقاً موعد لقاء حبيبه ، وهذا النوع يتمنى الموت ليخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين - وأعظم من هؤلاء مرتبة الذى يفوض أمره لله فلا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى الله عز وجل وهذا منتهى فرط الحب والولاء .

وذكر الموت له فضائل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكثروا من ذكر هازم اللذات) (ت) . ومعنى ذلك أنه يجب على الإنسان أن ينغص لذاته دائماً بذكر الموت . وقال عليه السلام (لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً) (هب) . وقالت عائشة رضى الله عنها - يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد . قال (نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة) (ق) وسبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور والاستعداد للآخرة ويمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا . والغفلة عن الموت توجب الانهماك فى شهوات الدنيا ـ قال عليه السلام (كفى بالموت واعظاً) (طب) . وقال ابن عمر رضى الله عنهما أتيت النبى صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ، فقال (أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة) (ابن أبى الدنيا) ـ وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا .

قد علمت أيها القارىء أن ذكر الموت كان يخلع قلوب العارفين وهم المسلمون السابقون ، وما ذلك إلا لأنهم نظروا بعين الاعتبار ، فعرفوا المصير واستعدوا ليوم الرحيل ، وما كانوا والله أشد بأساً وأقوى صلباً ، ولكنها القلوب البصيرة والإيمان الكامل . وإنى أدلك على أقرب طريق لذلك ، وهو أن تكثر ذكر أصحابك وأهلك وأقرانك الذين ماتوا قبلك ، وتتأمل كيف كان موتهم ، وتتذكر صورهم وأحوالهم وأفعالهم وأصواتهم ، وتتأمل كيف محا التراب صورهم التى كانت جميلة ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف تركوا نساءهم فترملوا من بعدهم ، وفارقوا أولادهم فتيتموا بعد طول الأنس بهم ، وتركوا متاعهم وأموالهم وارتحلوا عن منازلهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم وأخبارهم . فمتى تذكر الإنسان أخاه الذى سبقه وكيفية موته ، وتذكر أفعاله وحديثه ، وتأمل كيف كان يعمل ويكد فى الحياة ويسعى وراء العيش ناسياً الموت ، مرتكناً على قوته وشبابه ، وكان منغمساً فى

الضحك واللهو والغفلة . وكيف كان يمشي ويمرح ويفرح ، والآن قد انفصلت رجلاه وتهدمت أوصاله ، وقد أكل الدود لسانه ، وذابت عيناه ، فأصبحت إذا نظرت إلى بقيا عظامه هالك منظره ، وفزعت من رؤية عظم وجهه ، ولم تطق رائحة نتنه ، مع أنه كان أخاك الشفوق ، أو أباك الحنون ، أو ولدك البار ، أو صديقك الحميم ، أو أمك التي شقيت لتربيك ، أو أختك التي كانت تفرح لفرحك وتحزن لحزنك ، أو زوجتك التي أخلصت في عشرتك ، ولكن هو الموت ، هو هازم اللذات ، ومفرق الأحباب ، هو مشتت الجماعات ، قد فعل بهم ما فعل ، وأضر بهم وقت ما نزل ، فسمعوا النداء إما إلى الجنة وإما إلى النار . أيها الغافل — هل يلين قلبك القاسي بعد هذه الذكرى المؤلمة ، وينصرف عن الدنيا الفانية ، ويقبل على دار الآخرة ، ولم يكن بينك وبينها إلا مقدار خروج نفسك أو أقل ، فتصير إلى ماصار اليه السابقون ، فيأنف من رؤياك أهلوك ، ويفزع منك أحبابك . قل لي يا قاسي القلب ، وأنت من العدم خلقت ، وإلى العدم صائر ، وياجبار وأنت من الضعف وجدت وإلى الضعف سائر — ماذا أنت فاعل — انتبه من غفلتك ، فان الأمر عظيم ، وأفق من رقدتك فان الخطر جسيم — اعتبر بمن مضى ، واطلب من المولى الرحيم أن يقبلك ، فتكون من رحمته قريب ، في يوم لا ينفع فيه صاحب ولا قريب . واعلم هدانا وهداك الله — أن ملازمة هذه الأفكار وكثرة زيارة المقابر ومشاهدة المرضى ، مما يجدد ذكرى الموت في القلب ، حتى يغلب عليه ، بحيث يصير نصب عينيك ، فعند ذلك يمكن أن تستعد له ، وتتجافى عن دار الغرور ، وتكره ما فيها — نظر ابن مطيع رحمه الله يوماً إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال ، والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته رحمه الله .

باب في سكرات الموت وكربه

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب ، سوى سكرات الموت وحدها لكان حقيقة بأن يتنغص عيشه ويتكدر عليه سروره ،

ويفارقه سهوه وغفلته ، وحق عليه أن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لاسيما والموت فى كل نفس يطلبه، كما قال بعض الحكماء — كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك — واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنه يعرفها . إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها فى حياته ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع من شدة ما هم فيه من الكرب . فأما القياس فهو أن كل عضو لاروح فيه لايحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فإنه يحس ، فالمدرك حينئذ للألم هو الروح ، فمتى أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فيتألم ، وفى هذه الحالة يكون الألم موزعاً على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلايصيب الروح إلا القليل ، ولكن إذا كان الألم فى نفس الروح ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده لأن النزع عبارة عن ألم نزل بنفس الروح فاشتمل على جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . لأن الروح حينئذ هو المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، ومن كل عصب من الأعصاب ومن كل مفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة من مفرق الرأس إلى القدم ، فلا تسأل وقتئذ عن كربه وألمه ، فقد قيل إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقارض ، واعلم أن المضروب بالسيف يستغيث ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه — أما الميت فقد انقطع صوته وصياحه مع شدة ألمه ، لأن الكرب قد تغلغل فيه وتصاعد على قلبه وغمر كل جزء منه ، فهد كل قوته وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة والصياح . أما إذا بقيت له قوة لسمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا أو غرغرة من حلقه وصدره تصم الآذان ، وتفتت الأكباد ، فترتفع الحدقتان ، وتتقلص الشفتان ، ويرجع اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعلى موضعهما ، وتخضر أنامله ، ثم يموت كل عضو من أعضائه ، فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تقبل توبة العبد ما لم يغرغر) (ت) وقال عليه السلام (اللهم هون على محمد سكرات الموت)

والناس إنما لا يستعيذون منه لجهلهم به ، لأن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام من الموت حتى قال عليه الصلاة والسلام (اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل اللهم فأعنى على الموت وهوّنه علىّ) (ابن أبي الدنيا) وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه ، فقال (هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف) (ابن أبي الدنيا) وروى أنه كان عنده صلى الله عليه وسلم قدح من ماء عند الموت فجعل يُدخل يده فى الماء ثم يمسح بها على وجهه ويقول (اللهم هوّن علىّ سكرات الموت) (ق) وفاطمة رضى الله عنها تقول واكرباه يا أبتاه ، وهو يقول (لا كرب على أبيك بعد اليوم) (خ) .

فهذه سكرات الموت عند أنبياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت ، بقية الدواهى فإن دواهى الموت ثلاث — الأولى شدة النزع كما ذكرنا — والثانية مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب — الداهية الثالثة — وهى مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ، فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحدى البُشريَيْن إما أبشر ياعدوّ الله بالنار ، أو أبشر ياولىّ الله بالجنة . قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وأن الكافر إذا حضره بشر بعذاب الله وعقوبته) (من الصحيحين) ودخل مروان على أبى هريرة فى مرض موته فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشْدُدْ ثم بكى وقال والله ما أبكى حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن انتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار . وقال الحسن لا راحة للمؤمن إلا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . نكتفى بهذا القدر ونسأل الله الكريم الرحيم أن يهوّن علينا جميعاً سكرات الموت ، ويخفّف عنا كربه برحمته .

باب فى أحوال المحتضر عند الموت

إعلم أن المستحب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبـــه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (أرقبوا الميت عند ثلاث، إذا رشح جبينه ، ودمعت عيناه ، ويبست شفتاه ، فهو من رحمة الله قد نزلت به، وإذا غط غطيط المخنوق ، واحمر لونه ، واربدت شفتاه ، فهو من عذاب الله قد نزل به) (ت) وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهى علامة الخير قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) (ق) . وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله ، فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون مالا ترون ، ولقنوهم لا إله إلا الله . واعلم أن معنى لا إله إلا الله عند الموت ، هو أن يموت الرجل وليس فى قلبه شىء غير الله تعالى ، فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحـــد الحق ، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم . أما إذا كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متأسفاً على لذاتها ، وكانت الشهادة على رأس اللسان ولم يثبت القلب على تحقيقها ، وقع الأمر فى خطر المشيئة ، لأن مجرد حركة اللسان قليل الفائدة ، إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب فى هذا الوقت ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ذُكرت فى غير هذا الباب . ودخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال (كيف تجدك) قال أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام (ما اجتمعتا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللهُ الذى يرجوه وأمّنه من الذى يخافه) (ق) ويستحب أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لـكى يحسن ظنّه بربه .

باب فيما يُفعل بالمحتضر

من السنة أن يوجّه مَن حضرته الوفاة إلى القبلة ، بأن يُجعل على جنبه الأيمن ووجهه لها ، إن كان فى الإمكان ذلك ، وإلا وُضع على ظهره ورجلاه للقبلة ، وترفع

رأسه قليلا ليصير وجهه اليها ، ويلقن الشهادة ليقولها ، قال صلى الله عليه وسلم (لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله فإنه ليس مسلم يقولها عند الموت إلا أنجته من النار) (ق) وقال عليه السلام (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) (ق) — ولا يلح عليه متى نطق بها إلا إذا تكلم بكلام أجنبى ، فانه يعاد له التلقين ليكون النطق بها آخر كلامه من الدنيا — ويستحب تلقينه بعد الفراغ من الدفن وتسوية التراب عليه ، ويندب أن يدخل عليه حال احتضاره أحسن أهله وأصحابه وأحبهم اليه ، وأن يكثر من الدعاء له وللحاضرين ، ويندب أن يبعد عنه الحائض والنفساء والجنب ، ومن يكرهه ، وكل شىء تكرهه الملائكة كآلة اللهو والغناء والكلاب ، ويندب أن يوضع عنده طيب ، ويستحب أن يقرأ عنده سورة (يس) فقد جاء فى الحديث (مامن مريض يقرأ عنده (يس) إلا مات ريان وأدخل قبره ريان وحشر يوم القيامة ريان) (د). ومن السنة تغميض عينيه ، وأن يقول مغمضه ، بسم الله وعلى ملة رسول الله ، اللهم اغفر له وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الفائزين ، واغفر لنا وله يارب العالمين ، وفسح له فى قبره ونور له فيه . أما كيفية الغسل والتكفين وحمل الميت وتشييع الجنازة ، فمبينة فى كتب الفقه ، وماورد فى فضيلتها مبين فى الأبواب الآتيه .

باب فى بيان حقيقة الموت

إن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها — فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لاحشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأى الملحدين ورأى كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وظن قوم أن الإنسان ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر . وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وأن المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا . فاعلم أن كل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، وأن الذى تنطق به الآيات والأخبار هو أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومفارقتها للجسد معناه انقطاع

تصرفها عنه وخروجه عن طاعتها ، لأن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، فتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . ونقول هنا أن القلب عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء من غير واسطة آلة ، ولذلك قد تتألم الروح بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور ، ولا دخل للأعضاء فى ذلك ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد — أما ما يحصل بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إليه ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . بحسب ما حكم الله به على كل عبد من عباده . وإنما تعطيل الجسد بالموت يشبه تعطيل بعض الأعضاء فى الحياة بفساد يقع فيها ، مثل الشلل ، فهو يمنع نفوذ الروح فى العضو الذى حل به فى الوقت الذى تكون فيه الروح باقية مستعملة لباقى الأعضاء الغير مصابة . وبيان ذلك أن العضو متى حل به الشلل فقد استعصى على الروح ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها لتعطيلها جملة واحدة . وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح ، ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء فلم تبطل صفة العلم والإدراك للأفراح والغموم ، ولا يبطل منها شعورها للآلام واللذات — والإنسان بالحقيقة هو هذه المعانى وهى باقية لا تنعدم بانعدام الجسم ، نعم ، تغير حال الإنسان من جهتين — إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه أيضاً ماله ودوابه وعقاره وسائر أملاكه — أما الحالة الثانية فهى أن ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً فى النوم — (والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) — وأول ما ينكشف للعبد ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، وهو ما قام الكرام الكاتبون بإثباته ، وقد كان مسطوراً فى كتاب مطوىّ فى سرّ قلبه ، وكان يحجبه عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له الحجاب ، فرأى جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا وتحسر عليها تحسرا شديدا ، يفضل أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة . وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفَس مباشرة ، وقبل الدفن ،

فتشتعل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يحبه من هذه الدنيا إلا ما كان منها لأجل الزاد والكفاف .

واعلم أن صحيفة العبد تنشر مرتين . مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى . وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته) (ابن أبى الدنيا) فقيامة الموت خاصة بالعبد وحده ، وعندها يقال له (ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرّة) وفيها يقال (كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً) وقال عليه الصلاة والسلام (إذا مات أحدُكم عُرض عليه مقعدُه غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار . ويُقال هذا مَقعدُك حتى تبعث إليه يومَ القيامة) (ق) . ويوم القيامة هو القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلق ، فلا يكون الانسان وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة ، والمجرمون إلى النار زُمرا لا أفرادا — واعلم — نجّانا ونجاك الله — أن الهول الأول هو القيامة الصغرى ، وهو مشابه لهول القيامة الكبرى ، ولكن نسبتهما لبعض كنسبة الولادة الصغرى للولادة الكبرى — والولادة الصغرى هى خروج الإنسان من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام — والولادة الكبرى هى خروجه من مضيق الرحم إلى فضاء العالم — فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم . فالعبد المقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة — أما المقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى فهو فى غاية الجهل والضلال .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقب موته من سعة جلال الله ، ما تكون الدنيا بالنسبة له كالسجن ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فُتح له باب إلى بستان واسع الأرجاء لا يبلغ طرفه أقصاه ، فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم ، وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا فقال لرجل مات (أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدُكم أن يرجع إلى بطن أمه) (ابن أبى الدنيا) .

فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولوا البصائر بمشاهدة باطنية أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . وقد رُوى أن الميت يعلم ما يكون فى أهله بعده ويعرف من يغسله ومن يكفنه . قال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الميت يعرف من يُغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره) (أحمد) وقال عليه السلام (لا تفضحوا أمواتكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور) (ابن أبى الدنيا) . وقال مجاهد إن الرجل ليبشَّر بصلاح ولده فى قبره . وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا ، يقولون أنظروا أخاكم حتى يستريح فانه كان فى كرب شديد ، فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة هل تزوجت فلانة ؟ فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى ، قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب إلى أمه الهاوية) (طب) نجانا الله وإياكم من ذلك .

باب فى ما يجب أن يقال عند موت الولد أو القريب

يجب على من مات ولده أو قريب له أن يعتبر ذلك كما لو كان فى سفر هو وابنه فسبقه الابن إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، ولا يعظم حزنه عليه ، لعلمه أنه سيلحق به قريباً ، وليس بينهما إلا تقدم هذا وتأخر هذا . وهكذا الموت ، فان معناه أن يسبق أحدنا إلى أن يلحق به الآخر . فاذا ما اعتقد الانسان هذا قل جزعه وحزنه ، ولاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب ما يهون به كل مصاب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لسقط أقدمه بين يدىّ أحب إلى من فارس أخلفه خلفى) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى ، بل فى الحقيقة يكون الثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال عليه الصلاة والسلام (من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحِنْثَ أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم) قيل يا رسول الله واثنان قال (واثنان) (خ) (الحِنث) البلوغ . ويجب على الوالد أن يخلص الدعاء لولده عند الموت ، فانه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . نظر رجل إلى امرأة بالبصرة وكانت نضرة الوجه

فقال ما رأيتُ مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن ، فقالت يا عبد الله ، إنى لفى حزن ما يشركنى فيه أحد ، قال فكيف ، قالت إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى وكان لى ولدان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر ، أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة ، قال نعم ، فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا متشحطاً فى دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فأدركه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يبحث عنه فمات عطشاً من شدة الحرّ ، قالت فنكبنى الدهر كما ترى فصَبَرْتُ — فانظر أيها المسلم رحمك الله كيف تحملت المصيبة مع عظمها بالصبر كى تنال الأجر . فأمثال هذه ينبغى أن يتذكرها الإنسان عند موت الأولاد والأقارب ليتسلى بها فى شدة الجزع . واعلم أنه ما من مصيبة إلا وهناك أعظم منها ، وما يدفعه الله تعالى برحمته عن العبد فهو أعظم .

باب فيما ورد فى حفر القبور وتغسيل الموتى وتكفينهم

عن أبى رافع رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من غسل ميتا فكتم عليه غفر الله له أربعين كبيرة . ومن حفر لأخيه قبرا حتى يجنبه فكأنما أسكنه مسكناً حتى يبعث) (طب) . وقال عليه السلام (من غسل ميتاً فكتم عليه طهره الله من ذنوبه . فان كفنه كساه الله من السندس) (طب) وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من غسل ميتاً فأدى فيه الأمانة ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (أحمد وغيره)

باب فى تحسين الكفن والاسراع بالدفن

قال عليه الصلاة والسلام (إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه) (م) وقال عليه السلام (اسرعوا بالجنازة فان تك صالحة فخير تقدمونها اليه . وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم) (ق) . وفى رواية للبخارى (إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فان كانت صالحة قالت قدمونى قدمونى وإن كانت غير صالحة قالت يا ويلها أين تذهبون بها . فيسمع صوتها كل شىء إلا الانسان ولو سمعه لصعق) . والمراد بالاسراع ما يشمل غسلها وتكفينها وحملها والمسير بها ؛ وعن على

رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له (يا على ثلاث لا تؤخرها . الصلاة إذا أتت . والجنازة إذا حضرت . والأيم إذا وجدت لها كفؤا) (البغوى) .

باب فى كثرة المصلين على الجنازة وفى التعزية

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه) (م و ن) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه) (م و د) وعن مالك بن هبيرة رضى الله عنه قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب) وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة جزأهم ثلاثة صفوف لهذا الحديث (د) . قوله (أوجب) أى وجبت له الجنة . وقال عليه السلام (ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حلل الكرامة) (ه) .

باب فى تشييع الميت وحضور دفنه

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق المسلم على المسلم ست) قيل وما هن يا رسول الله . قال (إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه . وإذا استنصحك فانصح له . وإذا عطس فشمته . وإذا مرض فعده . وإذا مات فاتبعه) (م وغيره) وقال عليه السلام (عودوا المرضى واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة) (أحمد) وقال عليه السلام (من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان) قالوا وما القيراطان قال (مثل الجبلين العظيمين) (خ) وقال عليه السلام (من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فانه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فانه يرجع بقيراط) (خ) .

باب فى أقاويل العارفين على الجنائز

اعلم أن الجنائز عبرة للمبصرين ، وفيها تنبيه وتذكير لهم ، أما أهل الغفلة فإنها لاتزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم سَيَحْمِلون غيرَهم وأمّاهم فلا يُحملون أبداً ، وقد جهلوا أن المحمول اليوم كان بالأمس يظن هذا الظن فداهمه الموت وصار إلى ماكان لايحسب له حساباً . فينبغى على العبد إذا رآى جنازة يقدر أنه سيعقبها مباشرة ، وأن أجله سيأتيه عما قريب . وكان السلف إذا رأوا الجنازة لم تعرف أهل الميت من غيرهم لحزن الجميع ، أما الآن إذا نظرت إلى جماعة يحضرون جنازة ترى أكثرهم يضحكون ولا يتكلمون إلا فى مساوىء الميت مخالفين فى ذلك الشرع متعرضين لمقت الجبار، وكذا لايفكر أهله وأقاربه إلا فى الحيلة التى يستولون بها على شىء من التركة ، إن كان الميت من أرباب التركات ، فلايتفكر أحد فى جلال الموت وماسيصير إليه عما قريب . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب من كثرة المعاصى حتى نسوا الله تعالى ونسوا اليوم الآخر ونسوا الأهوال التى بين أيديهم بانكبابهم على الدنيا وطول آمالهم فيها ، نسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة . واعلم أنه من آداب حضور الجنائز التفكر فى جلال الموت والمشى بتواضع وخشوع ، وعدم الكلام إلا بذكر الله وأن تحسن الظن بالميت ولو كان فاسقاً ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مرتكباً ، فامتنع كثير من الناس عن المشى فى جنازته ، فحضرها عمر وصلى عليها فلما أنزل الميت فى قبره وقف على القبر وقال يرحمك الله ياأبا فلان فلقد مضيت عمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا .

باب فى بيان حال القبر والاقاويل عند القبور

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مارأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه)(ت) وعن عمر رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر ، فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكيت وبكوا فقال (مايبكيكم) قلنا بكينا لبكائك قال (هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ،

فاستأذنت أن استغفر لها فأبى على فأدركنى مايدرك الولد من الرقة) (ابن أبي الدنيا) وكان سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفت على قبر ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد) (ت) وقال مجاهد ، أول مايكلم ابن آدم حفرته ، فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فماذا أعددت لى . وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم .

باب فى زيارة القبور والدعاء للميت والثناء عليه

إعلم أن زيارة القبور مستحبة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن بعد ذلك فى زيارتها (م) . روى عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هَجراً) (هذيانا) (أحمد) وقال ابن أبى مليكة أقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أمّ المؤمنين من أين أقبلت؟ فقالت من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه . قالت نعم ثم أمر بها ، (ابن أبي الدنيا) ولا ينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج إلى المقابر فانهن يكثرن (الهذيان) على رؤوس المقابر ، فلا يفى خير زيارتهن بشرّها ، ولا يخلونّ فى الطريق عن كشف وتبرج ، نعم لا بأس بخروج المرأة مختفية عن أعين الرجال وبشرط الاقتصار على الدعاء وعدم الحديث على رأس القبر . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (زر القبور تذكر بها الآخرة وغسل الموتى فان معالجة جسد خاوٍ موعظة بريئة وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك أن يحزنك فان الحزين فى ظلّ الله) (ك) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من زار قبر أبويه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب باراً) (طب) وقال ابن سيرين قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارّين) (ابن أبي الدنيا).

وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به وردّ عليه حتى يقوم) (ابن عبد البر) وقال بشار بن غالب النجرانى رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى وكنت كثير الدعاء لها، فقالت يا بشار بن الغالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير، قلت وكيف ذلك. قالت هكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستُجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فاذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا ومافيها وان هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار) (أبو منصور) والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبراً القبلة مستقبلا لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك ليس من عادة المسلمين. ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. قال أحمد بن محمد المروزى سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل إليهم. فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار وللميت الانتفاع بدعائه. ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكر إلا بالجميل.

قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه) (د) وقال عليه الصلاة والسلام (لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه) (ن) وقال عليه السلام (لا تسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) (خ) وقال أنس بن مالك مرت جنازة على رسول الله صلى الله علية وسلم فأثنوا عليها شراً فقال عليه السلام (وجبت) ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال عليه السلام (وجبت) فسأله عمر عن ذلك فقال (إن هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار وأنتم شهداء الله فى الأرض) (ق) وقال أبو هريرة قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى) (أحمد) .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال (استغفروا لأخيكم واسألوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل) (د) . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم (أيما يسلم شهد له أربعة نفر بخير أدخله الله الجنة) قال فقلنا وثلاثة . قال (وثلاثة) . فقلنا وإثنان قال (وإثنان) ثم لم نسأله عن الواحد . رواه البخارى .

باب فى كيفية حصول المكاشفة بعين البصيرة

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الإعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ، ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف بذلك أصلا . لأننا إذا عولنا على إيمان العبد فلا ندرى على ماذا مات ، وكيف ختم له . وإن عوّلنا على الصلاح الظاهر ، فالتقوى محلها القلب ، وهذا غامض يخفى على صاحب التقوى نفسه ، فلا حكم لظاهر الصلاح أيضا دون التقوى الباطنية ، قال الله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) فلا يمكن الحكم على زيد أو عمرو إلا بمشاهدته بعد موته ، ومشاهدة مايجرى عليه ، فاذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى ، وهذه العين خلقت فى قلب كل إنسان ، ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية . فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه . ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين قلوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا عجب أن نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه — والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا بأحوالهم ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ (أحمد) وفى حق زينب ابنته ، ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم ،وإنما الممكن فى حق

أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة وأعنى بها المشاهدة فى المنام ، لكنها من أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) (خ) وهى أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فمتى صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى (لقد صَدَقَ الله رسوله الرؤيا بالحق لتَدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء اللهُ آمنين) (ابن أبى حاتم)

والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى ؛ وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم . والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن الخوض فيه ، والقدر الذى يمكن ذكره على سبيل المثال كى نفهم المقصود ، هو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ماقدره الله تعال من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح المحفوظ ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ، كما ورد فى القرآن الكريم . فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين ، ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من ورق ، بل ينبغى أن تفهم تماماً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم ، فإن كنت تريد مثالا يقرب تصور اللوح إلى فهمك ، فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يشبه ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر ، فمن هذا النمط ينبغى ن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه . واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة هذه المرآة مرآة أخرى ، لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى المرآة الأخرى ، إلا إذا كان بينهما حجاب يحجبها ، فالقلب مرآة تقبل رسول العلوم ، واللوح مرآة موجودفيها رسوم العلوم كلها ، ولكن اشتغال القلب

بشهواته وأعمال الحواس حجاب مسدل بين القلب وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، ولكن إذا هبت ريح وحركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وما دام الإنسان متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس على القلب ومعنى النوم أن تركد الحواس فلا تورد شيئا على القلب ، فإذا تخلص من مشاغل الحواس وكان صافيا فى جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فيقع فى القلب شىء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . هذه نبذة يسيره من بحر علم الرؤيا التى بها تحصل المكاشفة . واعلم أن النوم لا تنحصر عجائبه لأنه أخ الموت . قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) ولكن الموت هو أعجب العجائب ، فالنوم يكشف جزءاً ضعيفاً من غطاء عالم الغيب حتى يرى النائم ماسيكون فى المستقبل برؤية يراها ، أما الموت فهو الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الأنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير . نفسه إما محفوفة بالانكال والمخازى والفضائح — أعاذنا الله وإياكم من ذلك — وإما مكنوفاً بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لقد كنتَ فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فأعلمُ العلماء وأحكم الحكماء ، ينكشف له عقب الموت مباشرة من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ، ولا اختلج به ضميره فى حياته . فتأمل أيها الغافل فى ذلك ، فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا التفكرُ فى خطر تلك الحال ، وعماذا يرتفع الحجاب ، وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أو سعادة دائمة ، لكان ذلك كافياً فى تطهير قلبه ودوام وقايته من أمراض الذنوب ، بملازمة الطاعات مدى الحياة .

بعض منامات الصالحين تكشف عن احوال الموتى

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله علية وسلم ، وقد قال عليه السلام (من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فان الشيطان لا يتمثل بى) (ق) وقال العباس رضى الله عنه ، كنت مؤاخيا لابى لهب وصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى أمره ، فسألت الله تعالى حولا أن يرينى إياه فى المنام ، قال فرأيته يلتهب ناراً

فسألته عن حاله فقال صرت الى النار فى العذاب لا يخفف عنى ولا يروح الا فى
ليلة الاثنين فى كل الايام والليالى ، قلت وكيف ذلك ، قال ولد فى تلك الليلة محمد صلى
الله عليه وسلم فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة اياه ففرحت به وأعتقت وليدة
لى فرحاً به ، فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العقاب فى كل ليلة اثنين . وقال عبدالواحد
ابن زيد خرجت حاجا فصحبنى رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا
يسكن إلا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال . خرجت أول
مرة إلى مكة ومعى أبى فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل فبينا أنا نائم إذ أتانى
آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ، قال فقمت مذعوراً فكشفت
الثوب عن وجهه فاذا هو ميت أسود الوجه فداخلنى من ذلك رعب فبينا أنا فى ذلك
الغم إذ غلبتنى عينى فنمت فاذا على رأس أبى أربعه سودان معهم أعمدة من حديد
إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده
ثم أتانى فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك فقلت له من أنت بأبى وأمى فقال أنا
محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى فاذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد
ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له إنك كنت تقول أبداً فى لسانك ، هذا
أوردنى الموارد فماذا فعل الله بك ، قال قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة ، وقال
يزيد بن مذعور رأيت الأوزاعى فى المنام فقلت يا أبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به
إلى الله تعالى ، قال مارأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين .
قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه . وقال الكتانى رأيت الجنيد
فى المنام فقلت له مافعل الله بك؟ قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات
وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما بالليل . ورؤيت زبيده فى المنام فقيل لها
مافعل الله بك؟ قالت غفر لى بهذه الكلمات الأربع ، لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله
إلا الله أدخل بها قبرى . لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى .
ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة وكأن مناديا
ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض . وقال الربيع بن سليمان

رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام ، فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال أجلسنى على كرسى من ذهب ، ونثر على اللؤلؤ الرطب . وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية اخبرينى عن الآخرة . قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل ، وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها . هذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى الله تعالى .

بعض ما ورد فى كلام القبر للميت

— وهو بلسان الحال لا بلسان المقال —

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بى ، ألم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ، ما غرك بى إذ كنت تمر بى فذاذاً ، فان كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيقول القبر إنى إذاً أتحول عليه خضراً ، ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى) (طب) والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شىء إلا قبره ، يقول ويحك يا ابن آدم أليس قد حذرتنى وحذرت ضيقى ونتنى وهولى ودودى فماذا أعددت لى) (ابن أبى الدنيا) . وقال يزيد الرقاشى بلغنا أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت ، أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهل فلا أنيس لك اليوم عندنا .

باب فى القول فى عذاب القبر ونعيمه

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكساً رأسه ثم قال (اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر) ثلاثاً إلى آخر الحديث (د ك) وقال أبو هريرة

قال النبي صلى الله عليه وسلم (المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، وهل تدرون فيما نزلت (فان له معيشة ضنكى) قالوا الله ورسوله أعلم. قال (عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون) (حب). ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة التى يتصف بها العبد. فان قلت فنحن نشاهد الكافر فى قبره ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق ونحن لا نرى شيئاً؟ فاعلم أن لك مقامان فى التصديق بأمثال هذا.

المقام الأول — وهو الأظهر والأسلم، أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت، ولكنك لا تشاهد ذلك، فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الغيبية.

المقام الثانى — أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح فى نومه ويعرق جبينه ولكنك ترى أن النائم بجوارك ساكناً ولا ترى بجانبه حية، والحية يراها هو موجودة بجانبه تنهشه والعذاب حاصل له.

فيا أيها العبد هذا هو الحق فصدق به تقليداً، ودع التعصب والجدال فانه يعز وجود أحد على ظهر الأرض الآن يعرف ذلك بالتحقيق، فأوصيك أن لا تطيل نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب والخلاص منه كيفما كان، فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك وعن غيره مما لا تقدر على فهمه ولا إدراك معناه، كما هو حال بعض من يدعون المعرفة فى هذا الزمن، كنت كمن أخذه السلطان وحبسه ليقطع يده ورجله فى الصباح، فأخذ طول الليل يفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف، وأهمل التفكر والاشتغال لدفع العذاب عن نفسه باسترضاء السلطان وتقديم ما يشفع له عنده، وهذا غاية الجهل والحمق. والأخبار الواردة فى عذاب القبر كثيرة وقد ذكرت لك بعض استعاذات الرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر فى بابه فطالعه، ولأهمية هذا الباب أردت أن أزيد القارىء بياناً بما اطلعت عليه فى كتب السلف، قال الشيخ عبدالوهاب الشعرانى

فى المبحث الرابع والستين من اليواقيت والجواهر « قال الجلال المحلى رحمه الله ويكون عذاب الله تعالى — فى القبر — للكافرين ولمن شاء الله تعذيبه من الفاسقين فقط ، فترد روح المعذَّب إلى جسده كله أو ما بقى منه ، فإنه لا يمتنع إحياء بعض الجسد ، وإن كان ذلك خلاف العادة ، لأن خرق العادة غير ممتنع فى مقدور الله عز وجل» . انتهى . وقال الكمال فى حاشيته « وقول أهل الأصول إن سؤال منكر ونكير وعذاب القبر ونعيمه حق ، جرى على الغالب ، وإلا فالحق أن ذلك لا يختص بالقبر المعروف ، فيحس بالعذاب من أكله السمك والسباع وغير ذلك » — وقال الشعرانى رحمه الله يرد على المعتزلة والروافض الذين ينكرون عذاب القبر ، وإذا قصرت عقولكم أيها المعتزلة عن إدراك هذه الأشياء فلا تنكروه ، وصدقوا الأخبار الصادقة الواردة فى ذلك ، ومن الدليل على عذاب القبر قوله تعالى (سنعذبهم مرتين) أى مرة فى الدنيا بالفضيحة أو القتل ، ومرة فى القبر ، وقوله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) أى فى البرزخ بدليل قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب). انتهى . وقال الشيخ محيى الدين بن العربى « فان قلت فلم حجب الثقلان أى (الإنس والجن) عن سماع كلام الميت وشهود عذابه أو نعيمه دون البهائم ، (فالجواب) إنما حجب الثقلان دون غيرهما لأنهما من عالم التعبير ، بخلاف غيرهما ، فان الناس لو أبصروا شيئاً من أحوال الموتى لأخبر بعضهم بعضاً ، كما أشار اليه خبر (لولا أن تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم عذاب القبر) (م) فعلم كما قال الشيخ فى الباب الثامن والسبعين وثلثمائة من الفتوحات المكية — أن كل من رزقه الله تعالى الأمانة من الأولياء سمع عذاب القبر ، وسمع كلام الشياطين حين يوحون إلى أوليائهم ليجادلون ، وأن الله تعالى ما أخذ بأسماع الجن والأنس وأبصارهم إلا طلباً للستر ، لأن المكاشف لو أفشى ذلك ، لأبطل حكمة الوضع الإلهى ، من وجوب الإيمان بالغيب ، فإنه كان يصير شهادة » انتهى — قد ظهر لك بما قررناه أنه لا يقدح فى صحة نعيم القبر وعذابه كون أبصار أهل الدنيا لا تدركه — وإليك ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث القبرين — قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال (إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير ،

أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لايستنزه من بوله) فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال (أما انه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين) أو (ما لم ييبسا) (ابن أبي الدنيا)

وفى الصحيحين ذكر النميمة بدل الغيبة . ولأحمد باسناد جيد و (طب)

ـــ وقال الشيخ محي الدين فى الباب السادس والعشرين ومائة من الفتوحات المكية فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) (ت) « المراد بهذه الجنة وهذه النار جنة البرزخ وناره ، لا الجنة والنار الكبيرتان اللتان يدخلهما الناس بعد الحساب والمرور على الصراط » والله أعلم .

باب فى سؤال منكر ونكير فى القبر وضغطه على الميت

قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر والآخر نكير ، فيقولان له ما كنتَ تقول فى النبى ، فان كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم انك تقول ذلك ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فى قبره ، ثم يقال له نم ، فيقول دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنتُ أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك) (ت) وقال صلى الله عليه وسلم (إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ) (احمد) وعن أنس قال توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة فلما خرج اسفر وجهه ، فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأناً فم ذلك ، قال (ذكرت ضغطة ابنتى وشدة عــــذاب القبر فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين)

(ابن أبي الدنيا) وذكره الحاكم فى المستدرك وقال الشعرانى رحمه الله فى ــ اليواقيت والجواهر ــ فأما سؤال منكر ونكير ، . فقال أهل السنة أن يكون لكل ميت ، سواء كان فى قبره أو فى بطون الوحوش أو الطيور أو مهاب الريح بعد أن أحرق وذرى فى الريح ــ نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت .

باب فى صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ، ثم مقاساة ظلمة القبر وديدانه ، ثم رؤية منكر ونكير وسؤالهما ، ثم عذاب القبر وضغطه على الميت ، إن كان مغضوباً عليه ، وأعظم من ذلك كله ، الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم المرور على الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء وعند فصل القضاء ، إما بالإسعاد وإما بالإشقاء ، فهذه أهوال لا بد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، فأرجو تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ، ويدل على ذلك شدة استعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها ، قال النبى صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى ، أما شتمه إياى فيقول ان لى ولداً ، وأما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى) (خ) فكيف ينكر البعث من يشاهد قدرة الله فى خلقه ، فإن كان فى إيمانك ضعف فقوه بالنظر فى النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الايمان بها ، فتفكر فى المخاوف والأخطار ، وما تلاقيه عند العرض على الملك الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى ، فيثورون دفعة واحدة ، فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من تراب قبرك ، مبهوتاً من شدة الصعقة ، شاخص العين نحو النداء ، قال تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقال تعالى (ونفخ فى الصور

فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) فلو لم يكن بين يدى العبد إلا هول تلك النفخة ، لكان ذلك كافياً بأن يتنغص عليه عيشه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ، ينتظر متى يؤمر فينفخ) (ت) وقال مقاتل الصور هو القرن وذلك أن اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض ، أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ، ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح اسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيى الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية ، فذلك قوله تعالى (ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

باب فى صفة أرض المحشر وأهله

أنظر أيها العبد كيف تساق الخلائق بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، وهى أرض بيضاء لاترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً ، فلا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد منبسط يساقون إليه زمراً ، فسبحان من يجمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ، ليس فيها مَعلم لأحد) (ق) والعفرة بياض ليس بالناصع ، والنقى هو النقى عن القشر والنخالة . ومَعلم أى الأثر ومعناه إنها لم يمش عليها أحد قبل . ولاتظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لانسبة بينها إلا فى الاسم فقط ، قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قال ابن عباس أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات يذهب شمسها وقمرها ونجومها ، فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس

والقمر وأظلمت الأرض، فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم وانشقت والملائكة قيام على أرجائها ، فيا هول صوت انشقاقها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان) قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث ، قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ، فقال عليه الصلاة والسلام (شغل الناس عن ذلك مابهم، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (طب) (غرلاً) أى ترد إليه ماقطع منه فى الختان يعنى الطهارة ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ، ركباناً ومشاة وعلى وجوههم) ، فقال رجل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال (الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم) (ت)

باب فى صفة العرق

ثم تفكر أيها العبد فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرفت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها ثم اقتربت من رءوس الخلائق كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ، ولم يستظل به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، ومن بين متعرض لحر الشمس قدصهرته بحرها واشتد كربه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً من شدة الزحام واختلاف الأقدام ، ويضاف إلى ذلك شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والخزى عند العرض على جبار السماء . ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ آذانهم) (ق) فتأمل يا مسكين — فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وارجع إلى صوابك فانك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس . فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه

ومنهم من يبلغ نصف الساق . ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه . ومنهم من يبلغ إلى العجز ، ومنهم من يبلغ الخاصره . ومنهم من يبلغ منكبيه . ومنهم من يبلغ عنقه . ومنهم من يبلغ رأسه) . وأشار بيده على فمه وقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير هكذا (ومنهم من يغطيه عرقه) . وضرب بيده وأشار وأمرَّ يده فوق رأسه من غير أن يمس الرأس ودور كفيه يميناً وشمالا . (رواه أحمد والطبراني وغيرهما) .

باب فى صفة طول يوم القيامة ودواهيه وأساميه

يوم القيامة يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لا يتكلمون ولا ينظر فى أمورهم ، قال تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال عبد الله بن عمر تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال (كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم) (طب) فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك صبرك عن المعاصى فى عمرك القصير — واعلم أنه من طال انتظاره فى الدنيا للموت مع مقاساته للصبر عن الشهوات ، فانه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال (والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا) (هب) فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا ، فإنك لو عشت عمر الدنيا وتعبت فى العبادة لتخلص من يوم مقداره خمسون ألف سنة لكان ربحك كثيراً وتعبك يسيرا ، فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه أراك قد شبت يا رسول الله قال (شيبتنى هود وأخواتها وهى الواقعة

والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت) (ت) فيا أيها القارىء لو كنت متفكراً فيما تقرأه لكنت جديراً بأن تذشق مرارتك فيما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف على كثرة معانيها ، ونحن الآن نجمع لك بعض أساميها ، وهى يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ، ويوم المساءلة ويوم المناقشة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ، ويوم الداهية ويوم الحاقة ويوم الطامة ، ويوم التلاق ويوم الانشقاق ، ويوم القصاص ويوم الحساب ويوم العذاب ، ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البكاء ، ويوم الحشر ويوم العرض ويوم الحكم ، ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ، ويوم الخزى ويوم الدين ويوم اليقين ، ويوم الفزع ويوم الجزع ، ويوم القلق ويوم العرق ، ويوم التغابن ويوم عبوس ، ويوم موعود ويوم مشهود ، ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ويوم لا يجزى والد عن ولده ، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم تخشع فيه الأبصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتظهر الخطيئات ويشيب الصغير ويسكر الكبير ، وبرزت الجحيم وأغلى الحميم ، وزفرت النار ويئس الكفار ، وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح اللسان — فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ، فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) نعوذ بالله من هذه الغفلة ، ونسأله تعالى أن يتداركنا بواسع رحمته .

باب فى صفة المساءلة عند الحساب

تفكر أيها العبد المسكين بعد ماتقاسيه من أهوال الحشر والقيامة، فيما يُتوجه عليك من السؤال ، فتُسأل عن جميع ما قلتَ وجميع ما فعلت ، فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها وشدة فظائعها وأهوالها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام غلاظ شداد ، امروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة ، وقد أرسلوا اليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة الهول ، مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده ، وعند نزولهم لايبقى نبي ولا صدّيق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين . وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله (فلنسألنّ الذين أرسل اليهم ولنسألنّ المرسلين ، ولنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين) فيبدأ سبحانه بالأنبياء (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ، ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا ، فتُدهش عقولُهم فلا يدرون بماذا يُجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وهم فى ذلك صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، إلى أن يقويهم الله تعالى . ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً ، يا فلان بن فلانة ، هلمّ إلى موقف العرض ، وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتُبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يُذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الملك الجبار ، ولا يُكشف سترهم على ملأ الخلائق ، وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش (وأشرقت الأرض بنور ربها) فيظُنُّ كل واحد أنه المقصود بالأخذ والسؤال دون غيره ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك (يا جبريل ائتنى بالنار) فيجيء لها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خالقك ، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت

وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثّبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره — فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثيًّا على الركب وولّوا مدبرين ، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين ، فبيناهم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع ، وانهضمت قلوب الظالمين فبلغت الحناجر ، وذهلت عقول السعداء والأشقياء أجمعين ، ففرّ الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظراً لأمره ، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهاً (ق) (فى معناه)، عن قليل عمله وكثيره وعن سرّه وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه ، فيقول له — (ألم أنعم عليك بالشباب ففيما ذا أبليتَه ، ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيتَه ، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبتَه وفيماذا أنفقتَه ، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملتَ فيما علمتَ —) فكيف ترى حياءك وخجلتك ، وهو يعدّ عليك نعمه ومعاصيك وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يُطلع عليه غيره . وهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم . فتوهم نفسك أيها العبد وأنت فى أيدى الموكلين بك حتى انتهوا بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم ، وناداك خالقك سبحانه وتعالى بعظيم كلامه (يا ابن آدم أدنُ منى) فدنوتَ منه بقلب خائف محزون وطرف خاشع ذليل ، وأعطيتَ كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها . فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه ، وبأى لسان تجيب ، وبأى قلب تعقل ماتقول ، قال عليه السلام (ليقفنّ أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب ، فيقول له ألم أنعم عليك ، ألم أوتك مالا ، فيقول بلى ، فيقول ألم أرسل اليك رسولا ، فيقول بلى ، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتق أحدكم النار ولو بشقّ تمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة) (خ) أفق يامسكين من غفلتك وتفكر

فى موقفك فانك بين أن يقـال لك — سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم — فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، ويغبطك الأولون والآخرون . وبين أن يقال للملائكة — خذوا هذا العبد السوء فغلُّوه ثم الجحيم صلُّوه ، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لما نجوت ، فاستشعر عظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت من طاعة الله وبيعك آخرتك بدنيا زائلة لم تبق معك ، ولم ينفعك ما خلَّفته فيها .

باب فى صفة الميزان

لا تغفل أيها العبد عن الفكر فى الميزان ، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق . فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم كما يلقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها ، وقسم آخر لا سيئة لهم ، فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال — فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها — ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون ، خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتاب أيقع فى اليمين أو فى الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . روى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال (مايبكيك ياعائشة) قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ، قال (والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه ، إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند

الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط) (د) وقال أنس يؤتى ابن آدم يوم القيامة حتى يقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق ، سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق ، شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد ، عليهم ثياب من نار ، فيأخذون نصيب النار إلى النار .

باب فى صفة رد المظالم وتعلق الخصماء بالظالم

قد عرفت أيها العبد المسكين هول الميزان وخطره ، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان (فمن ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية، ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه وبيده ، ويطيب قلوبهم ويستسمحهم حتى يموت، ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب . وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق برقبته ، هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى . وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب بضاعتك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى . فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظرة بعين استحقار ، وقد عجزت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ، وإذ بنداء الجبار جل جلاله يقرع سمعك (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) فعندها ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك

بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس) فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وما أشد حسرتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وطولبت برد الحقوق وأنت مفلس فقير عاجز لا تقدر أن ترد حقاً أو تظهر عذراً ، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها وتنقل إلى خصمائك عوضاً لهم عن حقوقهم، قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل تدرون من المفلس) قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع . قال (المفلس من أمتى مَنْ يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، وإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار) (ق) فتفكر يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك ، فتقول أين حسناتى ، فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك ، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها تعبك ، فتقول يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة وسائر أصناف المعاملة ، فأكثر أيها العبد من الحسنات فى فسحة هذا العمر ليوم القصاص ، عسى أن تقربك من الله تعالى فتنال لطفه الذى ادّخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روى عن أنس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال (رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى اعط أخاك مظلمته ، فقال لم يبق من حسناتى شىء ، فقال تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شىء ، قال يا رب يتحمل عنى من أوزارى) قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال (إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم) قال (فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان ،

فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضـــة مرتفعة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ ، لأى نبي هذا ، أو لأى صدّيق هذا ، أو لأى شهيد هذا ؛ قال لمن أعطانى الثمن ، قال يارب ومن يملك ثمنه ، قال أنت تملكه ؛ قال وماهو ، قال عفوك عن أخيك . قال رب إني قد عفوت عنه ؛ قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنـة) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك (اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين) (ك) وتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم . كيف يكون سرورك حينما تفوز بالقضاء وقد خلع الله عليك حلة الرضا ، وعند ذلك طار قلبك فرحا وسروراً وابيض وجهك وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر . فتوهم ياعبد الله تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك ونضرة نسيم النعيم . وبرد الرضى يتلألآن من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون اليك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك ، ينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبداً . وإن تكن الأخرى ، والعياذ بالله ، بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها ، فقال عليك لعنتى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ؛ وعند ذلك تأتيك الزبانيـة وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها ، وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك ، والخلائق ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وتنادى الملائكة هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ، ولعنه بقبائح مساويه ، فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . فهذه أحوالك فى رد المظالم فتأملها ثم تفكر فى الخطر الأعظم وهو خطر الصراط أيضاً .

باب فى صفة الصراط

ثم تفكر أيها العبد بعد هذه الأهوال فى قوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون) فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ، وهو جسر

ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ، فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم مر على صراط الآخرة ونجا . ومن حاد عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالذنوب وعصى الله تعالى ، تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى .
فتفكر يامن لاحول لك ولاقوة إلا بربك . تفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد أمرت أن تمشى على الصراط مع حدته واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالذنوب ، والخلائق بين يديك تزل أقدامهم وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف ، فياله من منظر ما أفظعه وطريق ما أصعبه وممر ما أضيقه ، فانظر إلى حالك وأنت تزحف على الصراط وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يميناً وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول (سلم سلم) والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك، وقلت هذا ما كنت أخافه، فياليتنى قدمت لحياتى ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلا ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ، فان كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلا فما أعظم خسرانك . فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط واضطراب قلبك من خطر المرور عليه ، وإن سلمت فناهيك به هولا وفزعاً ورعباً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ ، اللهم سلم اللهم سلم) (ق) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء) وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال (ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ، ومنهم من يُعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضىء

مرة ويحبو مرة ، فاذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا أظلم قام) ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم (فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجر منه يد وتعلق أخرى، وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار) قال (فلا يزال كذلك حتى يخلص، فاذا خلص وقف عليها ثم قال ، الحمد لله لقد أعطانى الله ما لم يعط أحداً إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها ، فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل) (ك) فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطول فيها فكرك لعله ينبعث فى قلبك الخوف ، فانه لا ينجيك منها إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته ، مع محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصك على تعظيم سنته ، وكن متشوقا إلى مجالسة الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم ، فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

باب فى صفة الشفاعة

إعلم أنه إن حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء الصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه ومنزلة ، فإن له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا ، فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده ، فلعل الذى تحتقره هو ولى الله ، ولا تستصغر معصية أصلا . فإن الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه ، فلعل مقت الله فيها ، ولا تستحقر طاعة أصلا ، فإن الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته ، فلعل رضاه فيها ، وكذلك الكلمة الطيبة أو اللقمة تعطيها للمسكين أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه .. وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة . قال الله تعالى (ولسوف يُعطيك ربك فترضى) وقال صلى الله عليه وسلم (أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحد قبلى ، نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وأُحلَّت لى الغنائمُ ولم تحل لأحد قبلى ، وجُعلَت لى الأرضُ مسجداً

وترابها طهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكل نبىّ بُعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة) (ق) وقال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، وأنا أول شافع وأول مشفع ، بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه) (ت) وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائماً بين يدى ربى منتصباً مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى فأقول يا رب أمتى فيقول يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك ، فأقول يا رب عجل حسابهم ، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار ، وحتى ان مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النـــار لغضب ربك فى أمتك من بقية) (طب) — فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله) (ت) . وقال صلى الله عليـه وسلم (انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى أترونها للمطيعين المتقين ، بل هى للمتلوثين المخلطين) (ق) .

قد عرفنا مما تقدم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع يوم القيامة ، ولكن ليس معنى هذا أننا نقعد عن العمل ونتكل على أننا من أمته صلى الله عليه وسلم ونطمع فى شفاعته — فمن ظن هذا فهو خاطىء كل الخطأ ، وغـير عامل بأوامر القرآن ؛ قال تعالى (من عمـل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليهـا) وقال عز وجل (فمن يعمل مثال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثال ذرة شراً يره) وأما السنة فناهيك قول النبى صلى الله عليه وسلم لابنتـــه فاطمة رضى الله عنها ، وهى بضعة منه وأحبّ الخلق إليه (اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً) (ق) وفى هذا كفاية لطالب الحق .

باب فى صفة الحوض

إعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه ، فان من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً . قال أنس اغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة (أى نام) فرفع رأسه مبتسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت؟ فقال (آية أنزلت علىّ آنفاً) وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها ثم قال (هل تدرون ما الكوثر) قالوا الله ورسوله أعلم قال (إن نهراً وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء) (م) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين) فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن هم يارسول الله قال (هم الشعث رؤوساً الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد) (م) وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لكل نبى حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة) (ت) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليرج كلّ عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنياً ومغترا .

باب فى صفة جهنم وأهوالها

يأيها العبد الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا ، المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، وتفكر فيما أنت وارد إليه ، فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع ، قال تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة

منه ، وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينماهم فى كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها ، إذأحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأطلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب، حتى خاف الأتقياء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا ، أين فلان ابن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له (ذُق إنك أنت العزيز الكريم) فيسكن دارا ضافية الأرجاء ، مظلمة المسالك، شراب أهلها فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، فقد شدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها — يامالك قد حق علينا الوعيد — يامالك قد أثقلنا الحديد — يامالك قد نضجت منا الجلود — يامالك أخرجنا منها فإنا لا نعود — فتقول الزبانية هيهات ، لاخروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون — ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون وعلى مافرطوا فى جنب الله يتأسفون . النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار ، طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار وفراشهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران ، وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها . تغلى بهم النار كغلى القدور ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم ؛ فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودا غيرها . وقد عريت من اللحم عظامهم ، فبقيت الأرواح منطوية بالعروق وعلائق العصب ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلايموتون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يأهل الجنة خلود بلا موت ، ويأهل النار

خلود بلاموت)(ق) فكيف بك أيها العبد المسكين لو نظرت إلى أهل النار وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض من جملة أحوالهم .

واعلم أن أودية جهنم بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها ، وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد ربه ، بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ثم صقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية . فانظر الآن فى عمق الهاوية، فإنه لاحدّ لعمقها كما لاحدّ لعمق شهوات الدنيا ، فكما لاينتهى مطلب من الدنيا إلا إلى مطلب أعظم منه ، فكذلك لاتنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها ، قال أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتدرون ماهذا) قلنا الله ورسوله اعلم . قال (هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاماً الآن انتهى إلى قعرها) (م) ثم انظر إلى تفاوت الدركات ، فكما أن انكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك عذاب النار متفاوت ، فإن الله لايظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم عل قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه) (ق) فانظر يامسكين إلى حال من خفف عليه واعتبر به ، وإذا تشككت فى عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ، ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس ، فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف نار جهنم فقال (أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة) (ق) . وقال أنس يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه فى النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ، فيقول لا ، ويؤتى بأشد الناس ضراً فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ، ثم يقال له هل رأيت ضراً قط، فيقول لا — ثم انظر بعد هذا نتن الصديد الذى يسيل من

أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغسّاق . قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو أن دلواً من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض) (ت) فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش كما أخبر عنهم الجبار جل جلاله بقوله (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً) ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم قال تعالى (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم) وقال تعالى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم) (ت) فكيف من يكون طعامه ذلك . ثم انظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أجسامها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهى لاتفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال صلى الله عليه وسلم (إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا) (أحمد) وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ، ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له . ثم تفكر أيها العبد بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار ، فان الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ضرس الكافر فى النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث) (م) ومع عظم الأجسام فان النار تحرقهم مرات فيتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعال (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها) قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا . فتأمل أيها العبد — الخائف من حرارة الشمس — فى مجمل ماذكرناه من أنواع عذاب جهنم . واعلم أن تفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لانهاية له . واعلم أيضا أنه من أشد مايلاقونه من العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا

ذلك بثمن بخس فانظر يامسكين فى هذه الأهوال ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قضى به وفرغ منه — قال الله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) . فالعجب منك يا ابن آدم تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى بماذا سبق القضاء فى حقك ، أسعيداً أم شقيا . فإن قلت فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مصيرى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حق ، فلك علامة تستأنس بها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير وفعلت الخير وأنت مطمئن القلب واثق به فأبشر فإنك مبعد عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه عنك ولا يتيسر لك فعله ، ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ، ودلاله الدخان على النار ، فقد قال الله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) فاعرض نفسك على الآيتين تعرف مستقرك من الدارين ، والله أعلم بما قضاه وقدره لكل عبد من عباده — نسأله السلامة برحمته .

باب فى صفة الجنة ونعيمها

إعلم أن الدار التى عرفت همومها وغمومها وهى جهنم ، يقابلها دار أخرى فيها كل أنواع النعيم والسرور ، فتأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من إحداهما استقر لا محالة فى الأخرى ، فاملأ قلبك بالخوف بطول الفكر فى أهوال الجحيم ، وأيقظ الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم المعد لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم — فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، فيها بسط من العبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مملوءة بالخمر والعسل واللبن ، محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين فى درجات

الجنان ، إذا اختالت إحداهن فى مشيتها حمل معطفها سبعون ألفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ،شكلات دعجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين، ويطوف عليهم خدام وولدان ، كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، ينظرون إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون ، يأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها ، ترابها مسك أذفر ، وحصباها مرجان ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء التسنيم على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت ، كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب . كوب يشرق نوره من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى صنعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وجمال خلقته . فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ،ويوقن بأنه لايموت أهلها، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها . فوالله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش ، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها ويسعى فى أن يكون من أهلها . قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينادى مناد ياأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً) (م) فذلك قوله عز وجل (ونودوا أن تلكموا الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) . وإذا أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور ، وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل أولا فى عدد الجنان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (ولمن خاف

مقام ربه جنتان) قال (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن) (ق) ثم انظر إلى أبواب الجنة فانها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى، قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد) فقال أبو بكر رضى الله عنه، والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى، فهل يدعى أحد منها كلها. قال (نعم وأرجو أن تكون منهم) (ق) ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجة العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا — وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر. فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها، فقال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) — الآية التى توجنا بها رأس هذا الكتاب، وقال عز وجل (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) والعجب أنه لو تقدم عليك أحد أقرانك أو جيرانك فى الدنيا بزيادة درهم، أو علو بناء، أو اقتناء دابة، ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك، وتنغص بسبب الحسد عيشك، مع غفلتك عمن زاد عنك فى نعيم الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم) (ق) قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال (بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) (ق) وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أحدثكم بغرف أهل الجنة) قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا، قال (إن فى الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كلها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر) قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال (لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال (أمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك . من لقى أخاه فسلم أو رد عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام) (حل) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صل الله عليه وسلم قال (إن الله عز وجل يقول يا أهل الجنة . فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً) (خ وم و ت) فنعم أجر العاملين .

باب فى صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك) (ت) وقال عليه السلام (أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك) (العقيلى) وقال عليه السلام (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرأوا إن شئتم وظل ممدود) (ق) . وقال أبو أمامة أقبل أعرابى فقال يا رسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما هى) قال السدر فإن لها شوكا ، فقال (قد قال الله تعالى فى سدر مخضوض يخض الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها على اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر) (ابن المبارك) .

باب فى صفة طعام أهل الجنة وشرابهم

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور والمنّ والسلوى وأصناف كثيرة :

قال الله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً) وذكر الله تعالى شرابهم فى مواضع كثيرة . قال تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات) قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال ، فمن أول إجازة ؟ يعنى على الصراط ، فقال (فقراء المهاجرين) قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ، قال (زيادة كبد الحوت) فقال فما غذاؤهم على أثرها ، قال (ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها) قال فما شرابهم عليه ، قال (من عين فيها تسمى سلسبيلا) فقال صدقت (م) . وقال أبو الدرداء فى قوله تعالى (ختامه مسك) قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

باب فى صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وخيامهم

قال الله تعالى (يحلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) والآيات فى تفصيل ذلك كثيرة ، أما الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه (م) فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (ق) وقال رجل يارسول الله اخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أخلق تخلق أم نسج تنسج ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم فقال عليه الصلاة والسلام (مم تضحكون من جاهل سأل عالما) ثم قال (بل ينشق عنها ثمر الجنة) مرتين (ن) . وقال عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال (إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب) (ت) وقال عليه السلام (الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراه الآخرون) (البخارى) .

باب فى صفة الحور العين

قد تكرر فى القرآن وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (غُدوة فى سبيل الله أو رَوحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت مابينهما رائحة ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) (خ) يعنى الخمار . وقال عليه السلام فى قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال (ينظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ، وأن أدنى لؤلؤة عليها لتضىء مابين المشرق والمغرب ، وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك) (أبو ليلى) وقال مجاهد فى قوله تعالى (وأزواج مطهرة) قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد . وقال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة قال (يُعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم) (ت) وقال عليه السلام (إن فى الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له) (ت) وقال أبو أمامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه) (طب) . وقال أبو هريرة إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهى تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

باب فى مصير زوجات الدنيا فى الآخرة

قال تعالى فيمن يدخل الجنة من المؤمنين (ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم) — وروى مالك أن الزبير بن العوام كان كثير الضرب لزوجته أسماء

بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فضربها يوماً حين خرجت من غير إذنه فشكت إلى أبيها فقال لها – أى بُنيّة – إصبرى فان الزبير رجل صالح ولعله أن يكون زوجك فى الجنة – قال ولقد بلغنى أن الرجل إذا ابتكر بالمرأة تزوجها فى الجنة – قال الإمام أبو بكر بن العربى فان كانت المرأة ذات أزواج فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنها تخيَّر فى الأزواج فأىّ زوج اختارته كانت له . وروى أن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه قال لزوجته إن سرك أن تكونى زوجتى فى الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تتزوجى أحدا من بعدى فإن المرأة لآخر زوجها – وفى الحديث أن أم حبيبة قالت يارسول الله المرأة يكون لها الزوجان فى الدنيا ثم يموتان فيجتمعان فى الجنة لأيهما تكون للأول أو للآخر . فقال (تكون لأحسنهما خلقاً كان معها فى دار الدنيا) ثم قال (ياأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة) (القرطبى) .

فاعلموا ذلك أيها الاخوان وحسنوا أخلاقكم مع من تحبونها من زوجاتكم فى دار الدنيا لتكونوا معها فى دار الآخرة إن شاء الله تعالى .

بعض الأخبار الواردة فى أوصاف أهل الجنة

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، هل فى الجنة خيل فإنها تعجبنى قال (إن أحببتَ ذلك أتيتَ بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت) وقال له رجل إن الإبل تعجبنى فهل فى الجنة من إبل فقال (ياعبد الله إن أدخلتَ الجنة فلك فيها مااشتهت نفسك ولذّت عيناك) (ت) وقال عليه السلام (إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة) (هـ و ت) وقال عليه السلام (إن أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون ، أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع) (ت) وقال صلى الله عليه وسلم (أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء ، وأن عليهم التيجان وأن أدنى لؤلؤة منها لتضىء مابين المشرق والمغرب) (ت) .

باب فى صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى (لِلذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعالى ، وهى اللذة الكبرى التى ينسى فيها نعيم الجنة . قال جرير بن عبد الله البجلى كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر ، فقال (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لاتضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) من الصحيحين . وروى مسلم عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد ياأهل الجنة إن لكم عندالله موعداً يريد أن ينجزكموه ، قالوا ماهذا الموعد ، ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ، قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل ، فما أعطوا شيئاً أحبّ اليهم من النظر اليه) واعلم ياعبد الله أن النظر إلى وجه الله الكريم هو غاية الحسنى ونهاية النعمى ، وكل مافصل من التنعم عند هذه النعمة ينسى ، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة مطلقاً لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء . فلا ينبغى أن تكون همتك أيها العبد من الجنة بشىء سوى لقاء المولى ، نسأل الله الكريم أن يمنّ علينا بهذه النعمة ويهيئنا لها .

باب فى فضيله الذكر

يدل على فضيلة الذكر قول الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) جعل سبحانه وتعالى جزاء الذاكر أن يذكره عنده ، وهذا فضل عظيم ومنة كبرى من الله على عباده ، ومن الآيات قوله تعالى (اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقوله جل شأنه (فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى بالليل والنهار فى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . وقال تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولاتكن من الغافلين) وغير ذلك من الآيات . وقال صلى الله

عليه وسلم (يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت شفتاه بى)(هـ وحب)
وقال عليه السلام (من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل)(طب)
وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ، فقال (أن تموت ولسانك
رطب بذكر الله عز وجل) (حب، وطب) .

باب فى فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ماجلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل
إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده) (م) وقال عليه
السلام (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم
مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات) (أحمد) .

باب فى فضيلة التهليل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله
إلا الله وحده لا شريك له) (ت) وقال عليه السلام (من قال لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كل يوم مائة مرة كانت له عدل
عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان
يومه ذلك حتى يمسى؛ ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)
(ق) وقال عليه السلام (من قال فى كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك
له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد
كان بعده ، إلا من عمل بأفضل من عمله) (أحمد و ك)

باب فى فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة
مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) (ق) وقال رفاعة الزرقى كنا
يوماً نصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع
الله لمن حمده، قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً

طيباً مباركا فيه ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال (من المتكلم آنفاً) قال أنا يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم (لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا) (خ) ، وقال عليه الصلاة والسلام (الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) (حب و ك) وقال عليه السلام (أحب الكلام إلى الله تعالى أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) (م) وروى أبو مالك الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها ، أو مشتر نفسه فمعتقها) (م) وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة) (ت) وروت بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مُستنطقات) (د وت وك) يعنى بالشهادة فى القيامة . وقال مصعب بن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة) فقيل كيف ذلك يا رسول الله فقال (يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة) (م) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش ، قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم) (ن) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قال حين يصبح رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة) (ن) واعلم أن الذكر النافع هو الذكر مع حضور القلب، فأما الذكر باللسان والقلب غافل فهو قليل الجدوى — ولكن الإنسان فى أول أمره يكون متكلفا فى استحضار قلبه فلا ييأس من ذلك بل يستمر ، ومتى رزق التوفيق فى المداومة على الذكر انغرس فى قلبه حب المذكور وأنس به ، ومن أنس بالله تعالى فقد صفا قلبه وشفى من جميع أمراضه .

باب فى فضيلة الاستغفار

قال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له، (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) وقوله عز وجل (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) وقال تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وقال صلى الله عليه وسلم (من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب) (دون) وقال حذيفة كنت ذَرِب اللسان على أهلى فقلت يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلنى لسانى النار، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (فأين أنت من الأستغفار فإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة) (ب) وقال صلى الله عليه وسلم (ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له) ثم تلا قوله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) (ت) وقال عليه السلام (إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد فى الجنة فيقول يارب أنّى لى هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك) (أحمد) وقال عليه الصلاة والسلام (من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت له ذنوبه ولو كانت كمدب النمل) (هب) وقال على كرم الله وجهه العجب ممن يهلك ومعه النجاة، قيل وما هو قال الاستغفار.

باب فى فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وروى أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى تترى فى وجهه فقال عليه السلام (إنه جاءنى جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا) (ن وحب) وقال عليه السلام (إن أولى الناس بى

أكثرهم على صلاة) (ت) وقال عليه السلام (من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات) (ن) وقال صلى الله عليه وسلم (من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام إسمى فى ذلك الكتاب) (طب) وقال صلى الله عليه وسلم (ليس أحد يسلم علىّ إلا ردّ الله على روحى حتى أردّ عليه السلام)(د) وقيل له يارسول الله كيف نصلى عليك ، فقال (قولوا اللهم صلّ على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد) (ق) (اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأزواجه وذريته إلى يوم الدين وتقبل منا يارب العالمين) .

بعض دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها (عليك بالجوامع الكوامل ، قولى اللهم إنى أسألك الخير كله عاجله وآجله ماعلمتُ منه ومالم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وماقرب اليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ماسألك عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين) (هـ د ك)

بعض دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ، ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله) (ت)

بعض دعاء بريدة الاسلمى رضى الله عنه

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبريدة الأسلمى رضى الله عنه ، (يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم ينسهن أبداً) قال

فقلت بلى يارسول الله قال (قل اللهم إنى ضعيف فقوّ فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رضاى ، اللهم إنى ضعيف فقونى وإنى ذليل فأعزنى وإنى فقير فأغننى ياأرحم الراحمين) (ك) .

بعض دعاء الخليل أبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح (اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها لى ، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم) قال (ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه) .

بعض دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعاً وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال (اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى ، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى ، اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضى بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام) فأوحى الله عز وجل اليه أنى قد غفرت لك ولم يأتى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له ، وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

بعض الاستعاذات المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم

(اللهم إنى أعوذ بك من طبع يَهدى إلى طمع ومن طمع فى غير مَطمع ومن طمع حيث لامطمع) (أحمد) (اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع ونفس لاتشبع وأعوذ بك من الجوع فانه بئس الضجيع ومن الخيانة فانها بئس البِطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن أن أرَدَّ إلى أرذل العُمُر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات . اللهم إنا نسألك قلوباً أوّاهة

مُخْبِتة مُنيبة فى سبيلك . اللهم إنى أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل برّ والفوز بالجنة والنجاة من النار) (ك) (اللهم إنى أعوذ بك من جَهْد البلاء ودَرْك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء) (ق) اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعَيْلة والذّلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء ، وأعوذ بك من الصّمم والبَكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام) (ك) (اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك) (م) (اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدَّين وغلبة العدو وشماتة الأعداء) (ن وك) .

بعض الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث

إذا قمت من المجلس فقل (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا لاإله إلا أنتَ أستغفرك وأتوب إليك عَمِلْتُ سوءً وظلمتُ نفسى فاغفرلى فانه لايغفر الذنوبَ إلا أنت) فانه يكفر لغو المجلس . فإن كان عليك دين فقل (اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغنى بفضلك عمن سواك) (ت) . وإذا رأيت الهلال فكبر ثلاثاً ثم قل (اللهم أهله علينا باليمن والايمان والبرّ والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط ربي وربك الله هلال رشد وخير آمنتُ بخالقك اللهم إنى أسألك خير هذا الشهر وخير القدَر وأعوذ بك من شرّ يوم الحشر) (د) وإذا بلغك وفاة أحد فقل (إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم اكتبه فى المحسنين واجعل كتابه فى عليّين واخْلفه على عقبه فى الغابرين ، اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله) (ابن السنى) فإذا خِفتَ قوماً فقل (اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم) (دون) فإذا رأيت استجابة دعائك فقل (الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات) وإذا ابطأت فقل (الحمد لله على كل حال) (ق) وإذا أصابك هم فقل (اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته

فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء غمى وذهابَ حزنى وهمى) قال صلى الله عليه وسلم (ما أصاب أحداً حزنٌ فقال ذلك إلا أذهب اللهُ همَّه وأبدله مكانه فرحاً) فقيل يارسول الله أفلا نتعلمها فقال عليه السلام (بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها) (أحمد) وإذا وجدت وجعاً فى جسدك فضع يدك على موضع الألم وقل (بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شرّ ماأجد وأحاذر) (م) .

فهذه الادعية لايستغنى الإنسان عن حفظها — فإن قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لامرد له — فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء — فالدعاء سببٌ لردّ البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الماء سببٌ لخروج النبات من الأرض ، فلا تركن إلى القضاء فى إخراج النبات بدون الماء ، لأن الله تعالى ربط الأسبابَ بالمسبّبات ، فكما أن الترس سبب فى رد السهم ، كذلك الدعاء سبب فى رد البلاء . قال تعالى (ادْعونى أستجبْ لكم) وقال عليه السلام (الدعاء مخّ العبادة) (ت) فقد أَمِرْنا بالدعاء كما أُمِرْنا بسائر العبادات، وكل بقضاء الله وقدره وتوفيقه للعبد ، فهو إن وفقك للدعاء فقد فتح لك بابَ القبول .

باب فى آداب الدعاء

إعلم أن للدعاء آداباً ينبغى للداعى أن يراعيها وقت دعائه ويتأدب بها فى مناجاته رجاء القبول منها .

— أن يكون على وضوء إن قدر فى كل دعواته أو فى معظمها — وأن يكون مستقبل القبلة فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أتى عرفة واستقبل القبلة ولم يزل واقفا حتى غربت الشمس (م) . — وأن يرفع يديه حتى يرى بياض أبطه ولا يلصقها ولا يشر بأصبعه ، قال عليه السلام (إن ربكم كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً) (د وت) وأن يترصد الأوقات الشريفة كيوم عرفة وعاشوراء وشهر رمضان وليلة الجمعة ويومها لاسيما آخر ساعة منه ، ووقت السحر وبعد صلاة الصبح ، وما بين الآذان والإقامة

وتكبيرة الاحرام، وفى السجود، وقد جاءت الأخبار بذلك، وأن لايتكلف السجع لقوله صلى الله عليه وسلم (إياكم والسجع فى الدعاء) (م) لأنه يذهب الخشوع فان قاله من غير تكلف، أو حفظه من دعاء غيره فلا بأس. وأن ينبعث فى قلبه التضرع والرهبة والخشوع قال تعالى (ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين). وأن يشرك أبويه وسائر المسلمين، فان الله تعالى أكرم من أن يتكرم الداعى على جميع المسلمين ولا يتكرم هو بالاجابة فيهم، وهو تعالى أكرم الأكرمين. وأن يجزم بالدعاء ويصدق رجاءه لقوله صلى الله عليه وسلم (لايقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فانه لامكره له) (ق) ويلح فى الدعاء وأن يكرره ثلاثاً فان الله تعالى يحب الملحين فى الدعاء وأن لايستبطىء الاجابة لقوله صلى الله عليه وسلم (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى) (خ). وأن لا يدعو فيما يكرهه الله تعالى.

وإعلم أن الأصل فى قبول الدعاء وسرعة الإجابة، التوبة من كل ذنب، والاقلاع عن كل معصية، والاقبال على الله تعالى بجميع الهمة.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حياً وميتاً ، فعلا وقولا . ولم يكن أحد أكرم على الله منه . إذ كان خليل الله وحبيبه . وكان صفيه ورسوله ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته . وهل أخره لحظة بعد حضور منيته . لا ، بل أرسل اليه الملائكة الكرام . فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر ، إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك فى النزع كربه ، وظهر أنينه وتتابع قلقه ، وتغير لونه ، وعرق جبينه ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدوراً ، وهل راعى الملك فيه أهلا وعشيرا . وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً . وللخلق بشيرا ونذيرا ، هيهات . بل امتثل ما كان به مأمورا . واتبع ما وجده فى اللوح مسطوراً . فهذا كان حاله . وهو عند الله صاحب المقام المحمود . والحوض المورود . فالعجب أننا لا نعتبر به . ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات . وقرناء المعاصى والسيئات . فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين . وحبيب رب العالمين . لعلنا نظن أننا مخلدون . أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون . هيهات هيهات ، أنظر كيف كان كرب نبيك صلى الله عليه وسلم عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال ابن مسعود رضى الله عنه . دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال (مرحبا بكم حياكم الله وآواكم الله نصركم الله . وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله . إنى لكم منه نذير مبين . ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده . وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكاس الأوفى . فاقرأوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله) (البزار) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته (من لأمتى بعدى) فأوحى الله تعالى إلى جبريل (إن بشر حبيبى إنى لا أخذله فى أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا وسيدهم

إذا جمعوا و أن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته) فقال (الآن قرة عينى) (طب) . وقالت عائشة رضى الله عنها — أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو فى مرضه الأخير — أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج وصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم . وأوصى بالأنصار فقال (أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم وأن الأنصار عيبتى التى أويت اليها . فاكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم) ثم قال (إن عبدا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ماعند الله) فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (على رسلك يا أبا بكر ، سدوا هذه الأبواب الشوارع فى المسجد إلا باب أبي بكر فانى لا أعلم امرأ أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر) (الدارمى) .

وقالت عائشة رضى الله عنها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى — وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول (لا إله إلا الله إن للموت لسكرات) ثم ينصب يده فيقول (الرفيق الأعلى) فقلت إذاً والله لا يختارنا (ق) .

قالت عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار . فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء . فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى عليه وسلم (اخرجن عنى هذا الملك يستأذن علىَّ) فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت ، فناجى الملك طويلا ثم إنه دعانى فأعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة (أدخلن) فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أجل ياعائشة، هذا ملك الموت جاءنى فقال إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى لا أدخل عليك إلا بإذن فإن لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت وأمرنى ألا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك؟ فقلت أكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل) فقالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بأمر

يكن له عندنا جواب ولا رأى . فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير اليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت وجاء جبريل فى ساعة فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال (إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف نجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك) فقال (أجد منى وجعاً) فقال (أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغلك ما أعد لك) فقال (يا جبريل إن ملك الموت استأذن علىَّ) وأخبره الخبر فقال جبريل (يا محمد إن ربك اليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك ،لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً إلا أن ربك متم شرفك وهو اليك مشتاق) قال (فلا تبرح إذاً حتى يجىء) وأذن للنساء فقال (يا فاطمة ادنى) فأكبت عليه فناجاها . فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام . ثم قال (أدنى منى رأسك) . فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجباً فسألناها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال لى (إنى ميت اليوم) فبكيت ثم قال (إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى) فضحكت وقربت ابنيها منه (الحسن والحسين) فشمهما . ثم قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك (ما تأمرنا يا محمد) قال (ألحقنى بربى الآن) فقال (بل من يومك هذا ، أما إن ربك اليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهن عن الدخول على أحد إلا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك) وخرج قال وجاء جبريل فقال (السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً ، طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك وما لى فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفى) . لا والذى بعث محمداً بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يحير فى ذلك كلمة ولا يبعث الى أحد من رجاله لعظم مايسمع من حديثه ووجداً وإشفاقنا . قالت فقمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديى وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يُغلب وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت أطيب منه ، فكنت أقول له إذا

أفاق بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى ما نلق جبهتك من الرشح فقال (يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقبه كنفس الحمار) فعند ذلك ارتحنا وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى بعثه إلىَّ ابى فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجىء أحد وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل وجعل إذا أغمى عليه قال (بل الرفيق الأعلى) كان الخيرة تعاد عليه ، فإذا طاق الكلام . قال (الصلاة الصلاة إنكم لاتزالون متماسكين ماصليتم جميعاً الصلاة الصلاة) كان يوصى بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة . (طب) عن جابر .

وهكذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة (خ) ولم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى بيتاً — ففى وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة .

ولما بلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال — بأبى أنت وأمى يا رسول الله ماكان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال — أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فانه حى لايموت — قال الله تعالى (ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم) الآية . فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ (خ) .

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) . انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر رضى الله عنه ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيباً ينظر اليك ، قال قد نظر إلى طبيبي وقال إنى فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده ، فقال يا أبا بكر أوصنا . فقال إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك . واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته ، فيكبك فى النار على وجهك . ولما ثقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر رضى الله تعالى عنه . فقال الناس له استخلفت علينا فظاً غليظاً فماذا تقول لربك ، فقال أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه فجاء . فقال إنى موصيك بوصية . اعلم أن لله حقاً فى النهار لا يقبله فى الليل ، وإن لله حقاً فى الليل لا يقبله فى النهار ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر أهل النار بأسواء أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا فيه . فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء . وإن الله ذاكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقى بيده إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب اليك من الموت ولا بد لك منـــه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض اليك من الموت ولا بد لك منه ، ولست بمعجزه . وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنـه أتاه ناس من الصحابة . فقالوا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فإنا نراك لمابك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا وما الأفق المبين . قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاها كل يوم مائة رحمة . فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان (اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير ،

فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً فلا تشقني بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما عملت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحداً لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني اليك ، اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها اليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني اليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله) ثم قال هذا كله في كتاب الله عز وجل .

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال عمرو بن ميمون كنت قائماً غداة أصيب عمر ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس — وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما فإذا رأى خللا قال استووا حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر . قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ونحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول . قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار القاتل بسكين له طرفين وكان لا يمر على أحد يميناً أو شمالا إلا طعنه . حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم تسعة . وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه عباءة . فلما ظن القاتل أنه مأخوذ طعن نفسه .

وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه . فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت . وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر . غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله . سبحان الله . فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة

فلما انصرفوا قال ياابن العباس انظر من قتلنى . قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضى الله عنه . قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً . ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم . قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رقيقاً . فقال ابن عباس إن شئت فعلت أى إن شئت قتلناهم .

قال بعد ماتكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم — فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه . قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، قال فقائل يقول أخاف عليه . وقائل يقول لا بأس ، فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا أنه ميت . ثم قال يا عبد الله أنظر ما على من الدين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم وأدِّ عنى هذا المال ،

انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين ، لأنى لست اليوم للمؤمنين أميراً . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى . فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعونى فأسنده رجل إليه فقال مالديك . قال الذى تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت . قال الحمد لله ما كان شىء أهم إلى من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر فإن أذنت لى فادخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين . وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها فى داخل . فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف . فقال ماأدرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شىء كهيئة التعزية له .

فإن أصابت الأمارة سعدا فذاك . وإلا فليستعن به أيكم أمر . فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رده الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو ، وأن لايؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضافهم وأوحيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولايكلفهم إلا طاقتهم .

قال فلما قُبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب . فقالت ادخلوه فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث .

وعن بن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون . قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعى الأرجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترجم على عمر وقال ماخلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك . وذلك إنى كنت كثيراً أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول (ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر . ودخلت أنا وأبو بكر وعمر) (ق) فإنى كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان رضى الله عنه

الحديث فى قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه . فقال مرحباً يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوضة وهى خوخة فى البيت . فقال (يا عثمان حصروك) قلت نعم . قال (عطشوك) قلت نعم فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين ثديي وبين كتفى وقال لى (إن شئت نصرتك عليهم وإن شئت أفطرت عندنا) فاخترت أن أفطر عنده . فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن

سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط . قالوا سمعناه يقول . اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا . قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة ، وعن ثمامة بن حزن القشيرى . قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال إئتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على . قال فجيء بهما كأنهما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه . فقال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة . فقال (من يشترى رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة) فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى من أن أشرب منها ومن ماء البحر . قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون إنى جهزت جيش العسرة من مالى . قالوا نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة) فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ، قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال (أسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان) قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة إنى شهيد . (ت و ن) وروى عن شيخ من ضبه أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . اللهم إنى استعديك عليهم واستعينك على جميع أمورى . واسألك الصبر على ما ابتليتنى .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الاصبع الحنظلى لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول !

أشـدد حيازيمك للمو ت فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من المو ت إذا حـل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة . وعن محمد بن على أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض .

باب فى أن العبد يدفن فى الأرض التى خلق منها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا قضى الله للعبد أن يموت بأرض جعل له اليها حاجة) (ت) وقال عليه السلام (إذا كان أجل العبد بأرض أوثقته الحاجة اليها حتى إذا بلغ أقصى أثرء فتوفاه الله بها فبعثه الله فتقول الأرض يوم القيامة يارب هذا ما استودعتنى) (ه) وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يطوف فى نواحى المدينة فاذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه . فقال (لمن هذا القبر) فقالوا لرجل من الحبشة . فقـال (لا إله إلا الله سيق من أرضه حتى دفن فى الأرض التى خلق منها) .

ومن هـذا يستحب للعبد إذا سافر أن يخرج من المظالم ويقضى جميع ديونه أو يوصى بقضائها . ويوصى كذلك بماله وما عليه فإنه لا يدرى هل يرجع من هذه السفرة أم لا ، وقال أبو حاتم ما نجد لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فضيلة مثل هذه الفضيلة . فإن طينتهما من طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ضرورة استغراق الأوقات فى الذكر والعبادات

إعلم هدانا وهداك الله ، أن الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لا ليستقروا على ظهرها ، بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها زاداً يحملهم فى سفرهم إلى أوطانهم ، مع الاحتراز من مصايدها ومطالبها . واعلم أن العمر يسير بنا سير السفينة براكبها ، فالناس فى هذا العالم مسافرون وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد ، والوطن الجنة

أو النار ، والعمر هو مسافة السفر ، فالسنون مراحله ، والشهور فراسخة ، والأيام أمياله ، والأنفاس خطواته ، وطاعة الله بضاعته ، والأوقات رءوس الأموال ، والشهوات قطَّاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى فى دار السلام ، مع الملك الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى والعذاب الأليم فى دركات الجحيم . واعلم أنك إن ضيعت النفَس الواحد فى غير طاعة ربك سوف تتحسر على ذلك يوم القيامة حسرة لا منتهى لها وتندم ندماً شديداً ، ولقد تفطَّن لهذا الخطر العظيم مَن وفقهم الله من عباده ، فشمَّروا عن ساق الجدَّ وودَّعوا ملاذ النفس وشهوات الدنيا ، واغتنموا بقايا العمر ، فرتبوا الأوراد لإحياء الليل والنهار فى طلب القرب من الملك الجبار ، ولكن لما كانت النفس لا تصبر على نوع واحد من الأذكار ، لأنها جبلت على السآمة والملل ، يجب أن تروَّح بالتنقل من نوع إلى نوع بحسب كل وقت ، ومن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى الطاعة ، ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليجعل الطاعة أكثر أوقاته ، فإن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً فأمره فى خطر ، ولكن الرجاء غير منقطع ، والعفو من كرم الله منتظر ، فعسى الله أن يغفر له بجوده وكرمه، وانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو أقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه (واذْكر اسمَ ربك وتبتَّل إليه تبتيلا ، واذكر اسمَ ربك بُكرةً وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ومن الليل فسبح وأطرافَ النهار لعلك ترضى . وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفاً من الليل إن الحسنات يُذهبن السيآت) ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده فقال تعالى (أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعونَ ربهم خوفا وطمعاً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) فكل هذا يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى هو مراقبة الأوقات وعمارتها بالذكر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحبُّ عباد الله إلى الله الذين يُراعون الشمس والقمر والأهلة لذكرِ

الله تعالى) فلا تظن أن المقصود من سير الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار وخلق الظل والنور والكواكب والنجوم أن يستعان بها على الدنيا فقط ، كلا ، بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة ، قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) بيّن أن ذلك للذكر والشكر لا غير — وقال عليه الصلاة والسلام (لم يوح إلى أن ادخر مالا وكن من التاجرين ولكن وحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين وَاعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (ابن مردويه) .

أيها المسلم — قرأنا فى أول الكتاب ، إن الله تعالى لم يخلق الخلق إلا لعبادته . وتقرأ الآن فى نهاية الكتاب ، أن الليل والنهار والشمس والقمر والظل والنور والكواكب والنجوم لم تخلق إلا لمعرفة أوقات هذه العبادة — ولما كانت الصلاة أفضل العبادات العملية فقد أوحى إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحى اليه أن (سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقرأنا فى سننه فى الحضارة الإسلامية قوله عليه السلام (وقرة عينى فى الصلاة) . قال ذلك تعليما لنا لما فى الصلاة من لذيذ المناجاة وعظيم المشاهدة ، وهو أشرف وقت يكون فيه العبد مع ربه عز وجل . غير أن بعض المسلمين قد أعرضوا عن هذا المقام العظيم وأصبح القليل منهم من يراقب الأوقات للذكر والصلاة . وإليك حالات أكثرهم . يلهو العبد ويلعب ساعات طويلة أو يشتغل بأحقر الأمور الدنيوية ، فإذا جاء وقت الصلاة وأذن المؤذن ودعا الموحدين لما فيه فلاحهم ، فلا يحرك ساكنا ولا يلتفت إلى الداعى ، وقد يرى من العار أن يقوم من مجلس اللهو ويترك إخوان السوء ليؤدى شعائر الدين ويسجد لرب العالمين — وقد نسى هذا الغافل أن السجود لله تعالى هو أشرف عمل تتعبد به الخلائق فى السموات وفى الأرض ، وأن تعفير الجبهة بالسجود وسام شرف العبودية ، لا يقلده الله إلا من أحب ، ونور يمشى به صاحبه على الصراط يوم تزل فيه الخلائق فى قعر جهنم . قال عليه الصلاة والسلام (ما افترض اللهُ على خلقه بعد التوحيد أحب اليه من الصلاة ولو كان شىء أحب اليه منها لتعبد به ملائكته ، فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد) (ق) .

ألا فليبك على نفسه من لم ينل هذا الشرف العظيم ، وليسع جهده لنيله مادام فى العمر بقية ، وإلا فقد ندم يوم الفزع الأكبر وباء بخزى مبين ، يوم تخر الخلائق سجداً لربها ، ولا يستطيع هو أن يكون مع الساجدين — وليعلم أن الله تعالى لما أراد أن يتمم مكارم الأخلاق ، ويضع فى الأرض نظاما يسعد بنى آدم فى الدنيا والآخرة ، بعد أن طغى الفساد ودبت الهمجية فى أنحاء المعمورة ، وضلت الخلائق فى غياهب الكفر ، وتاهت فى ظلمات المعاصى والفجور — بعث نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً للعالمين ورحمة ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأرسله بدين حضارته هى الحضارة الصحيحة ، وتعاليمه هى المدنية الحقة ، وكفى أنه دين الله القويم ، وقد تشرف هذا الغافل بالانتماء اليه تبعاً لأبويه ، ولكن ماذا قدم بنفسه ؟ أيظن أنه يعتبر مصلياً بركوع وسجود أبيه . أو ينال أجر الصوم بجوع وعطش أخيه . أو يكتب حاجاً بطواف وعمرة بنيه — كلا — فقد قال الله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) أى لا يكون له حظ فى الآخرة إلا بما قدم بنفسه لنفسه — وهذا الصنف من المسلمين أخطر آفة على الدين ، لأنه قد ظهر أمام أعدائه بمظهر المستهتر بأوامره ، المستهزىء بتعاليمه — أما الأصناف الأخرى فهاك بيانها : — تاجر ألهته تجارته عن شكر باسط الأرزاق — ووالد شغله ولده وأهله عن ذكر البارىء الخلاق — وزارع عطلته زراعته عن طاعة فالق الحب والنوى ، وصانع شغلته صناعته عن عبادة باعث العزم والقوى ، وغنىٌّ أطغاه ماله فتكبر ولم يعرف قبلة الصلاة ، وفقير ارتاب فى فقره ففسق وعصى مولاه . وذو جاه أنساه جاهه واجبات رب العالمين ، وذو منصب اعتز بمنصبه وترك حقوق أحكم الحاكمين ، وعالم اغتر بعلمه فقعد ولم يعمل مع العاملين ، وجاهل رضى بجهله فلم يتعلم أمور الدين ، وذو صحة أخذته نشوة الصحة فعبث وفسد ، ومريض تمنى لو شفى من مرضه لركع وسجد ، وشاب سوف التوبة وأمل طول البقاء ، وشيخ تباطأ فنزل به الموت وأشقاه الإبطاء ، وفرط كل هؤلاء فى خدمة الإله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هذه حالات بعض المسلمين فى زماننا فى أهم ركن من أركان الدين ، وهى حالات موجبة للأسى والحزن — نعم — تنظر إلى الرجل فتراه موفور الصحة والعافية ،

وموسعاً عليه فى الرزق والأهل والأولاد ، ولله تعالى عنده نعم لا تحصى ولا تعد ، ولكنه ينساها ويتجاهلها - أما إذا سقاه أحد شربة ماء ، أو استضافه ليلة فى عمره فلا ينسى صنيعه ، ويتحدث به طول حياته ، مع أن الله تعالى وسعه فى ملكه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وأطعمه وسقاه عشرات السنين ، مع العصيان ونكران الجميل ، وسبب ذلك ، الجهل وأمراض القلوب ، التى أزمنت ، وظلمات الذنوب التى قد تراكمت ، فتركنا حقوق الخالق وعظمنا حقوق المخلوقين ، ولكن الله كريم حليم.

لذلك كان لزاماً علىّ (بصفتى مسلماً) أن أذكر جميع إخوانى المسلمين بالواجبات المقدسة نحو الخالق سبحانه وتعالى ، وأن أدعوهم جميعهم على اختلاف طبقاتهم ، أن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم ، وأن يقبضوا على زمام دينهم بكل ما أوتوا من قوة ، وأن يتعاونوا على نصرته بما لديهم من شوكة وسلطان ، فليس من شهامة الرجال ، ولا من علامات المروءة ، أن نفرط فى دين أوذى فى تدعيمه أشرف خلق الله وحبيبه وصفيه وخليله ، صلى الله عليه وسلم ، ونهدم بنياناً أسس على دماء شهداء الأمة ، وصناديد الإسلام رضى الله عنهم ، وأذكرك بحادثة استشهاد سيد الشهداء سيدنا حمزة رضى الله عنه ، فى وقعة أحد فقد شج الوحشى ثنته (ماتحت السرة) بالحربة حتى خرجت من بين رجليه فوقع ميتاً ، فجاءت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وفتحت بطنه وأخرجت كبده ومضغته ، وغير ذلك كثير مما كان يحصل للمجاهدين ، ضحوا بأرواحهم الطاهرة وبذلوا نفوسهم فى مرضاة الله تعالى لتثبيت قواعد الدين ، وإعلاء كلمة التوحيد ، ووالله ما كانوا يفرطون فى الصلاة مع القيام بأعباء الجهاد - أما الآن فلا جهاد ولا صلاة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فاعلم أيها المسلم أن الله تعالى قد منّ عليك بأكبر نعمة ، فكتبك فى ديوان الموحدين قبل أن تخلق ، ووالله لو اطلعت على القلم الأعلى وهو يخط اسمك فى اللوح المحفوظ مؤمناً وموحداً ، لقضى عليك الفرح والسرور - ولو أراد الله أن تكون غير ذلك لما كان لك فى الأمر حيلة - فألف شكر لله وألف حمد على ما أنعم به وتفضل .

وفيما يلى تجد منهاجاً للعبادة اليومية جمعته من اخبار النبى صلى الله عليه وسلم ومن آثار الصالحين ، عسى الله أن يوفقنا جميعاً للعمل به ولك أن تزيد ما تشاء .

باب فى ترتيب العبادات اليومية

إذا استيقظت من نومك فقل ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور . وقال عليه الصلاة والسلام (من تعار من الليل فقال ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم قال اللهم اغفر لى غفر له ، أو دعا أستجيب له ، فإن توضأ فصلى قبلت صلاته) (خ) فوجب أن تقول هذا عند قيامك من النوم . ثم تطلب من مولاك التوبة والمغفرة ، ثم تستاك إن أمكن — وتدخل بيت الخلاء برجلك اليسرى وتقول (بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث) وتخرج برجلك اليمنى وتقول (غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى) ثم تستقبل وقت الفجر طاهرا من الحدثين الأكبر والأصغر ، وبعد الوضوء تقف مستقبلا القبلة . وترفع بصرك إلى السماء وتقول (أشهد الا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله) وتقول ذلك عقب كل وضوء ، قال عليه الصلاة والسلام (ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) (د وغيره) . ثم تصلى ركعتى الفجر فى البيت واخرج لصلاة الصبح فى المسجد ، إذا لم يمنعك مانع ، وقل عند الخروج (وقل ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) وتقول أثناء الطريق — اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا اليك، لم أخرج أشراً ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وإذا دخلت المسجد أو السجادة فادخل برجلك اليمنى وقل(بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنبى وافتح لى أبواب رحمتك ، ويسن تأخير صلاة الصبح لظهور النور . قال عليه السلام (أسفروا بالصبح فإنه أعظم للأجر) (ق) وقال عليه السلام (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) (ق) أى الصبح والعصر ، فاذا سلمت من الصلاة فقل — استغفر الله العظيم الذى

لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب اليه — ثلاثا — اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك — اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام) (م) ثم اختم صلاتك بورد القرآن الذى تحفظه والذكر المعروف ثم سبح ثلاثا وثلاثين واحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبره ثلاثا وثلاثين وقل لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، قال عليه السلام (من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر) (م) ثم صل على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغة التى تعرفها وأهمها ما ذكرناه فى بابه الخاص ، فاجعل لنفسك ورداً تقرأه بعد صلاة الصبح من التسبيح والتهليل والاستغفار مما أوردناه فى أبواب هذا الكتاب وأهمها قراءة القرآن سواء عن ظهر الغيب أو فى المصحف ، بحيث يستغرق ذلك إلى طلوع الشمس . قال عليه السلام (لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن اعتق أربع رقاب) (د) .

وبعد ذلك أخرج إلى عملك إن كنت صاحب عمل لجلب الرزق لك ولعيالك — وهذا هو الغالب ، وقل عند الخروج — بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، اللهم إنى لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ماوقيتنى ، اللهم فوفقى لما تحب وترضى من القول والعمل ، فى عافية ، يارب العالمين ، وبادر بالسلام على من تلقاه فى الطريق وكن هاشاً باشاً فى وجوه إخوانك رحيما بهم وغض النظر أثناء سيرك حتى لا ترى عورات الناس — وبخاصة مايقع نظرك عليه من عورات النساء المتبرجات اللاتى ملأن الطرقات فى هذا الزمن — واشغل قلبك بتلاوة القرآن أو الذكر وأدّ عملك بما يرضى الله تعالى ، ولا تخش فى ذلك لومة لائم ، ثم إذا جاء وقت الظهر فصلّه — لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصليه بالهاجرة ، وليكن حديثك أثناء عملك مما لا مخالفة للشرع فيه ، وإذا وجدت من يخوض فى الباطل أو يتحدث بالفحش وبذاءة الألفاظ فانهه عن ذلك ،

فاذا رجعت إلى بيتك فسلم على من فيه من الأهل والزوجة وغيرهم ، وإذا لم يكن فيه أحد فقل (السلام على عباد الله المؤمنين) . قال عليه السلام (من سره أن لا يجد الشيطان عنده طعاماً ولا مقيلا ولا مبيتاً فليسلم إذا دخل بيته ، وليسم على طعامه) (طب) وقال عليه السلام (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال الشيطان أدركتم المبيت والعشاء) (م وغيره) . وكن حليما بأهل بيتك ورحيما بأولادك ولا تجهدهم إذا وجدت منهم مخالفة فى صنع طعام أو تهيئة متاع فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل مما يقدم له ، ويعين أهل بيته على العمل .

وإذا كنت ممن يسهرون الليل للتهجد أو الذكر أو لدراسة العلم فيحسن أن تنام قبل صلاة العصر بقدر مايسمح به وقتك ، وبعد صلاة العصر تسعى فى قضاء مصالحك ولا تنس أثناء ذلك ذكر الله والاستغفار ، فهذا الوقت يضاهى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وهو المراد بقوله تعالى (واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشىّ والإبكار) فاذا جاء وقت المغرب فقل (اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى) (ت) ثم صل المغرب دون تأخير واختم الصلاة . وينبغى أن تحاسب نفسك فقد انقضى من عمرك مرحلة يجب أن تزداد فيها قرباً . فاذا انقضى يومك بخير ووفقت فيه لأداء ما عليك فاشكر مولاك واسأله الزيادة . وإن قصرت فى شىء فأمامك الليل عوض فيه ما فاتك فى النهار . ثم اشتغل باحياء ما بين المغرب والعشاء بالصلاة والذكر . فان تيسر لك العكوف فى المسجد إلى صلاة العشاء فهو أفضل لأنك تكون فى صلاة ما دمت منتظرا الصلاة . وبعد صلاة العشاء اختم بورد الصباح وزد عليه ما تشاء .

واحرص على ورد القرآن فى الصباح والمساء ، كأن تقرأ فى الصباح سورة (يٓس والواقعة) وفى المساء سورة (تبارك والسجدة) .

أما آداب النوم فملخصها أن تنام طاهر الظاهر والباطن وتنوى أن تقوم للصلاة قال عليه الصلاة والسلام (من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته

عيناه حتى يصبح كُتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى) (ن و ه) وأن تنام تائباً من كل ذنب ، وأن تكون سليم القلب فلا تحدث نفسك بظلم أحد أو إتيان معصية . وإذا تيسر أن تستقبل القبلة عند النوم كان ذلك أفضل ، وأن تدعو عند النوم بقولك (باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه . إن أمسكت نفسى فارحمها . وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) (ق) وأن تكبر الله أربعاً وثلاثين وتسبحه ثلاثاً وثلاثين وتحمده ثلاثاً وثلاثين وذلك قبل نومك (ق) . وإذا كنت ممن أسعدهم الله تعالى بالتهجد بالليل فقم فى النصف الثانى إلى طلوع الفجر – سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أى الليل أفضل . قال (نصف الليل الغابر) أى الباقى (أحمد) .

وعليك بصيام الأيام الفاضلة مثل يومى الاثنين والخميس إن قدرت على ذلك ، ولا تغفل عن إحياء الليالى والأيام الفاضلة لأنها مواسم الخيرات وخاصة ليلتى العيدين ، قال عليه السلام (من أحي ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب) (ه).

هذا أيسر العبادة وهو أفضلها عند المداومة عليها . قال عليه الصلاة والسلام (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) (ق) وقال عليه السلام (تكلفوا من العمل ماتطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا) (ق) وقال عليه السلام (خير هذا الدين أيسره) (أحمد) وقال عليه السلام (لا تشادوا هذا الدين فانه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض نفسك عبادة الله) (خ) وهاك دعاء الصباح المستحب قراءته كل يوم .

دعاء الصباح

اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهناً بعملى فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسىء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى . اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعّفها ، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لى إنك غفور رحيم ودود . رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً

وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً . اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شره وشر مافيه ، وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، ومن بغتات الأمور وفجاءة الأقدار ، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق منك بخير يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما . اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وأعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسِنة الغفلة وتعاطى الكلفة . اللهم إنى أعوذ بك من مباهاة المكثرين والازراء على المقلين . وأن أنصر ظالماً أو أخذل مظلوماً ، وأن أقول فى العلم بغير علم ، أو أعمل فى الدين بغير يقين . أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ، أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك . وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك ، وعلى عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ماصنعت . أبوء بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وآخره نجاحاً وأوسطه فلاحاً . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره مكرمة . أصبحنا وأصبح الملك لله . والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

باب فى سعة رحمة الله تعالى

نختم هذا الكتاب كما بدأناه ، بحمد الله تعالى والثناء عليه ، ونختم أبوابه بهذا الباب على سبيل التفاؤل ونرجو من الله أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة . فقد قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال عز وجل (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) وقال سبحانه (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا ، ونستغفره من أقوالنا التى لا توافق أعمالنا — ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه — ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته — ونرجو بعد الإستغفار من جميع ذلك كله لنا ، ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه ، أو سمعه ، أو ساعد على طبعه ، أو عمل على نشره ، أو انتفع به ، أن يكرمنا بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق فائض ، ونحن خلق من خلقه عز وجل . لا وسيلة لنا اليه إلا فضله وكرمه — فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون . وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة) (م) وقال عليه السلام (لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى) (خ) وقال عليه السلام (إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ، قالوا بلى ، فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار ، فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها . فيسمع الله عز وجل ماقالوا ، فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة . فيخرجون . فإذا رأى ذلك الكفار . قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (ن) بإسناد صحيح . وعن عبادة بن الصامت قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من شهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار) (م)

هذه الأحاديث وما أوردناه فى فضيلة الرجاء تبشرنا بسعة رحمة الله تعالى — فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته ، والحمد لله رب العالمين ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته ، والتابعين إلى يوم الدين .

التحية الوفية

إلى رمز التقوى والصلاح — إلى مؤلف (طب القلوب) . أزف تحيتى

قصيــــدة

العبقرى القدير والأديب الكبير

الأستاذ عبد الستار عبد الغنى مروان

المدرس بالمنوفية

وحى من الوحى أم نورٌ من النور ... أم ومضةُ البرقِ فى أعماقِ دَيجورِ
أم بسمة من ضياء الحق تُرسلُها ... كالسحر تعملُ — لا — بل كالمقادير
أم أن نور الهدى شعت بوارقه ... تُهدى إلى الخلد والولدان والحور
قد شفَّك الوجد حتى رحتَ تَبعثُها ... نشوان فى الله لكنْ غير مخمورِ
تعالج القلبَ فى رفق وفى دَعة ... والناس ما بين مفئود ومصدور
دواء مرضاك دينٌ ليس يعدله ... فى سرعة البرء مملوءُ القواريرِ
مِزاجه من روابى الزهد تجمعُه ... كف صناع بسفر منك منشور
يحيى موات الألى قضوا حياتَهُمُ ... ما بين حانات خمر أو مواخير
يطهر القلبَ مما فيه من دَرَن ... وللتقىِّ به آياتُ تذكير
من بعد ما لمستْ كفاك علتَهم ... صِغتَ الدواءَ بإحكام وتدبير

* * *

(طبٌّ القلوب) وقلب الطب مجتمع ... فى در لفظ وفى إبداع تصوير
فيه الشفا للذى ناءت بعلَّته ... جهابذُ الطب فى رفق وتيسير
شط السلامة مضمون لعابره ... واليمن جنَّبه هَوج الأعاصير

* * *

قل للطبيب الذى ضلَّت قريحتُه ... فى علة الجسم كم تُمنى بتقصير

إكشفْ عن الدّاء طى القلب مكمنه وطهّر القلب من رجس ومن زور
(بقراط) ألقى زمامَ الطبّ معتذراً وقدم التاج مبسوط الأسارير
وألبس التاج (محموداً) وزيّنه بالدرّ ما بين منظوم ومنثور

* * *

(يا حُجَّة الدّين) شاء الله مبعثكم على يدَىْ مستفيضِ الزُّهد موفورِ
(إحياءُ علمك) كاد الموت يُدركه واستل باتره فى غير توقير
فأرسل الله من أحيا ذوابلَه بالجدّ، لا يبتغى أجراً لمأجور
غاص البحار وهَوج الريح عاصفة للبحث عن درّها فى غير تقتير
فعاد فى راحتيه الدرُّ مبتسماً فنال من شانئيهِ كلَّ تقدير

* * *

أسطعتَ بعد أفول دام كوكبه فلاح كالبدر من بعد الدّياجير
قرّبت مأخذَه من بعد ما لمستْ فى خوضه الصّيدُ أشتاتَ المعاذير
أوْجزتَ مُشبِهَه فى غير ما خللٍ فليس ثمّةَ ما يدعو لتفسير
سارعتَ كالنحل تجنى زهرَه مرحا وتُخرج الشهد طِباً بعد تكرير

* * *

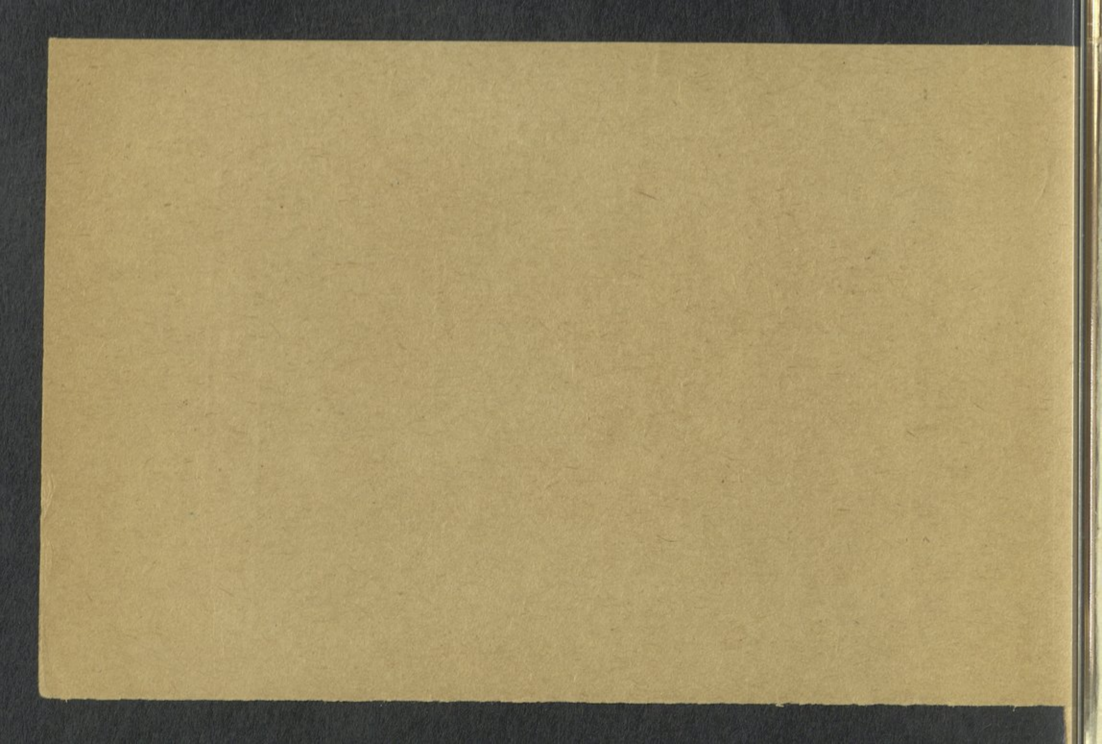
هذا جهادك يا (محمودُ) ترفعه عنك الملائكُ فى بشر وتبشير
ما قلتَ ما قلتَ عن علم تعلّمه من شبّ مثلك يلقى عن «شكسبير»
لكنه اللهُ يُلقى من حقائقه فى قلب مَنْ يتّقى نوراً من النور
يعيا بنانى إذا ما رحتُ أرصِده فاعذر قريضى فهذا فوق مقدور

* * *

(محمود) إن لم تقدّم غيره عملا لسوف تحظى بأجر غيرِ محصور
يومَ القيامة فى الفردوس ترفعه يُمناك ما بين تقديس وتكبير

عبد الستار عبد الغنى مروان

فهرس الكتاب



رجـــــــاء

أرجو من القارىء الكريم أن يلاحظ هذه الأخطاء المطبعية لأهميتها :

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥٦	١٤	قاتل	قابل	٩٠	٢٢	النفوس	الذنوب
٥٦	١٥	قبلت	فعلت	١٢٩	١٩	آخر فيجيء	آخر فيقال هلم هلم
٥٦	١٥	معتمر)	معتمر ومجاهد)	١٣٠	١٧	قام فيها	قام فينا
٧٤	٤	اللهم مقلب	اللهم يا مقلب	١٧٥	٢١	فان مرتكبا	فان كان
٧٧	٢٤	بك خيرا	بك إلا	١٩٣	٢٠	يصبر	يصبر على
٧٩	١٤	الدعاء بهذه	الدعاء العمل	٢١٧	٢٠	دواء الرجال	دواء الرجاء (عنوان)
٨٠	١٨	الواسع	الوسع	٢١٧	٢١	» »	» »
٨٠	٢٠	والواسع	والوسع	٢٤٨	٨	جارين الارض	جارين فى
٨٣	٢٣	عليه	عليك	٢٥٨	٣	الصيحة	الصحيحة

